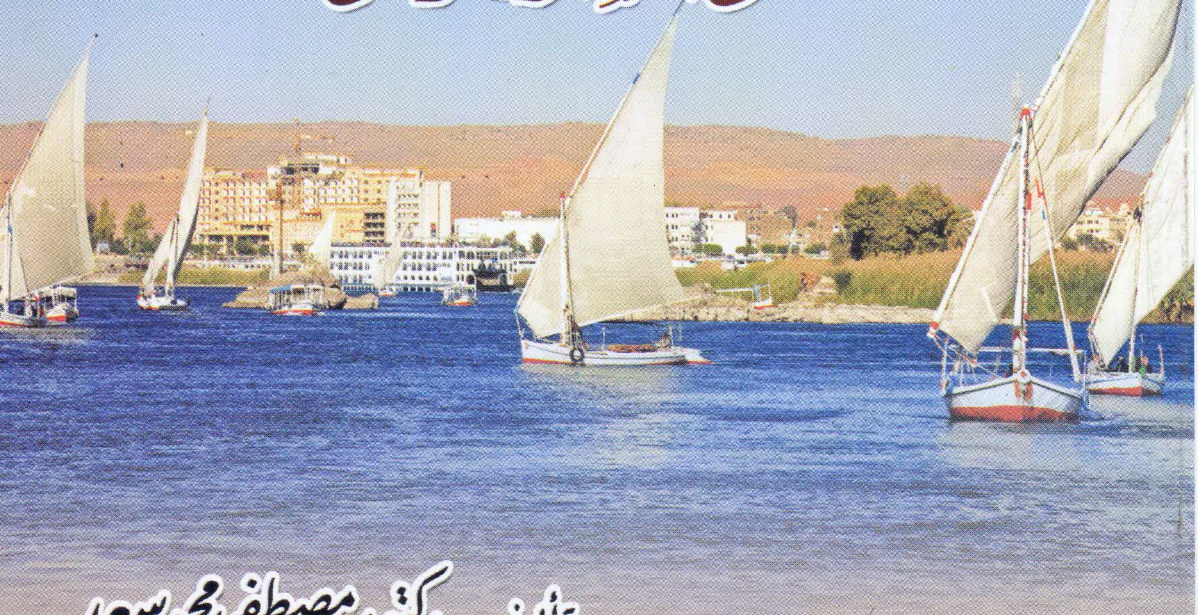
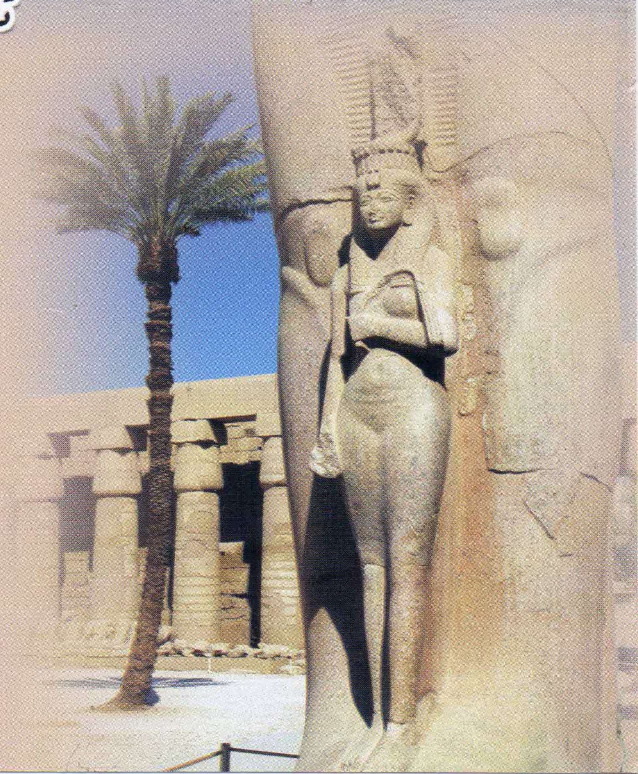
الإسلام والنوبة
في العصور الوسطى



تأليف: دكتور مصطفى محمد سعد



يلقى هذا الكتاب الضوء على دخول الإسلام بلاد النوبة وعلاقتها بمصر التى تُعد من أعمق الروابط وأقواها منذ فجر التاريخ، فكان من الطبيعى أن يمتد الإسلام إلى السودان عبر مصر دون غيرها من البلاد الإسلامية؛ لأن مصر لم تلبث أن صارت مركز الإشعاع الحضارى الإسلامى كما كانت مركز الإشعاعات الحضارية السابقة على مختلف العصور، بيد أن الامتداد الإسلامى إلى السودان اختلف فى مظاهره ووسائله عما جرى عليه الحال فى كثير من الأقطار الإسلامية إذ كان هذا الامتداد نتيجة تفاعل مستمر بين الثقافات الوطنية الموروثة فى النوبة وبلاد البجة وبين الثقافة العربية الإسلامية خلال العهود التى أعقبت الفتح العربى لمصر، مستعرضاً تاريخ ممالك النوبة ومقوماتها الجغرافية لمعرفة ما لهذه المقومات من أثر فى تشكيل المجتمع النوبى وتفسير بعض نواحى حياته ونشاطه وأسس حضارته التى أسهمت بنصيب كبير فى تاريخ السودان.

ISBN# 9789774218473

6 221149 020962

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الإسلام والنوبة
فى العصور الوسطى

بحث فى تاريخ السودان وحضارته حتى أوائل
القرن السادس عشر الميلادى

تأليف: دكتور مصطفى محمد سعد

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١١

وزارة الثقافة
الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد

اسم الكتاب : الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى
المؤلف : د. مصطفى محمد سعد
الطبعة الأولى : ٢٠١١

الاخراج الفنى والغلاف : صبرى عبد الواحد

مسعد، مصطفى محمد.

الإسـلام والنوبة فى العصور الوسطى: بحث فى تاريخ السـودان وحـضـارته حـتى أوائل القـرن السادس عشر الميلادى/ تأليف: مصطفى محمد مسـعـد.ـ القـاهرة: الهـيئة المصـرية العـامة للكتاب، ٢٠١١ .

٢٨٨ص ؛ ٢٤سم .

تدمك ٣ ٨٤٧ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ السودان ـ تاريخ ـ العصر الإسلامى.

٢ ـ الإسلام فى السودان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٨٣٣/ ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 421 -847 - 3

ديوى ٩٥٣

المحتويات

الموضوع	صفحة
تقديم الكتاب للأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة	٩
تصدير	١٣
الفصل الأول: النوبيون	١٧
مقدمة جغرافية . النوبة وأسماؤها المختلفة في التاريخ . النوبيون ومراحل تاريخهم	
الفصل الثانى: بلاد النوبة قبيل دخول المسيحية . النوبيون	٣٧
وعلاقاتهم بالدولة الرومانية. دولة مروى . اضطراب الأمن بمناطق النوبة الوسطى والسفلى . تخلى الرومان عن منطقة النوبة السفلى . استمرار إغارات البليميين، موقف الدولة الرومانية، حملة مكسيمينوس . طرد البليميين من وادى النيل، إغلاق معبد فيلة الوثنى	
الفصل الثالث: دخول المسيحية بلاد النوبة	٥٥

انتشار المسيحية فى مصر . الاضطهادات الدينية والصراع المذهبى وأثرهما فى بلاد النوبة . المسيحية المبكرة عند النوبيين والبجه . أثر كنيسة أسوان . التبشير فى بلاد النوبة، وسائله ومراحله . طبيعة المسيحية فى بلاد النوبة . تحويل المعابد إلى كنائس المسيحية فى أوطان البجه

الفصل الرابع: النظم والحضارة فى ممالك النوبة المسيحية ... ٨١

التنظيمات الإقليمية . التنظيمات السياسية . طبقات المجتمع . التنظيمات الكنسية . الاقتصاد النوبى بعض مظاهر الحضارة النوبية.

الفصل الخامس: النوبيون والعرب ١١٣

الاتصال القديم بين الجزيرة العربية ووادى النيل . الهجرات العربية إلى مصر . أول اتصال بين المسلمين من ناحية وبين النوبيين والبجه من ناحية أخرى . توغل العرب جنوبًا فى أرض النوبيين والبجه، عوامله ودوافعه المختلفة فى التاريخ . بعض آثاره السياسية والاجتماعية والثقافية حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى . أثر الرق

الفصل السادس: سقوط مملكة مقرة المسيحية. انتشار الإسلام ١٤٣

ازدياد النفوذ المملوكى على ساحل البحر الأحمر الإفُريقى . الحملات المملوكية على النوبة، حملتا بيبرس، أسبابهما ونتائجهما، النزاع بين أفراد البيت الملكى النوبى حملات قلاون على النوبة، أسبابها . النزاع بين

ملوك مقرة وملوك علوة . أول ملك نوبى مسلم . ظهور بنى كنز وازدياد نفوذهم . انتشار الإسلام وأثر العرب فيه . سقوط مملكة النوبة المسيحية(مقرة) - بعض الآراء حول عوامل سقوطها، مناقشة رأى ابن خلدون . أحوال بلاد النوبة. الداخلية بعد سقوط المملكة المسيحية.

الفصل السابع: سقوط مملكة علوة . انتشار الإسلام والثقافة العربية فيها ١٧٩

عوامل سقوط مملكة علوة . النزاع بينها بين جيرانها ، أثر الرق . قطع العلاقات الدينية بينها وبين كنيسة الإسكندرية . الهجرات العربية إلى حوض النيل الأوسط وأثرها . الحلف السنارى وقيام مملكة الفونج - جهود العلماء ورجال الصوفية فى نشر الثقافة العربية فى مملكة الفونج حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادى.

خاتمة ٢١٣

الملاحق ٢٣١

تقديم

للأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة

رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة سابقاً.

أخرج علماء السياسة الدولية علماً جديداً وأضافوه إلى قائمة العلوم المتعلقة بمهنتهم، واسم ذلك العلم فى اللغة العربية، السياسة الجغرافية، وفى اللغات الأجنبية «Geopolitics» أى علم سياسة أقاليم الأرض، من باب الترجمة الحرفية ويقوم هذا العلم على دراسة عناصر الجوار الجغرافى والمصالح المشتركة بين الدول، على اختلاف نزعاتها ومشاربها واتجاهاتها السياسية والاقتصادية، ويعتمد الباحثون فيه على الملامح الجغرافية المختلفة لاستنباط قواعد ذلك العلم الجديد، فيقولون مثلا: إن أشباه الجزر الآسيوية الجنوبية، وهى بلاد العرب وبلاد الهند وبورما والصين الهندية على التعاقب، تشبه أصابع اليد، كما تشبه كتلة القارة الآسيوية نفسها راحة اليد التى تمتد منها تلك الأصابع.. ويريد الباحثون بذلك أن يقولوا إنه لا حياة لأواسط آسيا بدون أطرافها، كما أنه لا حياة لأطراف آسيا بدون أواسطها. ويقال ذلك كذلك بصدد مجموعة أشباه الجزر الأوروبية وكتلتها القارية التى تتخللها وديان السين والبو والرين والطونة والدنيبر والفلجا والفستولا والإلب إلى أطراف البحر البلطى شمالا.

ومما يعتمد عليه علماء هذه السياسة الجغرافية الجديدة كذلك فى دعم نظرياتهم الجذابة، مجموعة الشبكات النهرية الكبرى. فيقولون مثلا إن الشبكة النيلية المحتوية على الجمهورية العربية المتحدة وجمهورية السودان ومملكة أثيوبيا

وبلاد أوغندة وكينيا كلها مجموعة واحدة، أو أنها ينبغى أن تكون كذلك دون شىء من السيطرة الخاصة على هذه المجموعة، بل ينبغى أن تكون السيطرة العامة الدائمة فيها لمصالح المجاورة من حيث النواحى الاقتصادية والثقافية والحضارية. ومن هنا تتضح الرابطة الحضارية الوثقى بين الجمهورية العربية المتحدة وجمهورية السودان مثلا، كل الوضوح.

والتاريخ نفسه على مختلف العصور يدل على ذلك دلالة ساطعة مستمرة، فالحضارة المصرية القديمة امتدت امتدادًا طبيعيًا إلى جنوب الوادى منذ فجر التاريخ، وبلغت أقصى امتدادها فى الجنوب على عهد الأسرة الثامنة عشرة المصرية، بحيث يمكن القول إن بلاد النوبة حتى الشلال الرابع على الأقل تمصرت تمصرًا تامًا، وظهرت بها نهضة ثقافية مركزها مدينة نباتا، قرب مروى الحالية. ولما تسرب الضعف إلى الفراعنة فى مصر، وتأسست فى الجنوب دولة كوش النوبية حوالى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، لم يشأ ملوكها أن يقفوا عند شئونهم الجنوبية، بل نجحوا فى إعادة الوحدة بين القطرين وأقاموا أسرة فرعونية نوبية فى نباتا ثم فى طيبة وهى الأسرة الخامسة والعشرون فى سجل التاريخ المصرى القديم. وعندما اضطر النوبيون إلى الرحيل من عاصمتهم طيبة. تحت ضغط الآشوريين ظلت عاصمتهم الأخرى فى نباتا مركز الحضارة المصرية فى الجنوب، وتشبه ملوك نباتا بفراعنة مصر ودفنوا موتاهم الملكيين فى أهرام على الطراز المصرى، ومن هذه أهرام البركل قرب مروى الحالية، وظلت اللغة المصرية القديمة هى اللغة الرسمية للنوبة حتى إذا تغلبت عليها لغة وطنية استعارت هذه اللغة نماذج هيروغليفية للكتابة، كما ظلت عبادة الآلهة المصرية إلى جانب المعبودات المحلية.

ثم جاءت المسيحية إلى بلاد النوبة على أيدى المبشرين والرهبان والمهاجرين المصريين، فاعتنقها النوبيون على مذهب الكنيسة المصرية، فلما جاء الإسلام كان طبيعيًا أن يمتد الدين الجديد من شمال الوادى إلى جنوبه، وهذا هو السر الواضح فى تكرار المحاولات العربية للامتداد الحضارى نحو السودان. ولم يقتصر الأمر طبعًا على حملات حربية ناجحة ، بل تعداه إلى انسياح قبائل عربية

إلى مناطق السودان من ثلاث جهات على الأقل، أهمها وأكثرها نفوذًا وتعمقًا ناحية أسوان منذ فجر الإسلام.

وللبرهان على هذه النظرية الحديثة افتتح الدكتور مصطفى محمد مسعد ميدانًا جديدًا للبحث العلمى فى تاريخ السودان وحضارته. واستعان على ذلك بأدوات الباحث فى التاريخ وهى القراءة الواسعة فى مختلف المراجع والاستنباط التاريخى والمثابرة العلمية، ولذا جاءت فصول كتابه برهانًا نموذجيًا لما ينتج عن دقة البحث وطول الصبر فى التأليف فى التاريخ.

واتفقت لهذا الباحث الناهض فرصة التدريس والمعيشة ببلاد السودان، ولم يقف ذلك عند اتفاق الصدفة العابرة، بل تطور إلى حب منه للبلاد السودانية وأهلها وتاريخها. وهو يتمنى من صميم قلبه أن يتلو هذا الكتاب مجموعة من الوثائق الخاصة بالسودان تكون بمثابة مرجع دائم ومفتاح للراغبين فى الدخول فى هذا الميدان العلمى الفسيح.

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة فى ٢٥ نوفمبر، تشرين الثانى سنة ١٩٦٠

٦ جمادى الثانية سنة ١٣٨٠

تصدير

هذا الكتاب جزء من رسالة تقدمت بها سنة ١٩٥٨ إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة لنيل الدكتوراه فى الآداب، بعد إدخال تعديلات كثيرة على فصولها، من حذف وإضافة وتغيير فى المتن والحواشى، ولذا جعلت لهذا الكتاب عنوانًا مجزوءًا من العنوان الأصلى للرسالة، وهو «ممالك النوبة المسيحية - اضمحلالها وسقوطها»، كما جعلت للعوامل الإسلامية التى أدت إلى زوال هذه الممالك مجالا للشرح والتفسير والتبرير، لأن هذه العوامل هى التى ساعدت على صبغ البلاد النوبية وسكانها بصبغة جديدة هى الصبغة العربية الإسلامية.

وهذه المرحلة من مراحل التاريخ النوبى تعترضها صعوبات أدركها الباحثون الذين حاولوا أن يلقوا بعض الضوء على ناحية أو أخرى من هذا التاريخ الطويل الغامض فى مقال خاص أو بحث موجز. ومنشأ هذه الصعوبات ضياع معظم الآثار التى خلفها عصر الممالك المسيحية فى النوبة، وذلك فضلا عن أن القليل الذى كتبه المؤرخون عن النوبة فى العصور الوسطى جاء فى ثنايا إشارات عابرة على لسان مؤلفى تلك العصور، وبالقدر الذى يحتاجه ذكر العلاقة بين مصر وهذه البلاد.

أما الوثائق والنصوص المكتوبة بلغة أو بأخرى من اللغات الثلاث التى كانت مستعملة فى بلاد النوبة فى العصور الوسطى، وهى اليونانية والقبطية والنوبية.

فمعظمها محدود القيمة من الناحية التاريخية، ولهذا تطلب هذا البحث عملا صابرا لجمع ما يتعلق بالنوبة فى شتى المصادر المعاصرة والنقوش والوثائق والمؤلفات الحديثة والبحوث الأثرية ، لاستخلاص مادة لم يكن من اليسير الانتفاع بها بعد جمعها، لغموض كثير من النصوص واضطراب معانيها واختلاط بعض الحوادث ببعضها الآخر. ومن أجل هذا عمدت إلى كتابة عدد وفير من الحواشى لشرح ما غمض من ألفاظ ومصطلحات ، فضلا عن ملاحق مترجمة ومشروحة فى نهاية الكتاب.

والنوبة فى العصور الوسطى - حسبما ورد فى النصوص والوثائق المعاصرة - كانت أكبر مساحة مما هى الآن، إذ اشتملت وقتذاك على أجزاء وادى النيل الممتدة من أسوان إلى جنوبى التقاء النيلين الأبيض والأزرق، وذلك بالإضافة إلى مناطق من حوض النيل الأزرق والأتبرا حتى أطراف الحبشة شرقًا، وأقاليم كردفان ودارفور غربيًا. ومعنى هذا أن النوبة فى العصور الوسطى هى سودان وادى النيل الذى عرفه التاريخ، على حين أن الإقليم المشهور الآن باسم جنوب السودان، لم يكن معروفًا عنه شىء قبل القرن التاسع عشر الميلادى.

والسودان إقليم شاسع تربطه بمصر أعمق الروابط وأقواها منذ فجر التاريخ، وظل يستقبل ألوانًا من الحضارة المصرية على مدى العصور، ويتأثر بالمؤثرات الثقافية والبشرية التى انتقلت إليه من الشمال عن طريق النيل. ولم تنحصر تلك المؤثرات الثقافية والبشرية فى نطاق الوحدة السياسية التى شملت البلدين فى العصور القديمة، بل استمرت فى العصور التالية استمرارًا طبيعيًا هادئًا رغم ما تخلله من رعدات الحروب وانتفاضاتها.

ولما ظهر الإسلام كان من الطبيعى أن يمتد الدين الجديد إلى السودان من مصر دون غيرها من البلاد الإسلامية، لأن مصر لم تلبث أن صارت مركز الإشعاع الحضارى الإسلامى، كما كانت مركز الإشعاعات الحضارية السابقة على مختلف العصور. بيد أن الامتداد الإسلامى إلى السودان اختلف فى مظاهره ووسائله عما جرى عليه الحال فى كثير من الأقطار الإسلامية الأخرى، إذ كان هذا الامتداد نتيجة تفاعل مستمر بين الثقافات الوطنية الموروثة فى النوبة وبلاد

البجه وبين الثقافة العربية الإسلامية خلال العهود التى أعقبت الفتح العربى لمصر.

وللتدليل التاريخى على تلك الظاهرة الحضارية المهمة، اقتضى منهج البحث أن تنقسم محتويات هذاالكتاب إلى سبعة فصول، يعالج الفصل الأول منها سلسلة المراحل التاريخية والحضارية التى مر بها النوبيون حتى قيام ممالكهم المسيحية فى القرن السادس الميلادى، أى قبيل ظهور الإسلام. ويعرض الفصل الثانى لعلاقة النوبيين والبليسيين (البجة) بالإدارة الرومانية فى مصر قبل اعتناقهم المسيحية، أما الفصل الثالث فيشرح دخول المسيحية بلاد النوبة والتعرف على أدوار انتشارها بين النوبيين، ونوع التعاليم التى تلقوها على يد مبشريها الأولين. ومن هنا ينتقل البحث إلى ميدان جديد فى الفصل الرابع، وهو شرح التنظيمات الإقليمية والسياسية وأحوال النوبيين الاجتماعية والدينية والاقتصادية ومظاهر الحضارة النوبية عامة، سواء من ناحية الحكم الملكى المطلق ونظام وراثة العرش، أو إدارة الأقاليم، أو التوزيع الإقطاعى، أو الكنيسة النوبية. ثم يتناول الفصل الخامس عملية التسرب البشرى والثقافى التدريجى من مصر إلى بلاد النوبة، وأوطان البجه عقب الفتح العربى لمصر، وازدياد الهجرات العربية التى نقلت معها الدم العربى والثقافة الإسلامية منذ منتصف القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى). ثم يعالج الفصل السادس زوال مملكة النوبة الشمالية «مَقُرّة» أوائل القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) على أيدى القبائل العربية الإسلامية التى استوطنت هذه المملكة من قبل.

وحدث مثل ذلك تقريبا فى المملكة الجنوبية «علوة» التى سقطت على أيدى جماعات الفونج وحلفائهم العبد اللاب من قبيلة جهينة العربية فى مطلع القرن (العاشر الهجرى) وهذا هو موضوع الفصل السابع الذى يتناول فضلا عن ذلك عملية انتشار الإسلام والثقافة العربية فى بلاد النوبة عمومًا وهو ما أرجو أن أتعرض له فى كتاب خاص بتاريخ الممالك الإسلامية فى السودان، فى المستقبل القريب .

وأحب هنا أن أقدم شكرًا قلبيًا لجميع الذين ساعدونى على السير فى دراستى الجامعية فى مختلف مراحلها، وأول أولئك أستاذى الدكتور محمد مصطفى زيادة فهو صاحب الفضل فى توجيهى نحو الدراسات السودانية، وتذليل

صعوباتها الفنية فى الدكتوراه، بإرشادى إلى مختلف المراجع والوثائق ومظان الاطلاع عليها ولست أنسى ما أوصانى به من ضرورة التأهل للكتابة فى التاريخ - قبل البدء فى عملى - بصفات ضرورية للمبتدئ، وهى صفات الأناة والمثابرة والموازنة بين المراجع، وتقدير مؤلفات السابقين حسب قواعد الجرح والتعديل. ثم أتوجه بالشكر كذلك إلى كل من الأساتذة محمد شفيق غربال ومحمد عوض محمد وعبدالمنعم أبو بكر وعز الدين فريد وحسن عثمان وأحمد فخرى ومحمد محمود الصياد اعترافًا بجمائلهم العلمية المختلفة أثناء دراستى بمعهد الدراسات السودانية (الإفريقية الآن) ثم أقدم الشكر إلى الأستاذين مراد كامل والسيد الباز العرينى على ما أبدياه من روح النقد الصارم، وما زودانى به من ملحوظات علمية انتفعت بها. فى إخراج صفحات هذا الكتاب.

وأود أن أتقدم بالشكر إلى السادة السودانيين المسئولين عن ميلى العلمى نحو السودان وتاريخه، وأولئك هم السيد الدكتور محمد أحمد على وزير الصحة، والسيد الأستاذ زيادة أرباب وزير المعارف والعدل بجمهورية السودان. ثم أتوجه بالشكر إلى إخوانى السودانيين الذين زودونى بكثير من الآراء العلمية والمعلومات القيمة ومن أولئك صاحب الفضيلة الشيخ محمد المبارك عبدالله شيخ علماء السودان وصاحب الفضيلة الشيخ مجذوب مدثر كبير مدرسى معهد أم درمان العلمى وشيخ الطريقة التيجانية بالسودان والأستاذ ثابت حسن مدير مصلحة الآثار السودانية والدكتور محيى الدين صابر بمنظمة اليونسكو.

ولا يفوتنى هنا أن أقدم الشكر كذلك إلى الدكتور خليل محمود عساكر الأستاذ بجامعة القاهرة بالخرطوم على تفضله بمراجعة أصول الكتاب قبل طبعه.

مصطفى محمد سعد

القاهرة فى ٢٨ نوفمبر، تشرين الثانى ١٩٦٠

٩ جمادى الثانية ١٣٨٠

الفصل الأول

النوبيون

مقدمة جغرافية - النوبة وأسماؤها المختلفة فى التاريخ - النوبيون ومراحل تاريخهم.

* * *

من الضرورى قبل أن نبدأ بدراسة تاريخ ممالك النوبة المسيحية، أن نتعرض فى شىء من الإيجاز، للمقومات الجغرافية للبلاد التى قامت فيها هذه الممالك المسيحية، لمعرفة ما لهذه المقومات من أثر فى تشكيل المجتمع النوبى، وتفسير بعض نواحى حياته ونشاطه وأسس حضارته.

يطلق لفظ «النوبة» على أجزاء وادى النيل الممتدة على جانبى النهر نهر النيل الأعظم بين مدينتى أسوان والخرطوم الحالية ، وعلى الرغم من انكماش أوطان النوبيين ففى الوقت الحاضر فإن ذلك لا يمنع من دراسة إقليم النوبة بوضعه الجغرافى القديم، لأنه كان مجالا لنفوذ تلك الممالك التى أسهمت بنصيب كبير فى تاريخ السودان فى العصور الوسطى.

ويبدو من وصف الكتّاب القدماء لهذه البلاد، أنه لم يطرأ تغيير ظاهر على بيئتها الطبيعية، ما خلا ما تناولته يد الإنسان بالتعديل أحيانا، وبالتهذيب أحيانا أخرى[1].

ويتصف هذا الجزء من وادى النيل بظواهر جغرافية مهمة، أثرت فى تاريخ الجماعات البشرية التى استوطنته فى مختلف العصور. ومن أهم هذه الظواهر

كثرة انحناءات المجرى فيما بين مدينتى أسوان والخرطوم، فضلا عن اعتراض الجنادل، وهو بهاتين الظاهرتين يمثل القطب الذى ترتبط به حياة السكان، الذين تجمعوا فى واديه الصحراوى الضيق[٢] وثمة ظاهرة أخرى هى اختلاف الأحوال الجوية بين جزأى الإقليم، فبينما نرى منطقة يصيبها مطر صيفى محدود وتمتد من جنوبى بربر إلى الخرطوم، نرى منطقة نادرة الأمطار أو تكاد تكون عديمة الأمطار. وهذه تمتد من شمالى بربر إلى أسوان؛ لذلك قسم الجغرافيون إقليم النوبة إلى ثلاثة أقسام هى: وادى النوبة العليا ـ ووادى النوبة الوسطى ـ ووادى النوبة السفلى[٣].

أما وادى النوبة العليا فيمتد من منطقة التقاء النيلين الأبيض والأزرق إلى دنقلة، وتبتعد حافة الوادى بعض الأحيان قليلا على جانبى النهر فيتسع الوادى، وتصبح له صفة الحوض، الذى تتغمر بعض أجزائه خلال أيام الفيضان. ويتمثل ذلك فى الجزء الذى يقع فيما وراء شندى[٤]. وكذلك الجزء الذى يمتد إلى ما وراء الجانب الأيسر من النهر، فيما بين مروى (وأبو فاطمة)[٥]. وتمثل هذه المناطق التى يتسع فيها الوادى على أحد الجانبين مركز تجمع السكان الذين تساعدهم البيئة الطبيعية على مباشرة الزراعة معتمدين على مياه النهر.

وتفهم أحوال المناخ فى النوبة العليا من موقع الإقليم على الحافة الصحراوية التى تتضاءل فيها كميات المطر السنوى إلى حد كبير، إذ يلاحظ المتجه شمالا من الخرطوم تناقص كمية المطر السنوى، فهى فى الخرطوم ١٦٣ مليمترًا سنويًا، وفى أتبرا ٧٥ مليمترا سنويًا، ومن ثم يزداد الجفاف شمالا فتنخفض كمية المطر السنوى فى كريمة إلى ٢٥ مليمترًا سنويا، وتتساقط هذه الكمية المحدودة فى شهور الصيف، فيما بين يوليو وسبتمبر[٦] وهى الشهور التى ترتفع فيها الحرارة بشكل ملحوظ وتسود فيه رياح الجنوب الساخنة. وهذه الكميات المحدودة من المطر لا تؤثر فى حياة السكان ونشاطهم، إلا فى حدود ضيقة، ولكنها مع ذلك تتجمع فى بطون الأودية الجافة والأخوار، وتسيل فى اتجاه الوادى من الصحراء التى تشرف على الجانبين، فتبعث بعض النشاط فى بطون تلك الأودية، حيث

تمرح الحيوانات فى مناطق العشب القصير الذى يتبع فصل المطر. وتمثل هذه الأودية من ناحية أخرى طرق المواصلات التى تنساب من الشرق والغرب إلى الوادى، ومنها وادى الملك الذى ينساب منحدرًا من الجنوب الغربى إلى الوادى قرب الدبة. ووادى مقدم الذى ينساب فى قلب صحراء بيوضة نحو الشمال. أما من ناحية الشرق فهناك وادى عامور الذى ينساب من السفوح الغربية لتلال البحر الأحمر(٧).

فى هذه المنطقة - أى فى وادى النوبة العليا - قامت دولة كوش، وكانت عاصمتها نباتا ثم بعدها مروى(٨)، التى تكونت فى منطقة يتسع فيها الوادى اتساعًا ملحوظًا، حتى أصبحت مركزًا زاول فيه السكان الزراعة. وكانت مروى تعتبر مركزًا مهمًا للتجارة، لا بين الجنوب والشمال عن طريق النيل فحسب، بل كذلك بين سهول كردفان فى الغرب وموانى البحر الأحمر فى الشرق(٩).

ووصف سترابون وديودور الصقلى وبلينى هذه البلاد. فأشار سترابون إلى موقعها بين التقاء نهر Astaboras «الأتبرا» ونهر Astasobas «النيل الأعظم» وهى غنية بثروتها المعدنية والغابية، وكان سكانها يزاولون الزراعة والصيد. ولاحظ سترابون تجمع السكان على امتداد هذا الجزء من وادى النيل، فعلى الجانب الأيسر كان يعيش النوبيون والليبيون. وفى الناحية الشرقية إلى البحر الأحمر كان يعيش الميجاباريون Megabari والبليميون Blemmyes. أما الصحراء فكانت خالية من السكان إلا فى بعض مواقع(١٠) كالواحات. وفى هذه المنطقة أيضًا قامت دولة علوة نحو منتصف القرن السادس الميلادى، وكان طرفها الشمالى منطقة الأبواب (كبوشية الحالية) وتمتد إلى جنوب التقاء النيلين الأبيض والأزرق. وقامت العاصمة سوبا على الضفة اليمنى للنيل الأزرق.

أما وادى النوبة الوسطى، فيمتد من دنقلة إلى حلفا، وكان ولا يزال جزءًا أساسيًا من أوطان النوبيين. واحتفظ النوبيون به عندما اضطرتهم الأحوال البشرية التى سادت إلى التخلى عن أغنى الأجزاء من وطنهم. ويتصف هذا الإقليم بضيق واديه وكثرة ما يعترض مجرى النهر من جنادل(١١). ويقلل القيمة الإنتاجية لهذا الإقليم، ضيق الشريط الخطيب على جانبى النيل، وارتفاعه كثيرًا

عن مستوى النهر. ومما يزيد الحياة صعوبة كذلك وقوع هذا الإقليم فى وسط النطاق عديم المطر، وتتراوح كمية المطر السنوى بين الصفر وخمسة مليمترات. فلا يصيب الإقليم إلا بعض الرذاذ الذى يتساقط فجأة ودون أن يكون لسقوطه قيمة تذكر(١٢).

وبهذا يمكننا تصوير مدى قسوة الأحوال الطبيعية فى هذا الإقليم، ومدى ارتباط حياة السكان تمامًا بالنهر، ونوع الفيضان والمستوى الذى يصل إليه ماؤه. ويمارس السكان زراعة السلوكا فى الأجزاء الضيقة المحدودة التى ينحسر عنها النهر فى مدة انخفاض المناسيب ، وتزرع فى هذه الأجزاء المحاصيل دون رى معتمدة على ما تتشبع به من رطوبة فى موسم فيضان النهر، ويغلب عليها أن تكون من المحاصيل سريعة النضج. أما الزراعة الحقيقية فتعتمد على الساقية التى تروى مساحات محدودة لا تزيد على عشرة أفدنة. وامتدت المضخات إلى هذا الجزء، ولكنها لم تجد أرضًا فسيحة لخدمتها إلا فى منطقة الأحواض التى تعرف باسم حوض دبيرة وحوض حلفا (١٣).

ويكتنف ذلك الإقليم على الجانبين صحراء جافة جرداء تنعدم فيها مظاهر الحياة إلا فى مناطق الواحات. وأهم هذه الواحات ما يمر بها درب الأربعين وهى واحة بيرنطرون ونخيلة وسليمة.

وأما وادى النوبة السفلى فيمتد بين وادى حلفا وأسوان، ويمثل بذلك المرحلة الأخيرة للوادى الضيق. وهذا الجزء من الوطن النوبى محدود القيمة، ففى مدة ارتفاع المناسيب يبدو النهر منحصرًا بين حائطين جبليين شديدى الانحدار، ويبدو هذان الحائطان عموديين فى بعض المواضع، ويشرف على النهر مباشرة بعض الثغرات التى تمثل فتحات للأخوار والوديان التى تنساب إلى النهر من الجانبين الشرقى والغربى.

أما فيما يتعلق بالنهر ذاته فهو معتدل الجريان صالح للملاحة (١٤) وفى مدة انخفاض المناسيب ينحسر النهر عن شريط ضيق،، يظهر هنا وهناك فى أحد الجانبيين، وفى هذا الشريط يكثر النخيل ويهبط السكان من حافتى الوادى

ليمارسوا الزراعة، فيزرعون مساحات محدودة للغاية. أما فى موسم الفيضان فتغمر تلك المساحات، ويصعد السكان إلى قراهم فيما وراء مستوى التخزين ويباشرون زراعة مساحات أشد ضيقًا فى مصاطب يعدونها على المنحدرات، ويرفعون الماء إليها بالسواقى.

ويعتبر هذا الإقليم - وقد بدا فقره - موطنًا من مواطن العزلة التى يعبر عنها العلماء بأنها مناطق الطرد. ونرى النوبيين جيلا بعد جيل يخرجون من أوطانهم الفقيرة متتبعين مجرى النهر شمالا وجنوبا، ولكنهم مهما طال بهم البعد عن أوطانهم يعودون إليها. ويعيش كثير من سكان القرى النوبية اليوم على المساعدات المادية من أولئك الذين يعيشون فى مصر والسودان (١٥).

وقامت فى هاتين المنطقتين - النوبة السفلى والوسطى - مملكة النوبة الشمالية وأطلق عليه اسم مَقُرَّة، وعاصمتها دنقلة، وامتدت هذه المملكة من جنوبى أسوان إلى منطقة الأبواب (١٦). ويبدو أن اختيار دنقلة عاصمة للدولة المسيحية فى الشمال، كان نتيجة لوقوعها فى منطقة يتسع فيها الوادى، بحيث يسمح بقيام حياة بشرية مستقرة.

***

عرفت هذه المنطقة جميعها - أى النوبة العليا والوسطى والسفلى - وهى التى تمتد من الشلال الأول فى الشمال إلى جنوبى التقاء النيلين الأبيض والأزرق باسم النوبة فى العصور الوسطى. ولكن ما مصدر هذه التسمية؟

ليس لدينا من الوثائق ما يشير إلى ظهور كلمة نوبة قبل العصر البطلمى فى مصر. وأول من أشار إليها إراتوسطينى Eratosthenes الجغرافى اليونانى وأمين مكتبة الإسكندرية (٢٧٦ - ١٩٦ ق.م) ، ثم أخذها عنه سترابون. ويبدو مما ذكره سترابون عن هذه المنطقة وسكانها أنها أخذت اسمها من أحد الشعوب التى كانت تعيش على الضفة الغربية للنيل وهم النوبيون. ثم صار هذا الشعب فيما بعد سيدًا عليها كما أن اسمه ظل علمًا على هذه المنطقة كلها طوال العصور الوسطى(١٧). بيد أن سترابون ذكر أن النوبيين شعب مستقل عن الأثيوبيين، على حين ذكرهم بلينى على أنهم شعب من مجموعة الشعوب الأثيوبية التى تعيش فى وادى النيل(١٨).

وجاء فى النقوش المصرية القديمة ذكر كلمة نوب nubu ومعناها الذهب ـ أى بلاد الذهب ـ وهو أحد الأسماء التى أطلقها المصريون القدماء على هذه البلاد. كما وصفت البلاد بهذا الاسم فى كتابه فى الأسرة الثانية عشرة فى عهد الملك أمنحتب الأول(١٩).

وأقدم تعريف للبلاد الواقعة جنوبى مصر مباشرة، جاء فى نقوش الدولة القديمة. إذ أطلق المصريون على هذه البلاد اسم خنت، ومعناها الأراضى الجنوبية (٢٠) ويقول ريزنر إن المصريين القدماء أطلقوا اسم الأراضى الجنوبية على الأقاليم المتاخمة لمصر من ناحية الجنوب وتمتد إلى أواسط إفريقيا وشرقها وتضم شعب بنت، والزنوج فى الجنوب، والنوبيين بوادى النيل، والليبيين فى الصحراء الغربية، وبدو الصحراء الشرقية (٢١). وأطلق المصريون القدماء على الجهات الجنوبية كذلك اسم تاستى، أى أرض القسى.

وجاء فى الآثار أن خشب الأبنوس كان يأتى من تاستى. وهذا لا يعنى بلاد النوبة السفلى، بل يعنى بلاد السودان الواقعة جنوبى الشلال الثانى(٢٢). ثم تطورت هذه الأسماء، فأطلق على هذه البلاد فى الدولة الحديثة اسم خنت ـ هن ـ نفر. وتدل المتون على أن هذا الأسم كان يطلق على السودان حتى الشلال الثالث على الأقل، بل يحتمل إنه أطلق على كل البلاد التى خضعت لمصر فى هذه الجهات الجنوبية، ولم يكن يقتصر على جزء معين من بلاد النوبة (٢٣).

وجاء فى الآثار كذلك ذكر اسم نحسيو ويقصد به سكان الجنوب ولما دخل الزنوج لأول مرة بلاد النوبة ـ قرابة بداية الأسرة الثانية عشرة ـ واستوطنوا بعض جهاتها، كانوا كذلك يسمون نحسيو .. وعلى هذا فإن اسم نحسيو أخذ بالتدريج يحمل المعنى الخاص بالزنوج (٢٤).

وأطلق اسم كوش على الإقليم الواقع جنوبى وادى حلفا وعاصمته نباتا ويحكمه نائب ملك يحمل لقب ابن الملك صاحب كوش.

ولما ضعفت مصر قرابة منتصف القرن الثامن ق.م. ووقعت فريسة للغزاة، وأضحت أرضها ميدانًا للحرب بين المتنافسين عليها من ملوك آشور، وملوك نباتا،

ورد ذكر هذا الصراع فى الوثائق الآشورية وأشير إلى ملوك نباتا باسم كوش. وعليه فإن كوش فى نظر الآشوريين امتدت وقتذاك إلى الشلال الرابع.(٢٥)

أما اليونانيون فأطلقوا على هذه الأقاليم كلها اسم إثيوبيا. وورد ذكر الإثيوبيين فى أشعار هوميروس، ونوه هذا الشاعر بمكانة الإثيوبيين عند الآلهة اليونانية. وحدد هيرودوت موقع إثيوبيا فى أقصى الجنوب، بيد أن نظرة هيرودوت لأوطان الإثيوبيين كانت أوسع من نظرة من جاء بعده من الكتاب، فشملت ـ فى نظر هيرودوت ـ أراضى واسعة فى إفريقيا وجنوب غربى آسيا، بل والهند كذلك. وعلى الرغم من أن هيرودوت زار مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد، ووصل فى رحلته جنوبًا إلى أسوان، فإن وصفه لشعوب إثيوبيا وتحديد أوطانهم لا يستند إلى حقائق جغرافية أو أثنولوجية (٢٦).

وحدد سترابون موقع إثيوبيا بالأراضى الضيقة التى تحاذى النيل، وتمتد من جنوبى أسوان إلى منطقة المستنقعات التى يتعذر سكناها.

أما تقدير كل من بلينى وديودور الصقلى لأوطان الإثيوبيين، فتشمل إثيوبيا فى نظرهما جميع الأراضى الممتدة جنوبى مصر إلى قلب إفريقيا، والتى تمتد شرقاً إلى البحر الأحمر. ويبدو أن اسم إثيوبيا كان من اختراع الكتّاب اليونانيين ويقصد به وطن الزنوج، ولم يعرف لهذه المناطق حدود جغرافية واضحة (٢٧).

وفى العصر الرومانى عرفت النوبة السفلى باسم دوديكاشينوس «Dodekaschoinos» ، وتريا كونتاشينوس «Triakontaschoinos» والأولى تمتد من أسوان إلى المحرقة الحالية « Hierosykaminos» وتمتد الثانية من المحرقة إلى عكاشة جنوبى الشلال الثانى، وتدل هذه الأسماء على امتداد التنظيم الرومانى إلى هذه الأقاليم وتقسيم الرومان لها إلى أقسام. وإلى الجنوب من الشلال الثانى قامت دولة كوش، وظلت هذه الأقسام إلى قيام الممالك المسيحية فعرفت بأسماء أخرى (٢٨).

وقبل أن ننتقل إلى دراسة النوبيين ومراحل تاريخهم، نرى من الضرورى أن نتعرف على أوطانهم وتوزيع سلالاتهم الحالية فى الوطن النوبى.

تمثل الأوطان الحالية للنوبيين، تلك الأراضى الملاصقة لنهر النيل من شمالى أسوان إلى بلدة الدبة وكورتى[٢٩]، وهم يستقلون أحيانا بهذه الجهات النوبية، لا يشاركهم فيها أحد، ويجاورهم أحيانا جماعات عربية [٣٠].

وينقسم النوبيون إلى خمس مجموعات رئيسية: الدناقلة فى الجنوب ما بين الدبة وأبو فاطمة، ثم المحس والسكوت فى إقليم الجنادل، ثم الفديجة ما بين وادى حلفا وكرسكو، والكنوز فى الجزء الشمالى الممتد من كرسكو إلى أسوان[٣١].

وعلى الرغم من أن النوبيين فى تاريخهم الطويل دخلت بلادهم عناصر مختلفة واندمجت فيهم، فإنهم ظلوا متمسكين بثقافتهم وبلغتهم الخاصة [٣٢].

وتختلف لغة النوبيين اختلافا يسيرًا من إقليم إلى إقليم، فلغة الدناقلة والكنوز تكوّن مجموعة متشابهة، ولغة السكوت والمحس والفديجة تكوّن مجموعة ثانية متشابهة [٣٣].

هذا من حيث توزيع سكان النوبة الأصلية فى الوقت الحاضر، أما الجزء الممتد من الدبة إلى جنوبى التقاء النيلين الأبيض والأزرق، وهو الوطن القديم للنوبيين المسيحيين فيحتله الآن الجعليون.

وفيما يتعلق بموضوع المراحل التاريخية للجماعات النوبية واستقرارها فى أوطانها حتى ظهور ممالكهم فى القرن السادس الميلادى، فإنه كان ولا يزال موضع خلاف بين العلماء، وخصوصًا عندما تعرضوا لأصل هؤلاء النوبيين، حتى أضحى فى نظرهم مشكلة تشغل تفكيرهم. وخرج علينا كثير من العلماء بأبحاث وآراء متعددة متضارية حول أصل النوبيين. ولا يهمنا من هذا الموضوع شىء بقدر ما يهمنا التعرف على المراحل التى مرت بها هذه الجماعات النوبية حتى اكتمل مجتمعهم عندما استقبلوا الدعوة المسيحية، والأسس التى أقاموا عليها حضارتهم وهل هم شعب أصيل فى أوطانه أو هو عنصر دخيل فرض ثقافته على شعوب سبقته إلى هذه الأوطان؟.

يحسن أن نستعرض فى إيجاز المناسبات التى ذكر فيها اسم النوبيين، وهل يمثلون العنصر الوحيد فى أوطانهم التى ورد ذكر اسمهم فيها أو شاركهم غيرهم من العناصر الأخرى؟.

عرف العرب سكان وادى النيل من أسوان إلى جنوبى الخرطوم الحالية باسم النوبة ، وسبقهم فى الإشارة إلى النوبيين كثير من الكتاب القدماء أمثال أرانوسطينى وسترابون وبلينى[٣٤].

وجاء بعد هؤلاء بطليموس الذى عاش فى القرن الثانى للميلاد: وذكر أن النوبيين يعيشون على الضفة الغربية للنيل وفى جزيرة مروى [٣٥]، وجزر النيل[٣٦] كذلك.

وذكر أجاثيماروس Agathemarus ، أنهم كانوا يسكنون على ضفتى النيل الشرقية والغربية [٣٧].

وذكر بروكوبيوس Procopius (٥٤٥م) أن النباطيين Nobatae سكنوا الواحة الخارجة فى القرن الثالث الميلادى عندما استدعاهم دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٢٩٦ م) للاستقرار فى منطقة النوبة السفلى الرومانية ، ليدفعوا عن الرومان خطر البليميين. ثم تحدث عنهم مرة أخرى أنهم يسكنون النوبة السفلى فى منتصف القرن السادس الميلادى [٣٨].

وفى القرن الرابع الميلادى نسمع عن غزوة قام بها عيزانا أول ملوك أكسوم المسيحية على مملكة كوش. وجاء فى اللوحة التى سجل عليها عيزانا انتصاراته، أن النوبيين يحتلون جزءًا من جزيرة مروى، وكانت لهم مدن على طول النيل.

وفى بردية ترجع إلى القرن الخامس الميلادى (٤٢٥ ـ ٤٥٠م) نرى أسقف فيلة يوجه نداء للإمبراطور تاوداسيوس الثانى ليحمى كنائسه من إغارات البليميين والنوباديين «Annoubades» وهذه الوثيقة المعاصرة تؤيد وجود النوباديين فى منتصف القرن الخامس الميلادى [٣٩].

وتحدث المؤرخ الرومانى برسيق «Priscus» عن نص المعاهدة التى فرضها مكسيمينوس «Maximinus» (٤٥١م) على النباطين والبليميين وهى معاهدة عدم اعتداء لمدة مائة عام [٤٠].

ويذكر يوحنا الآفسسى فى كتابه «التاريخ الكنسى» أن النباطيين يسكنون إلى الجنوب من أسوان، على حين يعيش البليميون فى الصحراء الشرقية. وتشير الوثائق القبطية إلى أن المملكة المسيحية فى الشمال أطلق عليها اسم نوباتيا «Nobatia» أو نوباديا «Nobadia» [٤١].

وعلى هذا فإن ما لدينا من معلومات عن النوبيين منذ القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن السادس الميلادى، لا تزيد عن أن تصفهم بأنهم قبيلة أو شعب من الشعوب التى تسكن وادى النيل من الشلال الأول حتى جزيرة مروى. وهم أحيانا يسكنون غرب النيل وأحيانا أخرى على جانبى النيل، وأحيانا يحتلون بعض جهات الأتبرا وجزيرة مروى، ثم نسمع عن وجودهم فى الواحة الخارجة. وأخيرًا نراهم فى القرنين الخامس والسادس يسكنون جهات النوبة السفلى، وحتى عهد الملك سلكو - قرابة منتصف القرن السادس الميلادى على الأرجح - كانوا يمثلون عنصرًا متمايزًا عن بقية الإثيوبيين.

إن هذه الإشارات المختلفة إلى النوبيين فى خلال التسعة قرون التى سبقت الفتح العربى لمصر، أثارت الخلاف بين العلماء عن أصل النوبيين. هل هم فى الأصل قوقازيون حاميون، أم أقوام من الجنوب وتغلب عليهم الصفات الزنجية؟ الواقع أن بعض العلماء وقعوا فى خطأ كبير عندما بنوا نظرياتهم الخاصة بأصل النوبيين على أسس لغوية دون غيرها. وبذلك حدث خلط بين النوبيين على النيل (البرابرة كما يسمونهم الان فى مصر) وبين النوباويين سكان جبال نوبا فى جنوب كردفان، رغم ما بينهما من فروق جسمانية وثقافية واضحة (٤٢).

بيد أن البحث الأثرى فى المنطقة ـ التى ينتظر أن تغمرها المياه بسبب تعلية خزان أسوان سنة ١٩٠٧ ـ على يد ريزنر وغيره من الأثريين، كشف عن ثقافات مختلفة فى منطقة النوبة، لعلها تفيد فى تفهم خصائص هذه الجماعات التى عمرت المنطقة منذ أقدم العصور، وصفاتها الطبيعية ونوع حضارتها ومدى اتصالها بغيرها من الجماعات المجاورة وتأثرها بها.

ونظرًا لاستقرار الجماعات البشرية فى بلاد النوبة منذ عهد سحيق يرجع إلى ما قبل التاريخ ، فإن العلماء لجئوا إلى تقسيم المقابر التى تحوى آثار هذه الجماعات وبقايا عظامها إلى مجموعات رمز لها بالأحرف A.B.C.D.X ، وتمثل كل مجموعة من هذه المجموعات الثقافية عصرًا معينًا.

وتشمل المجموعة الثقافية A (من قرابة ٥٠٠٠ ق.م. إلى ٣٠٠٠ ق.م..) عصر ما قبل التاريخ وعصر الأسرات الأول، وفيه تكونت السلالة النوبية الأولى. ودل

البحث الأثرى بالنوبة السفلى على وجود سلسلة مراكز للسكان عند فتحات الأودية حيث كونت الرواسب مساحات مختلفة صالحة للزراعة، وقامت حياة سكانها على الزراعة، كما دلت بقايا هؤلاء السكان على أنهم من نفس سلالة قدماء المصريين الذين سكنوا مصر قبل ظهور الأسرات المصرية وهم جميعًا من الجنس الحامى، كما أن فخارهم ومصنوعاتهم من المعدن والحجر والعاج وغيرها كانت مطابقة فى مادتها وشكلها للمصنوعات التى وجدت فى نفس العهد المصرى(٤٣). كما أن طريقة الدفن تشبه تلك التى وجدت فى مصر فى ذلك العهد.

ولاحظ إليوث سمث أن المؤتمرات الزنجية لم تصل إلى مصر ولا إلى بلاد النوبة قبل عهد الأسرة الثالثة المصرية، باستثناء النساء الزنجيات اللائى اتخذهن المصريون أو النوبيون أزواجًا لهم. ويضيف إلى هذا قوله: «إن الأبحاث الأثرية تؤيد ما ذهبت إليه من أن سكان النوبة حتى الأسرة الثالثة كانوا امتدادًا لسكان مصر نحو الجنوب (٤٤)».

والمجموعة الثقافية «B» فى بلاد النوبة، تقابل من حيث الزمن عصر بناة الأهرام حتى الأسرة السادسة. غير أنه لم يلاحظ عليها أى أثر مصرى بارز كالكتابة مثلا. والواقع أن ثقافة النوبيين فى هذا العهد تمثل صورة منحطة من ثقافة المجموعة A التى كانت فيما يبدو مخالفة لها (٤٥). ويرى فرث أن أهم ما يلاحظ على ثقافة المجموعة النوبية «B». اختفاء الأوانى الفخارية، وأن العدد القليل الذى عثر عليه من نوع محلى ردىء يختلف عن الفخار المصرى(٤٦). ويرى ريزنر أن طريقة الدفن عندهم تختلف عن تلك التى اتبعت فى عهد ثقافة المجموعة «A» ويدل هذا على أن مظاهر الاحتكاك الحضارى بين مصر والنوبة فى هذا العهد كانت ضعيفة (٤٧).

أما المجموعة الثقافية «C» (٢٤٠٠ -١٦٠٠ ق.م) فدلت الأبحاث الأثرية على أن سكان النوبة فى هذا العصر كانوا من الحاميين الذين اختلطت دماؤهم بدم الزنوج، وهم قوم من الرعاة اضطروا إلى ترك أوطانهم الأصلية والتقدم شمالاً تحت ضغط جماعات أقوى منها (٤٨). وإذا قورنت ثقافتهم بثقافة الدولة الوسطى المصرية وجدت متخلفة عنها.

وفى عهد الدولة الحديثة نزحت أفواج كبيرة من مصر إلى بلاد النوبة.

وظهرت فى بلاد النوبة نهضة ثقافية مركزها نباتا، وازدحمت البلاد بطوائف مختلفة حملت معها ألوانا من الحضارة المصرية. ويمكن القول إن بلاد النوبة مصرت تمصيرا تاما وانتشرت عبادة الآلهة المصرية جميعًا وخاصة آمون.

أما المجموعة الثقافية «X» (من ٣٠٠ م. ٥٥٠ م) فتشير تقارير العلماء الذين قاموا بفحص مقابر أصحاب هذه الثقافة فى بلانة وقسطل وفركة إلى وجود الأثر الزنجى واضحا [٤٩]، ويرجع إلى هجرة زنجية من الجنوب واستقرار أصحابها فى بلاد النوبة واختلاطهم بسكانها [٥٠]، كما أثبت فحص الجماجم البشرية وجود عدد من النساء مساوٍ تقريبا لمثله من الرجال، مما يدل على أن وجود هذه العناصر الزنجية لم يكن الغرض منه مجرد الغزو، بل كان الدافع لهم الاستقرار فى هذه الجهات وتعميرها، ويبدو من التقرير الذى وضعه الدكتور البطراوى أن هذه الهجرة كانت زنجية تحت قيادة حامية [٥١]. وأهم ما يلاحظ عل هؤلاء القوم، أنهم مارسوا الزراعة بوصفها حرفة أساسية تساندها حرفة الرعى، واختفاء الطابع المصرى فى بناء المقابر وطرق الدفن، وكثرة وجود الضحايا البشرية والحيوانية. وهى تمثل خليطا من حضارة بيزنطية ومروية لم تخل من الآثار البدائية [٥٢].

واختلف العلماء فى أصل أصحاب هذه المجموعة الثقافية «X» ويرى فرث أنهم نباطيو دقلديانوس. ولا يسلم كروان بهذا الرأى لأسباب منها أنه لم يعثر على آثار أصحاب هذه الثقافة إلا منذ القرن الرابع الميلادى على حين أن النباطيين جاءوا إلى النوبة فى القرن الثالث الميلادى، كما أن النباطيين لم يتخطوا مدينة المحرقة، على حين وجدت آثار المجموعة «X» فى جهات تقع إلى الجنوب من الشلال الثانى عند فركة [٥٣].

واعتقد البعض اعتمادًا على ما ذكره المؤرخ أوليمبيودوروس Olympiodorus أن البليميين هم أصحاب الثقافة «X» . لأن هذا المؤرخ لاحظ أن البليميين يحتلون خمس مدن على النيل من إبريم إلى فيلة فى أواخر القرن الخامس الميلادى. وفى هذه المنطقة ذاتها عثر على آثار المجموعة الثقافية «X» مما يرجح معه نسبة البليميين إلى هذه الثقافة. ولكن يصعب التسليم بهذا لرأى لأن البقايا التى عثر

عليها فى مقابر المجموعة الثقافية «X» ، تدل على أن أصحابها كانوا قوما مستقرين يمارسون الزراعة، على حين أن البليميين شعب رعوى متنقل، ثم أن وجودهم فى هذه المنطقة كان مؤقتا لم يلبثوا أن طردوا منها على يد الملك سلكو. وبفحص الجماجم لوحظ وجود نسبة كبيرة من الدماء الزنجية، وهى تختلف عن تلك التى وجدت فى مقابر المجموعتين الثقافيتين «B، A »، وهى كما سبق تنسب للجنس الحامى أيضا، وينسب إليه البليميون. وثالثهما يتعلق بتوزيع آثار هذه المجموعة إذ عثر عليها جنوبى الشلال الثانى، على حين أن البليميين لم يتخطوا إبريم فى المدة التى استقروا فيها مؤقتًا على النيل، قبل طردهم نهائيًا على يد الملك سلكو(٤٥).

ورأى آخر ينسب أصحاب هذه الثقافة إلى النوبا ـ النوباديين ـ «noba noubades» ، الذين خضعوا إلي لسلطان الملك سلكو، الذى أطلق على نفسه لقب ملك النوباديين والأثيوبيين، وهذا اللقب يؤكد قيام التحالف بين النوبيين والمرويين، والذى ظهرت آثاره فى مخلفات المجموعة الثقافية «X» ، وهى تحتوى ـ كما سبق أن بيننا ـ على عناصر ثقافية مشتركة نوبية ومروية (٥٥) وتمكن النوباديون (النوبيون) بفضل ملكهم سلكو بعد طرد البليميين من منطقة إبريم ـ الشلال، أن يصبحوا سادة هذه المنطقة التى تمتد من فيلة شمالا حتى الشلال الثالث جنوبًا، وأن يؤسسوا مملكة نوباتيا (النوبة) وعاصمتها بلانة (٥٦).

هذه هى مجموعة البحوث التى قام بها علماء الآثار، وهى وإن لم تقطع برأى صريح فى أصل النوبيين، فإنها مع هذا ألقت ضوءًا على المجموعات البشرية التى عمرت بلاد النوبة منذ أقدم العصور وتتابعها الزمنى.

ومن السهل أن نسلم ـ بعد دراسة نتائج أبحاث علماء الآثار والأجناس ـ بأن النوبيين بوضعهم الذى كانوا عليه عندما استقبلوا الدعوة المسيحية كانوا يمثلون خليطًا من سلالات حامية مثل سلالة قدماء المصريين فى عصر الأسرات الأول وما قبلها، ومن سلالات زنجية، وذلك لأن بلاد النوبة منذ عهد الأسرة الثالثة المصرية استقبلت جماعات حامية من الشرق والغرب وجماعات مصرية من الشمال، كما أنها أخذت تستقبل من الجنوب جماعات زنجية (٥٧).

ويرى كروان أن النوباديين «Annoubades » الذين ورد ذكرهم فى بردية ليدن[٥٨] والنباطيين الذين عقد معهم مكسمينوس صلحا، ونوباديى سلكو، هم جميعا النوبيون الذين أغاروا على مروى فى القرن الرابع الميلادى، ثم اندفعوا شمالا أمام الغزو الأكسوسى إلى جهات النوبة الوسطى. ومن الجائز أن هؤلاء عاشوا جنبا إلى جنب مع المرويين أخذوا عنهم بعض ثقافتهم التى تتمثل فى ثقافة المجموعة «X» إلى جانب المؤثرات البيزنطية كما سبق ذكره [٥٩]. ويبدو أن هؤلاء الطارئين يمثلون العنصر الزنجى فى ثقافة المجموعة «X» ومن الجائز أن يكون هؤلاء من سلالة العناصر الزنجية التى امتدت أوطانها جنوبى مروى، من أرض الجزيرة شرقا إلى جبال كردفان غربا. ويفسر هذا وجود أوجه شبه بين الفرجاب الذين يعيشون قرب بارة بكردفان وسكان جبل مويا. وأيضا بين النوباويين بجبال كردفان وسكان دار فونج بأرض الجزيرة، لا فى الصفات الطبيعية فحسب، بل فى بعض عناصر ثقافتها كذلك. وهؤلاء هم الذين أغاروا على مروى، ثم تكوّن منهم بعد ذلك الحلف المروى النوبى تحت زعامة سلكو[٦٠].

بيد أن دى فيار يفرق بين النوبا Nuba، وهم فى نظره أصحاب البلاد الأصليين وبين النباطيين Nobatae الذين ظهروا فى بلاد النوبة السفلى الرومانية منذ عهد دقلديانوس. ويرى دى فيار أن أصل النباطين من ليبيا، وأنهم نزحوا من شمال إفريقيا تحت ضغط الرومان الذين شنوا عليهم حربا لا هوادة فيها اقتضتها سياستهم التنظيمية الجديدة ، وإزاء هذا الضغط الرومانى ، اضطر هؤلاء إلى الهجرة إلى الصحراء. متخذين طريق الواحات، كما فعل أسلافهم من الطمحو وخلفاؤهم من الهوارة وغيرهم، وساعدهم ظهور الجمل (فى القرن الأول الميلادى) على سرعة تحركهم فى الصحراء. وعلى الرغم من هذا فإن علاقتهم بالرومان لم تنقطع، وكثيرا ما ترددوا على المدن الرومانية بشمال إفريقيا ليغشوا أسواقها، كما أنهم قاموا بدور الوسيط فى نقل المتاجر الرومانية، واستقر بعضهم فى الواحة الخارجية، وعندما اضطر دقلديانوس إلى الاستعانة بهم ضد البليميين، استدعاهم إلى بلاد النوبة السفلى فى القرن الثالث الميلادى، وسيطروا على منطقة النوبة السفلى، واختلطوا بسكانها القدماء،

وأخذوا عنهم بعض عاداتهم، ودخلوا فيما بعد فى المسيحية، وأسسوا مملكة النوبة المسيحية. فهم يمثلون إذن فى رأى دى فيار الطبقة الأرستقراطية فى المجتمع النوبى، على حين يمثل النوبيون الأصليين عامة الشعب، وهم الذين كشفت عنهم أعمال التنقيب فى مقابر المجموعة «X» التى سبق ذكرها (٦١).

ومع ما فى هذا الرأى من طرافة إلا أنه لا يمكن قبوله، لأن معنى هذا أنه قبيل مجىء هذه الطبقة الأستقراطية من ليبيا إلى بلاد النوبة السفلى، كان جميع سكانها من الزنوج ، وهذا مما لايتفق والحقائق التاريخية ونتائج الأبحاث الأثرية.

أما البحوث اللغوية التى قام بها بعض علماء اللغات لحل مشكلة أصل النوبيين كما يدعون، فقد لا تفيد كثيرًا بقدر ما تزيد هذا الموضوع تعقيدًا. وذلك أن فرديك ملر ومدرسته لاحظوا وجود نوع من التشابه بين اللغة السائدة فى بلاد النوبة وبين بعض اللغات الموجودة فى شمال تلال كردفان، فبنوا نظرياتهم على أساس أن النوبيين والنوباويين (سكان جبال النوبا فى جنوب كردفان) من سلالة واحدة، رغم ما بين الشعبيين من خلاف كبير. ويرى عوض بناء على ما قام به سلجمان من دراسات فى هذا الموضوع أن ملر ومدرسته وقعوا فى خطأ مزدوج.

ذلك أن اللغة التى قد تشبه من بعض الوجوه لغة النوبيين لم تكن سوى واحدة من ثلاث فى الجبال جنوب كردفان. وثمة خطأ كبير آخر هو أن السلالة النوبية قوقازية على حين أن النوباويين فى جبال كردفان تغلب عليهم الصفات الزنجية، كما أن ثقافتهم تختلف تمام الاختلاف (٦٢).

يرى زيلارس أن لغة جبال النوبة بكردفان واللغة النوبية على النيل هما فرعان من لغة واحدة كانت منتشرة فى شمال كردفان ثم انتقلت بواسطة أصحابها إلى كل من الإقليمين (٦٣).

ومن الضرورى إذًا أن نبحث أصل هذه اللغة، هل هى حامية أو زنجية؟ يرى راينش أن اللغة النوبية حامية الأصل ثم دخلتها مؤثرات أجنبية (٦٤).

ولعل هذه المؤثرات الأجنبية من الجنوب.

وعليه فإن النوبيين - كما و صفهم اليوث يمث - حاميّو الأصل من نفس سلالة قدماء المصريين وتأثروا على مدى العصور بمؤثرات زنجية ظهرت بوضوح فى المجموعة الثقافية «X» وبالتالى يغلب على اللغة النوبية أنها ذات أصل حامى تأثرت ببعض المؤثرات الزنجية. أما عن وجود شبه بين إحدى اللغات الثلاث الموجودة فى جبال كردفان الجنوبية وبين اللغة النوبية فإن هذا لا يقوم دليلا على اشتراك هاتين السلالتين فى أصل واحد، فهو لا يستند إلى حقائق علمية، فالاختلاف واضح بينهما. والأرجح أن بعض الموجات النوبية سواءً أكان هذا قبل سقوط دنقلة أو بعدها، هاجرت إلى بعض جهات كردفان أمام الضغط العربى المستمر، واستقرت بعض عناصرها فى شمال جبال كردفان وفرضت اسمها ولغتها على سكان الجبال دون غيرهم، وهذه كانت واحدة من اللغات الثلاث الموجودة بهذه الجبال. وما لبث أن أطلق العرب اسم نوبا على سكان الجبال جميعا. وربما كان هذا راجعا إلى أن هؤلاء النوبيين المهاجرين كانوا عنصرًا بارزًا مما جعل اسمهم علما على الجبال جميعا على الرغم من أن السكان الأصليين لا يطلقون على أنفسهم اسم «نوبا» ولكن «سكان الجبال».

هوامش الفصل الأول

(1) Kirwan , L.P. The "Ballana Civilization. Bulletin" de la societe Royale de Geographie d' Egypte XXV ; p.103.
(2) Tothill,. j. D.: ed. Agriculture in the Sudan p. 740.
(٣) محمد عوض محمد ـ السودان الشمالى ـ سكانه وقبائله ـ ص ٢٨٥.
(4) Tothill, J.D. ed. op. cit. p. 744.
(٤) محمد عوض محمد ـ نهر النيل – ص ١٢١.
(6) Tothill., J D. ed - op. cit. p. 740.

(٧) خريطة السودان ـ طبعة مصلحة المساحة السودانية عام ١٩٥٥ بالإنجليزية.
(٨) مدينة نباتا وهى العاصمة القديمة لدولة كوش تقع عند سفح جبل البركل قريباً من الشلال الرابع، أما مروى فهى بخلاف مروى الجديدة والتى تجاور مدينة نباتا. ومروى القديمة تقع بالقرب من كبوشية الحالية ويسمى الإقليم الواقع بين الأتبرا والنيل جزيرة مروى.
(9) Thimingham, J.S. Islam in the sudan . pp. 42. 43.
(10) Budge, E. A.. Wallis.: The Egyptian sudan. p. 158.
نقلا عن .strabo .
(١١) محمد عوض محمد ـ نهر النيل ص ١٢٢ ـ ١٢٣.
(12) Tothi!l, J.D.- ed. op. cit. pp. 742- 750.
(13) Tothill, J.D., ed. op. cit. p. 749.
(١٤) محمد عوض محمد ـ نهر النيل ـ طبعة ثانية ص ١٢٣.
(١٥) محمد عوض محمد ـ السودان الشمالى ـ سكانه وقبائله. ص ٢٨٥.
(١٦) مازال النهر ما بين الشلال الأول والسادس يعرف باسم النيل النوبى. ويعنى هذا أن النوبيين خلعوا اسمهم على النهر بعد أن تخلوا عن جزء كبير من واديه من الخرطوم إلى الدبة.
(17) Beckett, H. w.: ASN. 11. Report for 1907 -8, p.343.

(18) Kirwan. L.p.: A survey of Nubian origins", S N R., XX, part II. 1937. pp. 47, 48.

(19) Mac Michael. H. A.: A History of the Arabs in the sudan. I. p. 12.

(20) Budge, E.A. W. : A Hist of Ethiopia, Nubia, and Abyssinia, I,p.1.

(21) Reisment. G.A.: outline of the Ancient Hist. Of the sudan,, SnR. I. No L. 1918 p. 3.

(٢٢) سليم حسن . مصر القديمة ، جـ ١٠، ص ٨٠.

(٢٣) المصدر السابق، ص ٧٨.

(٢٤) المصدر السابق، ص ٨١.

(25) Budge,E.A.W.: A Hist.Of Ethiopia.op. cit.p.2.

(26) Beckett.H.W.: op. cit.p. 343.

انظر كذلك:

Herodotus: The HistoryII.p.148. I, pp. 218. 264.

(27) Arkell, A.j.: A History of the Sudan to 1821. p. 113.

أطلق ريزيز على دولة نباتا . مروى اسم إثيوبيا مؤثرًا طريقه الكتاب القدماء الذين عاصروا دولة مروى ، وأطلقوا على ملكيا اسم ملك الإثيوبيين، ولما كان تاريخ بعض أقاليم دولة مروى أو كوش أو إثيوبيا ، كما سماها الكتاب القدماء ، اختلط بتاريخ دولة اكسوم فى الحبشة، فإن الأحباش فى الوقت الحاضر يطلقون على دولتهم إسم إثيوبيا بدلا من الحبشة. ولهذا يحسن أن نحدد اسم مملكة نباتا . مروى باسم دولة كوش تميز ا لها عن اثيوبيا الحالية الحبشة.

(٢٨) انظر ص ٥٧، ٦٩، ٧٨.

(٢٩) هذا التحديد ينصب على الأوطان الحالية للنوبيين، وهى تمثل نصف المساحة التى كانوا يحتلونها من قبل، فامتدت كما سبق أن أوضحنا إلى الجنوب من التقاء النيلين الأبيض والأزرق، بل امتد نفوذها أحيانا إلى بعض جهات الجزيرة. ولكنها انكمشت إلى الحدود الحالية على إثر ضغط القبائل العربية التى احتلت أخصب بقاعها إلى الجنوب من الدبة كما سنوضحه فيما بعد.

(٣٠) محمد عوض محمد . السودان الشمالى، ص ٢٨٤.

(٣١) المصدر السابق، ص ٣٠٢.

(٣٢) المصدر السابق، ص ٢٨٥.

(33) Hamilton' J.A.ed.; The Anglo Egyptian sudan from within. p. 168.

انظر كذلك Griffith F Il. Ency. Brit. Art. Nubia.

(٣٤) كان اراتوسطينى أول من أشار إلى النوبيين فى مؤلفه الجغرافى عن النيل (٢٠٠ ق.م) وتبعه سترابون وذكر أن النوبيين بأقسامهم الكثيرة يؤلفون وحدة مستقلة عن سلطان ملوك مروى ، وهم يعيشون على الضفة الغربية للنيل فى ليبيا، ويمتد وطنهم من شمال مروى إلى انحناءة النيل.

«Strabo The Geogrephy of strabo .» VILL. P. 7,

أما بلينى وهو أيضًا من كتّاب القرن الأول الميلادى فيشير إلى أن النوبيين كانوا يقطنون على بعد ثمانية أيام من جزيرة سمبرتى «Sembritae». (وهى غير معروفة لنا الآن) إلى مدينة جيقال لها تتويسس Tenup-sis على النيل Arkell. A. J.Op. cit. p. 178. وتتويسس هذه ربما يقصد بها بنوبس panubs فى جزيرة أرجو.

(35) Kirwan. L.P.: A survery of Nudian Origins SnR. XX part L. 1937.p.46.

(36) Arkell. A.J.: op. cit. 178.

(37) Kirwan. L. P. : Opcit. 49.
(38) procopius.: History of the Wars. transl. b. H.B. Dewing. p. 185.
(39) Kirwan. L.P. op. cit. p. 53.
(40) Arkell. A.J.: op cit p. 179.
(41) Kirwan. L. p. cit. p. 55.
(٤٢) محمد عوض محمد . السودان الشمالي . ص ٢٧٨ .
(٤٣) سليم حسن . مصر القديمة . جـ ١٠، ص ٢ . ٤ .
وانظر Arkell. A. J. : op. cit. pp. 37 -38
(44)" LIlliot smi th, G : Anatomical Report" 'A' ASA B.3, pp. 22 , 23.
(٤٥) سليم حسن . مصر القديمة، جـ ١٠ ص ١٨ ، ١٩ .
(46) Firth, C.M.: ASn, Report for 1908 -9, I.p.1.
(47)Ibid, op. cit. p.12.
(48) Ibid, op. cit. p.14.
(49) Kirwan. L.p.: The Oxford University Excavations at Firkap. 36.
(50) Ibid, op. cit. p. 38.
(٥١) محمد عوض محمد . السودان الشمالي، ص ٢٩٨ .
(52) Kirwan, L.p. :"The Ballana Civilization" op.cit. p. 104.
(53) Kirwan, L.P. : Firka p. 39.
(54) Kirwan, L.P. : Firka OP. cit. P. 39.
(55) IBID, OP. CIT. P. 43.
(56) kirwan, L., p. : Asurvey of Nubian origins', Snr. xx part, II. p. 59.
(٥٧) تمثل مروى فى رأى فرث نقطة التقاء هذه العناصر الحامية القادمة من الشرق والنيلية (الزنجية) القادمة من الجنوب، ثم أخذ هذا الخليط يهبط أرض النوبة السفلى:
Firth, C.M.: ASN REPORT for 1910 - 11, P. 37.
(٥٨) وهى البردية التى تشير إلى نداء أسقف فيلة إلى الامبراطور ناوداسيوس الثانى لحماية كنائس أسوان والفنتين من البليميين والنوباديين.
(59) KIRWAN, L. P.: "the oxford excavations in nubia" JEA, XXI, P.197.

(60) kirwan, L. P. : FIRKA OP. CIT. P. 43.
(61) De villard, : STORIA DELLA NUBIA CRISTISNA. PP. 133 - 139.
(٦٢) محمد عوض محمد . السودان الشمالي . سكانه وقبائله ص ٢٨٨ . ٢٨٩ .
انظر Seligman, S. G. "Some Aspects of the Hamitic problem in the A. E. Sudan, JRAI, 43. 1913.
(٦٣) محمد عوض محمد . المصدر نفسه . ص ٢٩٠ – ٢/١ .
انظر. Hillelson. S. : "Nubian Origins", SER, XIII, Ipp. 132 - 146.
Henderson, K. D.D.: "Nubian Origins" SnR, XX. ii. pp. 90 - 92.
Henderson, K. D. D.: "Nubian Origins". SNR. XXI, I. pp. 222 - 224.
(٦٤) محمد عوض محمد . السودان الشمالي . سكانه وقبائله، ص ٢٩١ .

الفصل الثانى

بلاد النوبة قبيل دخول المسيحية

النوبيون وعلاقاتهم بالدولة الرومانية

دولة مروى. اضطراب الأمن بمناطق النوبة الوسطى والسفلى. تخلى الرومان عن منطقة النوبة السفلى. استمرار إغارات البليميين. موقف الدولة الرومانية، حملة مكسيمينوس. طرد البليميين من وادى النيل، إغلاق معبد فيلة الوثنى.

* * *

كانت بلاد النوبة جزءًا من دولة كوش التى امتدت من الشلال الأول جنوبًا إلى جهات النيل الأزرق وكردفان(١).

ويرجع ظهور هذ الدولة إلى نحو منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، على يد سلالة من كهنة آمون، الذين هجروا طيبة نحو منتصف القرن العاشر قبل الميلاد، على إثر تولية الملك شاشانق الأول الليبى الأصل حكم مصر.

وأنشأت هذه السلالة الكهنوتية دولة جعلت عاصمتها ناباتا(٢)، واستقلت عن حكم مصر. ولم تقف جهود ملوكها عند شئونهم الداخلية، بل يبدو أن فكرة تخليص مصر من يد الليبيين الأجانب غدت ركنا من أركان سياستهم رغبة فى توحيد القطرين.

وتحقيقا لهذه السياسة. قام ملوك هذه الأسرة الكوشية بمحاولات انتهت بضم مصر إلى كوش وتوحيدهما فى مملكة واحدة عاصمتها طيبة(٣). وأسس هؤلاء

الملوك الكوشيون الأسرة الخامسة والعشرين فى مصر، وهى الأسرة التى منعت الآشوريين مدة من دخول البلاد المصرية. ثم ما لبث الآشوريون أن استولوا على مصر واضطر تانوت آمون آخر ملوك هذه الأسرة فى مصر إلى التقهقر جنوبًا إلى نباتا عاصمة أجداده. وبهذا انتهى حكم الملوك الكوشيين الذى استمر فى مصر من سنة ٧١٥ ق.م. إلى سنة ٦٦٣ ق.م. وانتهت الأسرة الخامسة والعشرون(٤).

أما فى الجنوب فظلت دولة الكوشيين قائمة وأضفى ملوكها على أنفسهم ألقابًا مصرية، وتشبهوا بفراعنة مصر، وظلت نباتا عاصمتهم تمثل مركزًا لنوع من الحضارة المصرية، وظلت اللغة المصرية هى اللغة الرسمية للبلاد، وعندما حلت محلها لغة وطنية ظلت تكتب كذلك بالخط الهيروغليفى، ودفن ملوك هذه الأسرة فى أهرام على الطريقة المصرية، وبنيت المعابد وانتشرت عبادة الآلهة المصرية إلى جانب المعبودات المحلية. ثم فقدت نباتا أهميتها منذ بداية القرن السادس قبل الميلاد، لانقطاع صلتها بمصر، ونفاذ مواردها من مناجم الذهب القريبة، وانتقل مركز الحكم والإدارة إلى مروى(٥)، التى تمتاز بموقع جغرافى فريد وسط سهل غنى بموارده الزراعية، علاوة على وجود صناعة الحديد بالقرب منها. وظلت مروى عاصمة دولة كوش من ٣٠٠ ق.م. إلى ٣٥٠ م على وجه التقريب، أى أن الدور المروى من تاريخ هذه الدولة يعاصر حكم البطالمة ثم الرومان فى مصر.

وفى مروى أخذت الثقافة المصرية تتضاءل شيئًا فشيئًا، حتى غدت مزيجًا من ثقافات مختلفة، مصرية ويونانية ورومانية، فضلا عن ثقافات حبشية سبئية وخاصة فى ناحيتى الدين والفن(٦).

وفى الدور المروى من تاريخ دولة كوش يتحدث الكتاب القدماء عن ملكات (كنداكة) ، يبدو أنهن حكمن أحيانا كوصيات على العرش نيابة عن أولادهن القصر(٧). ويتضح من أخبار ذلك الدور من تاريخ كوش أن العلاقات الطيبة بين البطالمة وحكام كوش استمرت حتى نهاية العهد البطلمى، بدليل أن كليو باترا بعثت بابنيها من القائد الرومانى أنطونيوس إلى الجنوب ليكونا فى مأمن من

خطر الرومان الذين هددوا ملكها فى مصر، ولتنشد مساعدة الكوشيين لها ضد روما[٨] . وربما كان مرجع هذه العلاقات الطيبة إلى أن الدولة البطلمية فى عز أيامها لم تنجح إلى التوسع جنوبى أسوان، بل شجعت المنطقة الممتدة من أسوان إلى المحرقة Hierosykaminos، و هى بلاد النوبة السفلى التى عرفت قديماً باسم. Dodekasch على أن تظل مستقلة عن مصر وكوش تحت حكم أمرائها الوطنيين[٩]. على أن هذه المنطقة لم تلبث أن فقدت استقلالها زمن بطليموس السادس (١٨١ ـ ١٤٥ ق م) ، وظلت كذلك حتى نهاية الدولة البطلمية على يد الرومان عام ٣٢ ق.م [١٠].

***

ويعد العهد الرومانى فى مصر بداية عهد جديد فى تاريخ العلاقات بين مصر الرومانية وبين ملوك كوش، إذ عاد الكوشيون إلى بسط نفوذهم على إقليم دوديكاشينوس ولم يعترفوا للرومان بحقهم فى تلك البلاد، باعتبارهم ورثة البطالمة، كما لم يعترفوا بالحدود القديمة التى امتد إليها نفوذ البطالمة من قبل[١١] ، بل ساعدوا المصريين الذين ثاروا عام ٢٩ ق.م. على الرومان ، فى إقليم طيبة عندما ظهر جباة الضرائب من الرومانيين لأول مرة فى تلك المنطقة، ولذلك أوغل القائد الرومانى كورنيليوس جالوس Cornelius gallus جنوبًا حتى أسوان، بعد أن قضى على الثورة فى طيبة [١٢]، واستدعى إلى أسوان حكام إقليم تريا كونشتشينوى Triakontachoinoi [١٣]، وأوضح لهم أن هذا الإقليم منطقة نفوذ رومانية، على أن تظل تحت حكم أمرائها من الكوشيين [١٤]. ويعتبر هذا أول اتفاق بين الرومان والكوشيين على تحديد مناطق النفوذ والحدود بينهما.

بيد أنه لم يقدر لهذا الاتفاق أن يدوم طويلا، ولم يتح للرومان أيضا فرصة التمتع بثمرة ما أحرزوه من كسب فى هذه المنطقة، إذ شجعت أخبار الفشل الرومانى فى اليمن طوائف الكوشيين على الثورة على الحكم الرومانى، واحتلوا الفنتين وأسوان، وحطموا تماثيل أغسطس قيصر، وهزموا الحامية الرومانية [١٥].

كان من الطبيعى أن يرد الرومان هذا الهجوم ،فقاد جالوس بترونيوس Gal-lus Petronius حملة تعقب بها الكوشيين جنوبًا وطاردهم حتى دكة، ثم دارت

بين الجانبين مفاوضات غير مجدية، فعاد القائد الرومانى إلى الحرب، ونشبت معركة انتهت بهزيمة الكوشيين وأسر قادتهم وإرسالهم إلى الإسكندرية. ثم استولى بترونيوس على دكة وإبريم، ووصل فى زحفه جنوبًا حتى نباتا فحاصرها. وعلى الرغم من العرض الذى تقدمت به كنداكة إلى بترونيوس برد الأسرى الرومانيين وإعادة تماثيل قيصر إلى أسوان، فإن بترونيوس هاجم نباتا واستولى عليها، ثم قفل راجعا إلى الإسكندرية. وفى طريق عودته قوى بترونيوس حصون إبريم، وترك فيها حامية من أربعمائة جندى مزودة بمؤن تكفيها ثلاث سنوات[١٦].

لم يكد بترونيوس يصل إلى الإسكندرية حتى سمع بنبأ الإغارة من جديد على حامية إبريم، فعاد مسرعًا وخلص هذه الحامية من الحصار الذى فرضه الكوشيون عليها[١٧]. وانهزمت جيوش كنداكة، وقبلت دفع جزية وإرسال عدد من الرهائن[١٨]. ثم سعت كنداكة إلى الصلح، وأرسلت سفراءها إلى الإمبراطور، واستغلت الدولة الرومانية هذه الحال، فأكدت حقوقها فى منطقة دوديكاشينو واحتلتها القوات الرومانية. ودام السلام بين الرومان وبين الكوشيين مدة غير قصيرة[١٩]. ثم بدا فى منتصف القرن الأول الميلادى كأن الدولة الرومانية تريد غزو بلاد كوش كلها، إذ أرسل الإمبراطور نيرون (٥٤ ـ ٦٨م) بعثة إلى بلاد كوش لاستطلاع أحوالها، ووصلت البعثة جنوبًا حتى إقليم السدود. بيد أن تقريرها جاء مخيبًا لآمال الإمبراطور فعدل عن مشروعه[٢٠].

وفى مدة قرنين (من ٦٠ م إلى ٢٦٠ م) قام الرومان بسلسلة من مشاريع التعمير فى هذه المنطقة، غرضها توسيع التجارة بين مصر وبلاد دارفور وكردفان. ولهذا أقيمت المعابد فى فيلة وكلابشة، وكشف الرومان طريق القوافل القديم الذى يؤدى إلى هاتين المقاطعتين الغنيتين بمواردهما الطبيعية، كما أقيم معبد فى الواحة الداخلة. ومما لا شك فيه أن الرومان كانوا يهدفون إلى قيام علاقات صداقة بينهم وبين القبائل التى تعيش فى الغرب والجنوب لتحقيق أغراضهم التجارية.

غير أن هذه السياسة السلمية لم تلبث أن طرأ عليها ما أفسدها بسبب إغارات البليميين[٢٢]. ويبدو أن البليميين كانوا يستوطنون بعض جهات النوبة

السفلى. جنوبى المحرقة منذ زمن البطالمة[٢٣]. ولكننا لا نعرف إذا كانوا قد خضعوا لنفوذ دولة مروى فى الجنوب بعد ضم منطقة دوديكاشينوس للإدارة الرومانية فى مصر. أما المعروف فهو أن البليميين لم يستقلوا بهذه المنطقة تماماً على الرغم من احتلالهم لها [٢٤].، ومن هذه المنطقة بدأت سلسلة الإغارات التى شغلت الرومان وضايقتهم وكلفتهم الكثير من الجهد، وكانت أولى هذه الإغارات عام ٢٥٠م.

ومما شجع المغيرين على القيام بهجومهم على الأطراف الرومانية، حالة الفوضى والانقسام فى جوف الدولة الرومانية وقلة حاميات الأطراف[٢٥]، وكذلك تصفية الحكم العسكرى فى منطقة دوديكاشينوس، وإلحاقها بالإدارة المدنية الرومانية بالفنتين. ثم أنه ليس من المستبعد أن يكون البليميون اندفعوا شمالا نحو دوديكاشينوس تحت ضغط قبائل النوبا الذين كانوا مصدر تهديد لدولة مروى فى الجنوب [٢٦].

وفى الواقع أن الإمبراطورية الرومانية قبيل عهد دقلديانوس واجهت مشكلات عديدة فى الداخل والخارج. ففى مصر مثلا قامت حركات قومية تدعو إلى الثورة ضد الرومان للتخلص من نفوذهم. وتركزت هذه الحركات فى الدلتا بزعامة فيرموس المصرى. واشتعلت ثورة أخرى فى طيبة كذلك. وانضم إلى هؤلاء وأولئك أهل تدمر الذين جاءوا إلى الصحراء الشرقية، والليبيون بالصحراء الغربية ، واشترك البليميون فى هذه الحركة العامة . ومما زاد هذه الحركات اشتعالا، قيام يوليوس أيميليانوس Marcus Julius Aemilianus[٢٧]بحركة غرضها الاستقلال بمصر. ذلك أن البليميين انتهزوا فرصة انشغال الجيوش الرومانية بالقضاء على حركة إيميليانوس والقبض عليه واندفعوا شمالا من قواعدهم بالنوبة السفلى وانضم إليهم أهل طيبة واحتلوا قفط ثم انضم إليهم أهل تدمر بقيادة ملكتهم الزّباء Zenobia، وما لبث هؤلاء الحلفاء أن أصبحوا سادة مصر العليا [٢٨].

ثم استتب الأمر للدولة الرومانية بالتخلص من أيميليانوس ، وشرع القائد الرومانى بروبوس Probus فى القضاء على الثوار جميعًا، فأوقع هزيمة

بفيرموس، ثم قضى على أهل تدمر، ورد البليميين إلى ما وراء الشلال الأول في عام ٢٧٤ (٢٩)، وأحرز النصر النهائى على الليبيين بالصحراء الغربية (٣٠). ولم يأت عام ٢٨٠ م حتى عاد الرومان إلى احتلال دوديكاشينوس مرة أخرى. ولم يشأ القائد الرومانى أن يخاطر بقواته بالتوغل إلى الجنوب من المحرقة' ولذا لم يستطع أن يقضى على البليميين، فظل خطرهم قائمًا (٣١).

* * *

أما المرحلة الثانية من مراحل الصراع بين الرومان والبليميين، فتبدأ بعهد دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م)، إذ وجه هذا الإمبراطور عنايته لحل مشكلة الحدود الجنوبية لمصر، وكانت لاتزال موضع تهديد البليميين. فرأى أن منطقة النوبة الرومانية (دوديكاشينوس) منطقة فقيرة لضيق واديها وأن إنتاجها لا يوازى بحال ما يصرف على الدفاع عنها، وأن الاحتفاظ بقوات كبيرة فيها يكلف الخزانة الرومانية ثمنًا كبيرًا (٣٢)،ولهذا قرر إخلاء منطقة دوديكاشينوس ونقل الحامية الرومانية من المحرقة إلى أسوان والفنتين. ثم أغرى دقلديانوس النباطيين Mobotae بترك الواحة الخارجة ليستقروا بهذه المنطقة التى انسحب الرومان منها على أن يمنحهم ملكيتها. واستهدف بذلك أن يضرب عصفورين بحجر واحد، فإن انتقال النباطيين إلى منطقة النوبة السفلى سينهى أعمال الفوضى التى كان النباطيون يقومون بها فى الواحة الخارجة ، ثم أن نظرتهم لوطنهم الجديد سوف تدفعهم إلى مقاومة إغارات البليميين. وقبل النباطيون عروض الإمبراطور واستقروا على كلتا الضفتين فيما وراء الفنتين (٣٣). وقرر دقلديانوس للنباطيين أتاوة سنوية ومثلها للبليميين على ألا يقوموا بعمل عدائى ضد روما (٣٤). لم تقف جهود دقلديانوس عند ذلك، علمًا منه بأن هذه القبائل لاسبيل إلى إرغامها على احترام مواثيقها إلا بالقوة، فاختار جزيرة بالنيل قرب الفنتين، وأقام قلعة حصينة تقوم بالدفاع عن الحدود الجنوبية لمصر ضد المغيرين (٣٥). وبالإضافة إلى كل هذا، رأى دقلديانوس أن يستغل عاطفة البليميين الدينية،

فأقام معبدًا جمع فيه رموز عقائد البليميين والنباطيين والرومان ليدل على أن رابطة دينية تجمع بين الرومان وهذه القبائل وتذكرهم باحترام مواثيقهم (٣٦).

وبمقتضى المعاهدة التى أبرمت بين دقلديلنوس والنباطيين قام النباطيون بدورهم الذى كلفوا به وهو أن يصبحوا المنطقة الحاجزة بين البليميين فى الجنوب وبين الرومان فى الشمال. ويبدو كذلك أن ملوك النباطيين سيطروا على المنطقة التى انسحب منها الرومان (٣٧).

وعلى العموم يمكن القول إن دقلديانوس نجح إلى حد كبير فى وقف الإغارات التى شنها البليميون على جنوب مصر طوال القرون الثلاثة التى سبقت حكمه(٣٨) . وفى عهد قسطنطين الأكبر (٣١٢ - ٣٣٧م) ساد السلام بين الرومان والبليميين، ودلّ ظهور رسل البليميين وسفرائهم فى بلاط قسطنطين(٣٩) على استمرار ذلك السلام(٤٠).

* * *

أما عن سياسة الرومان فى حوض النيل الأوسط والأعلى، فإنها ارتبطت بالاتجاه العام نحو بسط نفوذهم على تجارة الشرق، والاعتماد على حليف قوى لتنفيذ أغراضهم التجارية والسياسية. ذلك أن تجارة الهند والصين وشرق إفريقيا تحولت من أيدى التجار الرومانيين أواخر القرن الثانى الميلادى، إلى وسطاء من الفرس والأحباش والحميريين على أثر الاضطرابات التى شملت أنحاء الإمبراطورية الرومانية حوالى ذلك الوقت (٤١). وفضلا عن هذا فإن دولة مروى - التى تمتعت بمركز تجارى ممتاز لتحكمها فى الطرق التجارية المؤدية إلى مصر فى الشمال عن طريق النيل وتجارة وسط إفريقيا المتجهة إلى البحر الأحمر - أخذت فى الاضمحلال التدريجى منذ منتصف القرن الثالث الميلادى عندما أخذ يغير عليها النوبا (٤٢). وكذلك عندما هدد البليميون منطقة النوبة السفلى وجنوبى مصر فى الشمال ومروى فى الجنوب. ولم يعد النيل طريقًا صالحًا لمرور التجارة بين الجنوب والشمال، ففقد الرومان وارداتهم من وسط إفريقيا وبخاصة الرقيق والعاج وريش النعام والأبنوس عن طريق النيل(٤٣). ولهذا

حاول الرومان توثيق علاقاتهم بدولة أكسوم، واستخدامها فى قمع حركات البجا الشماليين (البليميين) والنوبا، لفتح طرق التجارة من جديد إلى قلب إفريقيا. وتم أول اتصال لهذا الغرض فى عام ١٧٥ م على عهد الإمبراطور أورليان Aurelian (٤٤)، واستمر اتصال التجار الرومان بدولة أكسوم حيث توجد ميناء عدول أعظم سوق لتجارة الرقيق ومنتجات شرق ووسط إفريقيا.، ومن بين هؤلاء التجار فرومنتيوس الصورى المصرى Frumentius الذى أوفده قسطنطين الأكبر لعقد معاهدة تجارية مع عيزانا ملك أكسوم، الذى اعتنق المسيحية على يد فرومنتيوس قرابت ٣٤٠ م. ومنذ ذلك الحين أخذت المسيحية فى الانتشار فى بلاد أكسوم بعد أن مهد لها التجار اليونانيون الذين وفدوا على هذه الديار من قبل. ورسم البطريرك أثناسيوس فرومنتيوس أسقفا لأكسوم(٤٥).

يبدو أن مهمة فرومنتيوس لم تقف عند التبشير بالمسيحية فى بلاد أكسوم، بل حمل عيزانا على تجريد حملته المشهورة على مروى حوالى ٣٥٦ م. وذكر عيزانا فى اللوحة التى تركها تخليدًا لانتصاره، غرضه من هذه الحملة وهو تأديب النوبا الذين يغيرون على جيرانهم ولم يحترموا عهودهم، فأحرق بيوتهم المبنية من القش والطوب، وخرب مزارع القطن، وألقى بتماثيلهم إلى النهر. ومن بين المدن التى ذكرها عيزانا، مدينتا علوه، وودارو(٤٦) وترتب على هذه الحملة القضاء على البيت الملكى المروى، ولكنها - على ما يبدو - لم تترك أثرًا للمسيحية فى تلك الجهات.

* * *

ثم إن السلام الذى ساد مدة بين البيزنطيين والبليميين ما لبث أن تزعزع منذ أواخر عهد الإمبراطور تاوداسيوس الأول Theodosi us (٣٧٨ - ٣٩٥م). ويمكن تفسير هذا بأن البليميين بدءوا يحسون بخطر المسيحية التى تهدد معبوداتهم ومعتقداتهم، وبأنهم شعروا بهذا الخطر من ناحية أكسوم بعد أن اعتنق ملكها عيزانا الدين المسيحى. كما أصدر تاوداسيوس الأول مرسومة الشهير عام ٣٨٥ م، وهو المرسوم الذى قضى بإبطال جميع مظاهر الوثنية. وفى هذا يتضح أن

الضغط المسيحى المزدوج عن طريق أكسوم وعن طريق مرسوم تاوداسيوس خلق عند البليميين ضرورة الاعتداء وشن الإغارات.

وأول ما قام به البليميون هو احتلالهم جزءًا كبيرًا من أرض النوبة الرومانية (دوديكاشينوس) وتحديهم قرارات تاوداسيوس وإظهار الميل إلى أنصار الوثنية ودعاتها، كالاحتفال بالمؤرخ اليونانى اليمبيودرس Olympiodorus الذى زار المنطقة المحتلة فى أرض النوبة الرومانية عام ٤٢١ م (٤٧). وقرابة ذلك الوقت بدأ البليميون سلسلة إغاراتهم على منطقة طيبة والواحة الخارجة. فاحتلوا الواحة الخارجة سنة ٤٢٩ ونهبوا مدنهاوأسروا سكانها ومن بينهم نسطورس الذى كان منفيا بها. بيد أن البليميين اضطروا إلى إطلاق أسراهم(٤٨) لعجزهم عن الاحتفاظ بهم أمام ضغط قبيلة ليبية قوية تدعى ما زيكى Mazici (٤٩) التى كانت تهدد خطوط انسحابهم (٥٠).

ومنذ قرابة منتصف القرن الخامس الميلادى لم يصبح البليميون وحدهم عنصر الشغب مثيرى الاضطراب فى الأطراف الجنوبية المصرية، بل شاركهم النباطيون وكانوا من قبل حماة هذه المنطقة والمدافعين عنها ضد البليميين. ومعنى هذا أن مشروع المنطقة الحاجزة الذى ابتكره دقلديانوس لم يعد صالحًا فى هذا الوقت. ويؤدى اتفاق البليميين والبناطيين وقيامهما بعمل مشترك إلى الاعتقاد بأن هاتين القبيلتين أجمعتا رأيهما على الوقوف فى وجه الدعوة المسيحية فى بادىء الأمر(٥١).

ومن الدلائل على ذلك بردية معاصرة لأواخر عهد تاوداسيوس الثانى، إذ تخبر هذه البردية عن إغارة مشتركة قام بها البليميون والنباطيون على كنائس فيلة. ولهذا التمس أبيون Appion أسقف أسوان والفنتين من هذا الإمبراطور أن يكلف القائد الرومانى الذى ترابض قواته فى تلك المنطقة أن يحمى هذه الكنائس من إغاراتهم (٥٢). ومع هذا يبدو أن البليميين استقروا فى منطقة طيبة، وخضعت لهم الحامية الرومانية فى هذه المنطقة ، وأقاموا نوعًا من الحكم المستقر، واتخذوا بطلمى قاعدة لجيوشهم التى كانت تشن إغاراتها على ما يلى طيبة شمالا (٥٣).

لم يسكت الرومان طويلا على هذه الحال، بل أصدر الإمبراطور مارقيان Marcianus (٤٥٠ ـ ٤٥٧م) أوامره إلى القائد مكسيمينوس Maximinus بضرورة إخضاع البليميين والنباطيين بالقوة [٥٤]. فزحف القائد الرومانى نحو بلادهم ومازال يحاربهم حتى عقد هدنة بينهم وبين الرومان لمدة مائة عام [٥٥]. وفى شروط هذه المعاهدة نقلا عن برسيق Priscus نص: أن يرد البليميون وحلفاؤهم الأسرى الرومان، وأن يدفعوا تعويضًا لما أصاب الأفراد والممتلكات من أضرار خلال إغاراتهم ، وأن يرسلوا عددًا من الرهائن [٥٦] وفى مقابل هذا سمح لهم بالحج إلى فيلة وحمل تمثال معبودتهم إيزيس إلى بلادهم. والتقى مكسيمينوس بمبعوثى البليميين والنباطيين فى الجزيرة المقدسة، حيث نقشت نصوص هذه المعاهدة على جدران هيكل الآلهة إيزيس[٥٧]. ولم يوقف الرومان ما كانوا يمنحونه لكل من البليميين والنباطيين من أتاوة منذ عهد دقلديانوس[٥٨]. ومع أن موافقة الرومان فى وثيقة رسمية على السماح للبليميين والنباطيين بالحج إلى فيلة وحمل تمثال معبودتهم، يدعو إلى الدهشة بعد أن أصبحت الدولة الرومانية مسيحية، فيبدو من تنازل الرومان وقبولهم هذا الشرط على أنهم كانوا غير راغبين فى فرض المسيحية بالقوة على هؤلاء القوم حتى هذا العهد. وبمقتضى هذه المعاهدة انسحب البليميون من منطقة طيبة إلى منطقة دوديكاشينوس، واتخذوا كلابشة Talmis عاصمة لهم. أما النباطيون فاستقروا فى المنطقة الواقعة جنوبى أبريم.

بيد أنه لم يكد يصل البليميين وحلفاءهم خبر موت القائد الرومانى مكسيمينوس، حتى عادوا إلى شن إغاراتهم من جديد ، وأطلقوا سراح رهائنهم بالقوة [٥٩].

ثم استطاع القائد الرومانى فلورس Florus أن يوقع بهم هزيمة ساحقة احترموا بعدها شروط الصلح التى عقدوها مع سلفه مكسيمينوس.

والمعتقد أن معاهدة الصلح نفذت بعد ذلك بحرص شديد، بدليل عدم تجدد الإغارات على منطقة طيبة مدة قرن تقريبًا، واستمرار البليميين على ولائهم لمعبودتهم إيزيس. على أن المعابد الوثنية فى منطقة طيبة أصابها التصدع

والانهيار. كما أن المسيحية بدأت تتسرب إلى النباطيين الذين لم يستمروا - فيما يبدو - على تحالفهم مع البليميين، بل أطلقوا على أنفسهم أصدقاء روما. وعلى الرغم من أن المسيحية وجدت لها أنصارًا بين النباطيين ، فإن البليميين ظلوا على تعصبهم لدينهم الوثنى[٦٠]، ولم يظهروا أى ميل للدين الجديد حتى بداية القرن السادس الميلادى.

* * *

أما العبادات التى مارسها كل من البليميين والنباطيين قبيل دخول المسيحية إلى بلاد النوبة. فيبدو واضحا أنها كانت خليطًا من مصرية قديمة، ويونانية، ومروية. وفى الدليل على ذلك قول بروكوبيوس، أن البليميين والنباطيين عبدوا إيزيس وأوزوريس وبريابوس. وكان من عادة البليميين تقديم الضحايا البشرية لإله الشمس[٦١]، وربما يقصد به الإله مندوليس Mandulis الذى انتشرت عبادته بين سكان الصحراء الشرقية. وإذا كان لمندوليس مكانة كبيرة بين معبودات البليميين، فإن إيزيس تمتعت بمكانة سامية تفوق ما كانت تتمتع به الآلهة الأخرى عند تلك القبائل من التبجيل والتعظيم. ولا غرو فإن معبد فيلة شهد مواكب الحجاج من البليميين والنباطيين كل عام تحمل تمثال إيزيس إلى أراضيهم لتمنحهم الخصب والثروة [٦٢].

ولعل ضخامة هذه المواسم الوثنية، وتجمع القبائل كل عام فى فيلة منذ أيام دقلديانوس، هما اللذان أثارا جستنيان إلى القيام بحركة لخدمة المسيحية، وبخاصة وأن هذه المواسم الوثنية الكبرى كانت تروح وتغدو بمواكبها الصاخبة فى قلب أسقفية أسوان وألفنتين، حيث توجد الكنائس والأديرة المسيحية الجديدة. ثم إن تجمع هذه القبائل فى فيلة أثار القلاقل على الحدود المصرية مع قرب انتهاء أجل الهدنة [٦٣]، ولا سيما بعد أن أخذ النزاع يدب بين البليميين والنباطيين[٦٤]. وسواء أكان جستنيان مدفوعًا بعوامل سياسية أو دينية، فإنه انتهز فرصة انقضاء أجل الهدنة ليقضى على الوثنية فى فيلة، كعبة البليميين والنباطيين الوثنيين.

ولكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه الغاية ومنطقة النوبة السفلى من الشلال الأول حتى أبريم تحت سيطرة البليميين الذين يتحكمون فى المسالك المؤدية إلى فيله؟.

يبدو أن جستنيان كان على صلات بالعناصر النوبية التى أخذت تميل إلى المسيحية، فشجعها على حرب البليميين وطردهم من وادى النيل(٦٥). وانبرى «سلكو» أحد ملوك النباطيين لهذه المهمة. وليست لدينا الوثائق الخاصة بجهود هذا الملك ضد البليميين إلا وثيقة واحدة تتمثل فى النقش الذى تركه محفورا على أحد جدران معبد كلابشه تخليداً لانتصاره على البليميين(٦٦).

ومما جاء فى هذا النقش أن «سلكو» حضر مرتين إلى كلابشة وتافه، وحارب البليميين فى ثلاثة مواقع، وانتصر عليهم فى الرابعة واستولى على مدنهم. ثم أقسموا بآلهتهم يمين الطاعة والولاء له. فصالحهم. ثم عاد إلى الأجزاء العليا من مملكته ليقضى على حركات العناصر المعادية له من بين النوباديين، ثم اضطر للعودة لشن حرب جديدة ضد البليميين، فاكتسح أراضيهم، وطاردهم من أبريم حتى الشلال الأول(٦٧). ويبدو أن حملته الأولى كانت ناجحة ، ولكنها لم تكن حاسمة (٦٨). ولهذا اضطر للقيام بحملته الثانية بعد عودته من الجنوب، فأحرز نصرا حاسما ضد البليميين، واحتل كلابشة وتافه اللتين لم يتح لملك نوبى من قبل أن استولى عليهما منذ احتلال البليميين لهذه المنطقة أواخر القرن الرابع الميلادى، كما قضى على منافسيه من زعماء النوبة. ولهذا أطلق على نفسه ملك النوباديين وجميع الأثيوبيين (٦٩).

وعلى الرغم من أن سلكو عزا انتصاراته على البليميين إلى الله، إلا أن النص لا يشير صراحة إلى اعتناقه المسيحية. ومن المرجح أن كاتبًا قبطيًا على جانب عظيم من الثقافة تولى كتابة هذا النقش على جدران معبد كلابشة (٧٠).

ومما يزيد الشك فى تنصره أن النقش يحمل صورة ملك النوباديين فى زى فرعونى تزينه صور الآلهة (٧١). ولا يشير النص أيضا، إذا كان سلكو صالح البليميين بعد حملته الثانية كما فعل عقب حملته الأولى واستولى على بعض مدنهم وترك لهم بعضها، أم طردهم نهائيًا من تلك المنطقة ومما لا شك فيه أن البليميين لو تركوا بهذه المنطقة أو بعضها، لما سمحوا بوجود هذا النقش على

جدران معبدهم [٧٢]. والأرجح أنه تم لسلكو طرد البليميين من النوبة السفلى ومنها اتجهوا إلى أوطانهم الأصلية بالصحراء الشرقية. ويؤيد هذا ما ذكره بروكوبيوس أن شعوبًا كثيرة من بينها النباطيون والبليميون تعيش فى المنطقة الممتدة من أكسوم إلى الحدود المصرية عند الفنتين، بيد أن البليميين يسكنون الجهات الوسطى ويحتل النباطيون ضفتين[٧٣]، وعليه فإن النباطيون أصبحوا السكان الجدد لمنطقة النوبة السفلى. ويرى رفيو Rèvillout أن احتلال النباطيين لهذه المنطقة ما كان ليتحقق دون طرد البليميين عنوة. ذلك أن بروكوبيوس وهو المعاصر لهذه الأحداث حدد مواطن البليميين تحديدا جغرافيا يختلف عما ذكره أوليمبيودوروس[٧٤].

ويبدو أن البليميين يمثلون الشعبة الشمالية للبجا الذين ظل اسمهم علمًا على هذه المنطقة كلها طوال العصور الوسطى[٧٥]. وأخذ البليميون (البجا) ينظمون حياتهم الجديدة فى الصحراء الشرقية بالسيطرة على وسائل النقل والتجارة بين النيل والبحر الأحمر.[٧٦]

وعلى هذا يمكن القول إن الانقسام بدأ يدب فى صفوف البليميين منذ هزيمتهم على يد فلورس[٧٧]، على حين استفاد النباطيون بعد انفصالهم عن البليميين، فمارسوا سياسة مستقلة وحصنوا مراكزهم فى بلادهم وتوسعوا ناحية الجنوب. ثم بدأ اتصالهم من جديد بالبيزنطيين بفضل ثيودور أسقف فيلة، وهو الذى قام بدور الوسيط بينهم وبين البيزنطيين، وسواء أكان هذا التوسط عن طريق الإقناع أو بذل المال، فإنه نجح فى حمل سلكو على مسايرة البيزنطيين مما دعاه إلى محاربة حلفائه القدامى وطردهم من وادى النيل[٧٨]. وربما تم هذا بمساعدة القوات البيزنطية بقيادة نارسيسNarses.

لا شك أن الوفاق البيزنطى النوبى الجديد، شجع جستنيان على القضاء على آخر مظهر من مظاهر الوثنية فى فيلة، فما كادت تنقضى مدة الهدنة حتى أمر قائده نارسيس بإغلاق معبد فيلة، وإرسال تماثيل الآلهة إلى القسطنطينية، وسجن جميع كهنته [٧٩] قرابة عام ٥٤٣م. ثم عهد إلى ثيودور الإشراف على الطقوس الدينية فيه بعد تحويل هيكله إلى كنيسة.

ولا شك أن الوفاق البيزنطى النوبى أدى إلى كسر شوكة البليميين الذين كانوا عقبة فى سبيل تقدم المسيحية إلى بلاد النوبة التى أصبحت بعد طردهم مهيأة لقبولها[٨٠].

هوامش الفصل الثانى

(1)Arkell. A. J.: A History of the sudan to AD. 1821.
pp.112 ، 113.

(٢) إتين دريوتون وجاك فانديه: مصر، تعريب عباس بيومى، ص ٥٨٦.

Arkell, op.cit.pp. 112 ،113.

(3) Arkell, A.J.: op. cit. p. 125.

(4) Ibid, op. cit. p. 128 -136.

وانظر كذلك إتين دريوتون وجاك فانديه - «مصر» ترجمة: عباس بيومى، ص ٥٩٧ - ٦٠٣.

(٥) مدينة مروى قرب كبوشية الحالية.

Smith. H.F.C.The transfer of the Capital of Kush From Napata to Meroe" Kush, III pp. 20 - 52.

(6) Hamilton, J.A. - ed.: The Anglo Egyptian sudan from Within p. 18.

(٧) أطلق هؤلاء الكتاب على ملكة مروى اسم كندا كة، ويبدو أن هذا كان لقبًا بمعنى ملكة. انظر: Arkell, A. J. op. cit. p. 126.

(8) Woolley and Maciver, : Karanog - The Romano - Nubian cemetary p. 85.

(9) Beckett. H. W.: ASN, 11, Report 1907 -8 p. 349.

(١٠) يبدو أن فراعنة مصر من أيام الأسرة الثانية والعشرين عجزوا عن دعم النفوذ المصرى القديم فى بلاد النوبة السفلى: ولذا صارت هذه البلاد جزءًا من دولة كوش مع تمتعها بشىء من الاستقلال عنها، وظلت هكذا حتى انتقل إليها آرك أمن الذى عرف باسم أرجميينز Argemenes احد ملوك مروى على إثر نزاع بينه وبين كهنة نباتا. وكان هذا الملك معاصرًا لبطليموس الثانى والثالث والرابع ، وتلقى علومه فى جامعة الإسكندرية وتثقف بالثقافة اليونانية واتخذ هذا الملك مدينة دكة Pseleckis عاصمة له، وبنى لها معبدًا، وانشأ علاقات ودية بدولة البطالمة، وخلفه على عرش هذه المملكة النوبية أخوه أركرا من Arkharamen، فسار على سياسة سلفه، وبموت أركرامن، انتقلت هذه المملكة الصغيرة إلى بطليموس السادس وأصبحت جزءًا من مصر.

Firth, C.M.: ASN. Report for 1910 -11,11,p. 29. Beckett H.W.: ASN. Report for 1907 -1908 11, p. 349.

(11) Woolley - Maciver: Karanog, p. 85.

(12) Budge, E.A.W. : The Egyptian sudan, 11 p. L66.

(١٣) وهى المنطقة التى تمتد من المحرقة إلى عكاشة جنوبى الشلال الثانى انظر الفصل السابق.

(14) Milne, j.G.: A History of Egypt Under Roman Rule V.P.17.

(15) Strabo: Op. cit. p. 137.

(16) Ibid: op.cit. p. 139.

(17) Ibid: op. cit. p. 141.

(18) Woolley -Maciver: op. cit. p. 86.

(19) Milne, J.G. op. cit: p. 23.

(20) Ibid: op. cit. p. 36.

Pliny: Natural History, II, p. 475.

(21) Budge: A Hist. of Ethiopia. 1.p.8.

(٢٢) أطلق الكتاب القدماء منذ القرن الأول الميلادى - على سكان الصحراء الشرقية اسم البليميين Blemmyes (strabo : op. cit.: p.5) وذكر بروكوبيوس فى القرن السادس الميلادى أنهم يسكنون المنطقة الممتدة من حدود مصر إلى أكسوم (Procopius op. cit p. 185. على حين أن كوزمس التاجر المصرى الذى عاش فى هذا الوقت ايضًا أطلق على سكان هذه المنطقة اسم بجا .Bega.

(Cosmas. ChristianTopography of cosms - ed . Mac crindle Haklyot society p. 62.

الظاهر أن البليميين هم البجة أو شعبة منهم. ففى القرن الرابع عشر الميلادى يشير كل من الإدريسى وابن الوردى إلى وجود جماعة تسكن الصحراء الشرقية يقال لها البليون، ويشير الرحالة البرتغالى الفارز إلى وجود جماعة تدعى Bellones (بلونيون) ولا يبعد أن يكون هؤلاء وأولئك هم البليميون الذين أشارإليهم الكتاب فى العهد الرومانى، ولو صح هذا، ونسبوا إلى البجا لأصبحوا يعتبرون من الجنس الحامى الذى عبر البحر الأحمر من جزيرة العرب منذ أقدم العصور. ويرى سلجمان أنهم من نفس سلالة قدماء المصريين واقتبسوا من حضارتهم وتعلموا الزراعة واستئناس الحيوان ويبدو أن لفظ البجاه، أو البجة هو الاسم الحديث للقبائل القديمة التى كانت معروفة لقدماء المصريين تحت اسم ميجا أو ميجوى،، واستعان بهم قدماء المصريين منذ الأسرة السادسة (٢٥٠٠ ق م) فى مختلف الأعمال، وعلى الأخص كانوا يؤلفون منهم فرقًا عسكرية تستخدم للبوليس والحرب.. ومن أهم أقسام البجا فى الوقت الحاضر. البشاريون.، والهدندوة، الأمرار. وبنى عامر، والحلانقة، قارن.

Paul, A.: AHistory of the Beja Tribes, pp. 20 _ 57.

Kirwan, L.P.: "Studies in the Later Histpory of Nubia" L A.A.A., XX - iv, pp. 1 - 11.

Kirwan, L.P.: Firka, p. 41.

محمد عوض محمد . السودان الشمالى. ص ٣١ - ٣٢.

(23) Beckett, H.W.: ASN. 11, Report for 1907 - 8,p., 350.

(24) Emery, W.B.: The Royal Tombs of ballana and Qustul, 1.p.5.

(25) Bubge, E.A. Wallis: The Egyptian sudan op. cit. p. 175.

(26) Emery. W. B. Op. cit. p. 5.

(٢٧) نادى الرومانيون المتوطنون بالإسكندرية بهذا القائد ملكا على مصر كلها ولم يلبث أن قبض عليه.

Woolley, Maciver. op. cit.p. 90.

(28) Milne, j. G. op. cit. p. 79.

(29) Emery, W. B. op.cit. p 6.

(30) Milne, j. G. op cit p. 81.

(31) Woolley - Maciver op cit p 91.

(32) Ibid. op. cit p. 91.

Procopius op cit p. 185.

(33) Ibid. op. cit. pp. 183 -187.

(34) ibid op. cit. p. 187.

(35) procopius op. cit. p. 187.

(36) Wolley - Maciver op. cit.p. 92.

(37) Milne, j. G.op. cit p. 99.

(38) Budge . E.A.W.: The Egyptian sudan, II. p. 177.

(٣٩) إن تاريخ هذه البعثة النوبية إلى القسطنطينية غير معروف تماماً.

(40) Woolley - Maciver op. cit. p. 92.

(41) Bury. j.B.: Histor of the Later Roman Empire. II. p. 318.

(٤٢) وربما كان مصدرهم من الجنوب.

(43) Bury, j.B.: op . cit. p. 318.

(44) paul, A.: A History of the Beja Tribes of The sudan. p.47.

(45) Trimingham, J.S.: op. cit. p. 49.

(٤٦) وهذه المدينة الأخيرة «دارو» ربما كانت «الكدرو» الواقعة شمالى الخرطوم الحالية.

انظر Arkell, A.J.: op. cit. p. 172. Sbinnie, p. L.: The Fall of Meroe, Kush, III, pp. 82 -85.

(47) Woolley - Maciver: op. cit. p. 94.

(48) Ibid.: op. cit.p.95.

(٤٩) المزيكى ربما كانوا من قبيلة الطوارق التى تعيش فى الصحراء الليبية.

Arkell, A. J op. cit. p. 179.

(50) Milne, J. G.: op. cit. p. 99.

(51) Emery: op. cit. p. 11.

(52) Ibid: op. cit. p. 11.

Kirwan, L.p. : The ballana Civilization". SGE, XXv 1953, p. 107.

(53) Woolley - Maciver,: op. cit. p. 96.

(54) Emery, W. E.: op. cit. p. 13.

(55) Kirwan, L.p.: LAAA. XXiv, p.82.

(56) Budge, E.A.W.: Ethiopia, op. cit. p. 102.

(57) Woolley - Maciver: op. cit. p. 96.

(58) Ibid.: op. cit. p. 98.

(59) Emery, W. E.: op. cit.p. 13.

Priscus, - ed . Meubuhr. p. 153. نقلاً عن

(60) Woolley - Maciver: op. cit. p. 97.

(61) Procopius: op. cit. p. 187.

(62) Kirwan, L.P. : LAAA. XXiv, p. 88.

(63) Budge, E. A. W.: The Egyptian sudan II p. 178.

(64) Beckett H.W.: ASN.: Report for 1907 - 8 11, p. 365.

(65) BudgeL Op cit. p. 294.

Beckett H. w.: op. cit. p. 367.

(٦٦) وأول من قام بنشر هذا النقش هو «جو» Gau فى كتابه «آثار النوبة» ، وناقش نوبهر Niebuhr محتويات هذا النقش. وهناك نسخة أخرى حصل عليها كل من لبسيوس وكايو وشرحه كل من ليترون Letronne وريفيو Revilliot شرحًا وافيًا انظر ملحق رقم ١ .Rudge, op. cit. p. 292

(67) De Villard, : op.. cit. pp. 56 - 57.

(68) Woollley - Maciver, p. 98.

(69) Budge: op. cit. p. 293.

(70) De Villard: op. cit. p. 57.

(71) Kirwan, L. p.: LAAA., op. cit. p. 85.

(72) Beckett. H. W.: ASA., OP. cit. p. 365.

(73) Procopius: op cit. p. 185.

(74) Woolley - Maciver: op. cit. p. 98.

Trimingham, G.S. : op. cit. p. 47.

Beckett, H. W. : op . cit p. 366.

(75) Ibid: op cit. p. 351.

جاء فى اللوحة التى تركها عيزانا ملك أكسوم بعد هجومه على مروى أسماء الشعوب التى خضعت له ومن بينها البجاء، وهو الاسم الذى عرف به سكان الصحراء الشرقية فى العصور الوسطى. (انظر حاشية رقم ٢٢ ص ٢٩) De Villard : p. 60

(76) De Villard: op. cit. p. 59.

(77) Morie, L J.: Histoire de L'Ethiopie, Tome 1 er, p. 410.

(78) De Villard: op. cit. p. 58.

(79) Procopius: op. cit. p. 189.

(80) Maspero, j.: "Theodore de philai", Rev. de L'hist. des rel., 49, pp. 229 -317.

الفصل الثالث

دخول المسيحية بلاد النوبة

انتشار المسيحية فى مصر - الاضطهادات الدينية والصراع المذهبى وأثرهما فى بلاد النوبة - المسيحية المبكرة عند النوبيين والبجه - أثر كنيسة أسوان - التبشير فى بلاد النوبة، وسائله ومراحله - طبيعة المسيحية فى بلاد النوبة - تحويل المعابد إلى كنائس - المسيحية فى أوطان البجه.

* * *

يحيط هذه المرحلة من مراحل التاريخ النوبى كثير من الغموض لقلة المصادر(١). والقليل الذى كتب عن بلاد النوبة فى العهد المسيحى، إنما جاء فى إشارات عرضية على لسان بعض مؤلفى العصور الوسطى، وبالقدر الذى يتطلبه تحديد علاقة هذه البلاد بمصر أو بالعالم الخارجى. وهذه الإشارات العرضية القليلة لم تخل أحيانًا من مبالغات أو تحريفات قد تتعارض أحيانًا مع الآثار الباقية من العهد المسيحى فى بلاد النوبة، وهى آثار قليلة لم تدرس بعد دراسة كافية(٢). أما كتابات أهل النوبة أنفسهم باللغة النوبية، أو النصوص اليونانية أو القبطية - سواء كانت مكتوبة على البردى أو الرقاق أو شواهد القبور - فمعظمها قصص قصيرة أو أدعيات للترحم على الميت فى قبره. يضاف إلى هذا جملة الأخبار القليلة المبعثرة فى جوف المخطوطات الكنسية بالإسكندرية أو القسطنطينية ، وهى كذلك محدودة القيمة من الناحية التاريخية(٣).

ويحتاج دخول المسيحية بلاد النوبة إلى كثير من الحذر فى معالجته، ولا سيما عند شرح الطريقة التى دخلت بها المسيحية، وتحديد تاريخ دخولها ومعرفة دعاتها الأول، لأن شيئًا من هذا لم يعرف على وجه التأكيد، مع العلم بأن معظم الروايات التاريخية ترجح دخولها عن طريق مصر[٤].

دخلت المسيحية مصر حوالى منتصف القرن الأول الميلادى على يد القديس مرقس الإنجيلى[٥] الذى بنى أول كنيسة مصرية بالإسكندرية، ورسم إينيانوس أسقفا لها[٦]. واجتذبت المسيحية عددًا من يهود الإسكندرية وغيرهم من سكان البلاد من اليونانيين والمصريين[٧]. وقرابة نهاية القرن الثانى زاد عدد المسيحيين زيادة تطلبت إنشاء ثلاثة أسقفيات[٨] فى الإسكندرية والوجهين القبلى والبحرى. وانبرت المدرسة الفلسفية الوثنية بالإسكندرية للوقوف فى وجه الدعوة الجديدة،ونشطت فى جمع الكتب الفلسفية وتأليفها لصرف الناس عن المسيحية[٩]. ثم بدأ الأباطرة يحسون بالخطر الذى يهدد الدولة الرومانية من هذا الدين الجديد، فأصدر الإمبراطور ساويرس مرسومًا سنة ٢٠٢ م، يحرم فيه على رعاياه الدخول فى الديانة المسيحية أو الدين اليهودى[١٠].

لم يضعف هذا المرسوم من قوة الدعوة، بل أدى إلى ازدياد إقبال المصريين عليها.. ولم يكد ينتصف القرن الثالث الميلادى حتى زاد عدد الأسقفيات إلى عشرين أسقفية فى الوجهين البحرى والقبلى[١١].

لقيت المسيحية فى مصر بيئة صالحة للنمو والانتشار، لأنها كانت تعبيرًا قويًا لنزعة قومية ضد الرومان، بدليل تمسك المصريين بلغتهم القبطية التى غدت فيما بعد لغة الكنيسة [١٢]، فضلا عن التنظيم الكنسى الذى انفردت به الكنيسة المرقسية منذ نشأتها وبخاصة فى ترتيب الوظائف الكهنوتية وهى الأسقفية والقسيسية والشماسية [١٣]، علاوة على انتشار الديرية والرهبنة، وظهور مدرسة اللاهوت بالإسكندرية، التى انبرت للرد على مدارس الفلسفة اليونانية الوثنية. ومن هذه المدرسة اللاهوتية، قاد رواد المسيحية الأول البعثات التبشيرية إلى البلاد المجاورة [١٤].

***

تعرض المسيحيون فى مصر لسلسة من الاضطهادات الدينية على عهد الإمبراطور دسيوس Dicius سنة ٢٥٠ م، ثم فى عهد فالريانValerian (٢٥٣ - ٢٦٠م) ودقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م) الذى كان أشدهم عنفا فى محاولة القضاء على المسيحة وأنصارها [١٥]، لما فى الدين الجديد من تهديد للوحدة الوثنية الإمبراطورية. وفى عهد دقلديانوس خاصة هجر المصريون المسيحيون مساكنهم واتجه بعضهم إلى منطقة طيبة الممتدة من الأقصر الحالية إلى أسوان، وهى المنطقة التى لم يستطع الرومان إتمام السيطرة عليها، بسبب الحركات البليمية المعادية لهم منذ القرن الثالث الميلادى[١٦]. واتجهت جماعات أخرى من المهاجرين المصريين إلى الصحراء الغربية، فضلا عمن اتجه منهم إلى منطقة النوبة السفلى والوسطى، واستقروا فى جزر النيل وبين ثنايا التلال والصخور على جانبى النيل، حيث مارسوا عبادتهم الجديدة فى اطمئنان بعيدًا عن ضغط الرومان[١٧].

وغدا إقليم طيبة مركزًا مهمًا للدعوة المسيحية فيما حوله من أقاليم ، وبخاصة بلاد النوبة السفلى. وأنشئت فيه الأديرة، التى ازداد عددها منذ القرن الثالث الميلادى، ومنها دير أخميم «بانوبولس». والراجح أن المصريين المسيحيين، لم يركنوا إلى حياة العزلة والانطواء فى طيبة، بل اختلطوا بالسكان الوثنيين وزينوا لهم الدخول فى المسيحية.

أما فى الصحراء الغربية حيث توجد الواحة الخارجة، فإن المسيحية شقت طريقها إليها منذ القرن الثالث الميلادى، ولجأ إلها كثير من الأقباط فرارًا بدينهم وحياتهم، وشارك المسيحيون القدامى إخوانهم المهاجرين فى مشاعرهم، ومدوا لهم يد المساعدة، وفى القرن الرابع الميلادى، زاد عدد المسيحيين فى تلك الواحة زيادة تطلبت إنشاء أسقفية بها [١٨].

وللواحة الخارجة أهمية خاصة فى نظر الرومان، لوقوعها على الطريق التجارى بين مصر والسودان (درب الأربعين) من ناحية، وبين وادى النيل وشمال إفريقيا من ناحية أخرى. لهذا أقيمت بها القلاع لتأمين القوافل المارة بها، كما حفرت بها الآبار، وأنشئت بها المعابد. ومن الواضح أن دخول المسيحية إلى تلك

الواحة فى هذا الوقت المبكر أتاح للمبشرين فرصة التعرف والاتصال بالتجار من النوبة وغيرهم، وأن رجال القوافل التجارية المارين بالواحة الخارجة، قاموا بالدعوة للدين الجديد بين من اتصلوا بهم من سكان النوبة، ونقلوا أخبار الصراع بين الوثنية والمسيحية فى الإسكندرية إلى عملائهم وذويهم فى الجنوب(١٩).

ولا يبعد أن يكون هؤلاء التجار سهلوا للفارين من المصريين أمر الهروب والالتجاء إلى أقاليم النوبة، وأن التبشير للمسيحية بين النوبيين يرجع إلى هذا الوقت المبكر من تاريخ المسيحية.

وفى أوائل القرن الرابع الميلادى، اجتذبت المسيحية إلى صفوفها أعدادًا كبيرة برغم ما نزل بهم من اضطهاد فى هذا الحين على يد كل من جاليريوس Galerius (٣٠٥ - ٣١١م) ومكسنتيوس Maxintius (٣٠٥ - ٣١٢م) بدليل ما لقيه أنطونيوس الكبير فى عام ٣١١ م من نجاح منقطع النظير فى التفاف المريدين حوله حتى أمسى قوة يخشى بأسها فى مصر(٢٠).

ثم كانت أيام قسطنطين الأكبر (٣١٣ - ٣٣٧م) الذى لم يكد يحرز النصر على منافسه وخصيمه مكسنتيوس حتى أظهر ميله للمسيحية، وأصبحت الكنيسة متمتعة بحماية السلطات المدنية. ومع أن الإمبراطور لم يعتنق المسيحية رسميًا ولم يسمح بتعميده إلا وهو على فراش الموت سنة ٣٣٧ م، فإنه بذل كل ما لديه من سلطة ونفوذ فى خدمة الديانة التى جاءت له بالظفر فى أرجاء إيطاليا(٢١). ففى مصر جاهر الأقباط بدينهم، ومارسوا عبادتهم فى غير ضغط أو إكراه وحولوا بعض الهياكل الوثنية إلى كنائس(٢٢). وجاء فى كتاب حياة قسطنطين الذى ألفه يوسيبيوس Eusebius أن المسيحية دخلت أثيوبيا على يد البعثات التبشرية الدينية التى أرفدتها كنيسة الإسكندرية على عهد قسطنطين الأكبر(٢٣).

ومعنى هذا أن البعثات التبشيرية الرسمية بدأت نشاطها فى بلاد النوبة، فى عصر مبكر يرجع إلى القرن الرابع الميلادى(٢٤).

وكيفما كان المحتمل وغير المحتمل، فإن المسيحية أخذت تتسرب تسربًا نظيمًا بطيئًا إلى بلاد النوبة منذ أواخر القرن الثالث الميلادى، ولم ينقطع سيل الوافدين المسيحيين إلى بلاد النوبة. وأخذت هجرة الجماعات المصرية المسيحية إلى

الجنوب تزداد تدريجيا لما نالها من اضطهاد بسبب الخلاف الذى نشب بين المسيحيين حول طبيعة المسيح[٢٥]، حتى تطلب الأمر إنشاء أسقفية فى فيلة فى القرن الرابع الميلادى[٢٦]. هذا فضلا عن إنشاء عدد من الأديرة والكنائس فى منطقة طيبة وأسوان.

* * *

لكن إلى أى حد تأثر النوبيون والبليميون بهذه المراكز المسيحية التى نشأت بالقرب من أوطانهم فى القرن الرابع الميلادى، مع العلم بأنه ليست لدينا وثائق أو أخبار موثوق فى صحتها عن نشاط تبشيرى رسمى ببلاد النوبة قبل القرن السادس الميلادى ؟ أما المعلومات السابقة لهذا التاريخ فمنها ما ورد فى كتاب الكاتب العربى أبى البركات من قيام آنى Ani أسقف الإسكندرية بتعميد بعض النوبيين فى القرن الأول الميلادى، وربما كان المقصود بهم أولئك النوبيين الذين يعيشون فى مصر للعمل بها كما يفعلون اليوم، أو ربما كانوا ممن يعيشون فى جهات الأطراف مثل فيلة وأسوان، أو بعض أفراد مثل وصيف كنداكة ملكة مروى، الذى عمده الأسقف فليبوس فى القرن الثانى للميلاد[٢٧].

وفضلا عن هذا توجد مجموعة من القصص التى تصور حياة الرهبان فى الأديرة المصرية على أطراف مصر الجنوبية وعلاقاتهم بالنوبيين والبليميين. ويبدو أن لهذه القصص أساسًا تاريخيًا يتصل بحركات هذه الجماعات ضد الرومان منذ القرن الثالث الميلادى، وتعرض الأديرة المصرية أحيانًا لهجمات تلك الجماعات الوثنية. وتصور هذه القصص وغيرها محاولات الرهبان كسب ود هذه الجماعات ومحاولة تنصيرهم والتمتع بحمايتهم وتجنب أذاهم.. ومن هذه القصص أربعون قصة نشر منها كرم Crum ثلاثا. وتروى القصة الثانية والثلاثون منها نبوءة راهب يدعى مرقوريوس بإغارة النوبيين على أحد الأديار المصرية، ونصحه أنستاسيوس كبير رهبان الدير بضيافة أولئك المغيرين، لأن أميرهم سوف يصبح راهبًا وقديسًا. وفى القصة الثالثة والثلاثين تتحقق النبوءة كاملة. وتتحقق حماية الدير على يد هذا الأمير النوبى. ويتضح فى نهاية القصة أن مرقوريوس هذا هو الذى تولى تنصير هذا الأمير النوبى وأتباعه خلال رحلة

تبشيرية قام بها فى بلاد النوبة (٢٨). وعلى الرغم من أن تاريخ هذه القصص غير معروف تماما، وأنها مكتوبة بلغة عربية في عصر متأخر(٢٩)، إلا أنها تعتبر ترديدا لنوع من الروايات التى احتفظت بذكرى التبشير فى بلاد النوبة فى وقت مبكر ربما يرجع إلى القرن الرابع أو الخامس الميلادى، وهو الوقت الذى طفح بأخبار الإغارات النوبية البليمية المشتركة على أطراف مصر الجنوبية قبل أن يعقد معهم القائد الرومانى مكسيمينوس صلحًا فى عهد الإمبراطور مارقيان(٣٠).

وثمة دليل نشاط الجماعات المسيحية الأولى بمنطقة أسوان وجزيرة فيلة وجهودهم بمنطقة النوبة السفلى، هو ما تذكره وثيقة قبطية(٣١) عن بعثة تبشيرية(٣٢) إلى تلك البلاد فى القرن الرابع الميلادى، ولهذه القصة أهمية خاصة؛ لأنها توضح العلاقة الطيبة بين رجال الدين المسيحيين وجيرانهم النوبيين. ولابد أن تكون بهرتهم معجزات الأنبا هارون ، أحد أساقفه فيلة فى القرن الرابع الميلادى(٣٣).

ومن تاريخ حياة شنودة وأقواله ما يشير إلى علاقته بالبليميين والنوبيين الذين تمنى لهم شنودة أن يتبعوا الحق ويهديهم الله سواء السبيل، وأوى شنودة فريقًا من البليميين فى دير إخميم (بانوبوليس) فى منتصف القرن الخامس الميلادى، وقدم لهم ما تيسر أملا فى اجتذابهم إلى صفوف المسيحيين(٣٤).

* * *

وفضلا عن هذا فإن ثيودور Theodore أسقف فيلة وأسوان(٣٥) قام بدور مهم فى التمهيد لدخول النوبيين جميعًا فى الدين المسيحى فى القرن السادس الميلادى. ذلك أنه عاش فى هذه المنطقة أكثر من خمسين عامًا تعرف خلالها إلى زعماء النوبيين وتوثقت الصلة بنه وبينهم خلال زياراته المتعددة لبلادهم. ويبدو أنه قام بدور الوسيط بين هذه العناصر النوبية التى تزعمها سلكو وبين الدولة البيزنطية ، وأنه ساعد بذلك على طرد البليميين من منطقة النوبة (٣٦)، لاستمرار مقاومتهم للمسيحية واشتداد إيذائهم للمسيحيين فى منطقة طيبة (٣٧).

ومن الوسائل التى لجأ إليها البيزنطيون لترغيب البليميين فى المسيحية، أنهم أقطعوهم إقطاعًا بمنطقة طيبة، يؤيد ذلك ثلاث وثائق مكتوبة باليونانية على رق غزال، وربما ترجع إلى القرن السادس الميلادى. وفى الوثيقة الأولى، أن الملك البليمى شاراشن منح أولاده الثلاثة حكم جزيرة تنارى، كما منحهم حق جباية الضرائب بها[٣٨]. ويلاحظ أن اسمى الشاهدين البليميين على هذه الوثيقة يحملان علامة الصليب وفى الوثيفة الثانية أصدر ملك بليمى آخر اسمه باكيتمن قرارًا بتعيين بواى Poae القسيس IEpeus حكم جزيرة تنارى، وهذا اللقب من الألقاب المعتادة فى الوثائق المسيحية وقد اقترن اسم الملك فى هذه الوثيقة الثانية بعلامة الصليب. مما يرجح اعتناق أولئك البليميين فى هذه المنطقة للديانة المسيحية [٣٩]. أما الوثيقة الثالثة فهى إيصال باستلام عشرة صلادى ذهبًا.

ويبدو أن منح البليميين إقطاعًا فى الأرض المصرية كان جزءًا من سياسة البيزنطيين فى البحر الأحمر للقضاء على نفوذ الحميريين التجارى فى هذا البحر بالتعاون مع دولة أكسوم المسيحية، فضلا عن إغراء البليميين بالدخول فى المسيحية والسيطرة على أوطانهم الممتدة جنوب شرقى مصر إلى حدود أكسوم[٤١]. ولهذا أرسل الإمبراطور جوستن الثانى. Justin, II وبطريق الإسكندرية تيموتاوس رسلهما إلى ملك أكسوم لهذا الغرض وهو حرب الحميريين[٤٢]. وفى رواية أخرى أن الإمبراطور هدد بإرسال جيش من البليميين والنوبيين لحرب الحميريين إذا أبطأت أكسوم عن هذا الواجب المسيحى[٤٣]، ولا يبعد أن تكون جزيره تنارى التى أقطعها الرومان لفريق من البليميين ثمنًا لخدماتهم للدولة البيزنطية[٤٤]، وقبولهم الدعوة المسيحية. ومما يدل على أن بعض البيلميين اعتنق المسيحية ما جاء فى بردية نشرها ماسبيرو[٤٥]، وهى تشتمل على شكوى موجهة إلى حاكم طيبة البيزنطى فلافيوس ماريانوس Flavius Marianus ضد الفيلارك فى منطقة طيبة واسمه كلوذوس Kallothos اتهم فيها بتحريض البليمين على إعادة فتح معبد فيلة من جديد والارتداد uteoöpeqovro عن الاعتقاد بوجود إله أزلى، والعودة إلى الوثنية والراجح من هذه الوثيقة أن

فريقًا من البليميين اعتنق المسيحية بعد إغلاق معبد فيلة سنة ٥٣٥ م وأن كلوذوس أراد تحويلهم إلى الوثنية من جديد[٤٦]. وكيفما كان الأمر فالواضح أن المسيحية والوثنية عاشتا جنبًا إلى جنب فى طيبة وأسوان وفيلة. ولم يشأ البيزنطيون أن يقضوا على الوثنية بالقوة قبل منتصف القرن السادس الميلادى، بل إنهم سمحوا للبليميين والنوبيين بممارسة عباداتهم الوثنية على الرغم من وجود الكنائس فى أسوان والفنتين[٤٧]. وينهض دليلا على وجود هذه الكنائس ما جاء على لسان برسيق Priscus، وما تذكره بردية أبيون، وما ذكره اليمبيودورس Olympiodorus قرابة منتصف القرن الخامس الميلادى، وبروكوبيوس فى منتصف القرن السادس الميلادى[٤٨]. وذكر كوزمس Cosmas التاجر المصرى الذى كتب كتابه المعروف[٤٩] ما بين سنتى (٥٣٧ - ٥٤٧م) «أن فى بلاد الحبشة وفى أكسوم ذاتها وفى البلاد المجاورة وعند النوباديين Nobades الجرمنتيين Garamentes توجد كنائس مسيحية وأساقفة ورهبان ونساك»[٥٠]. ويتضح من هذا النص اعتناق جماعات من النوبيين للمسيحية منذ القرن السادس الميلادى. ولا يمكن أن تكون المسيحية وصلت إلى تلك الأوطان فجأة، بل بالتدريج وعلى مراحل ترجع إلى عهد الاضطهادات الأولى فى مصر [٥١].

* * *

ثم بدأت المرحلة الحاسمة من مراحل الدعوة للمسيحية فى بلاد النوبة زمن الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م). ذلك أن هذا الإمبراطور لم يقنع بأن ينسب إليه القضاء على معاقل الوثنية فحسب ـ كما فعل فى فيلة عندما أغلق معبدها الوثنى، أو كما فعل فى أثينا عندما أغلق المدرسة الفلسفية الوثنية بها ـ بل رغب كذلك فى أن يدخل القبائل الوثنية على أطراف إمبراطوريته فى حظيرة الدولة البيزنطية. ولهذا سعى إلى اجتذاب البليميين والنوبيين إلى الديانة المسيحية ليتسنى له السيطرة على وادى النيل الأوسط[٥٢]. ووضح هذا الاتجاه السياسى عندما بدأت عملية التبشير الحقيقى ببلاد النوبة على يد رسل الكنيسة المصرية. على أن التبشير بالمسيحية فى بلاد النوبة فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى كان انعكاسًا لصورة النزاع المذهبى بين الكنيستين المصرية والبيزنطية.

وسباقًا بينهما لكسب الأنصار. ولما كانت الكنيسة المرقسية فى مركز لا يسمح لها بخوض هذه المعركة التبشيرية بسبب عزل بطريقهما ثيودوسيوس Theodosuis[٥٣] ونفيه إلى إحدى مدن تراقيا سنة ٥٣٦م فإن رجالها عزموا على الاستعانة بالإمبراطورة ثيودورا التى تميل إلى مذهب الكنيسة المصرية وتعطف على رجالها[٥٤]. ولذا لم يكد يصل ثيودوسيوس من منفاه فى تراقيًا إلى القسطنطينية بمساعدة ثيودورا، حتى أخذ يعمل على ما سبق أن عزم عليه وهو تحويل النوباديين Nobades إلى المسيحية. وممن شاركه هذا الشعور اثنان من رجال الكنيسة المصرية هما يوليان Julian ولونجينوس Longinus وهما اللذان قاما بالدور الأول فى نشر المسيحية فى ممالك النوبة التى قامت على أنقاض دولة مروى. وانقسمت إلى ثلاث ممالك مستقلة ـ مملكة نوباتيا Nobatia فى الشمال، وتمتد من أسوان إلى قرب الشلال الثالث وعاصمتها فرس، ومملكة مَقرّة Makoritae وتمتد من قرب الشلال الثالث إلى قرب كبوشية الحالية، ثم علوة Alodia وتمتد من قرب كبوشية إلى جنوبى الخرطوم الحالية وعاصمتها سوبا[٥٥].

والمصدر الرئيسى لهذه المرحلة من مراحل التاريخ النوبى هو يوحنا الأفسى[٥٦]. ومما جاء فى كتابه «التاريخ الكنسى» بشأن البعثات التبشيرية إلى بلاد النوبة فى منتصف القرن السادس الميلادى، أن يوليان عرض على الإمبراطورة ثيودورا مشروعًا للتبشير بين النوباديين Nobades، وقابلته الإمبراطورة بسرور عظيم وحماسة شديدة، ووعدته بالمساعدة. وأخبرت ثيودروا زوجها الإمبراطور بما اعتزمت القيام به على يد يوليان فى بلاد النوبة. بيد أن الإمبراطور ساءه أن يكون يوليان على رأس هذه البعثة التبشيرية، لأنه من الحزب المعادى لقرارات خلقيدونيه [٥٧]. ولهذا عزم جستنيان على أن يبعث سفارة إمبراطورية خاصة تحمل هدايا لملك النوباديين وخطابات لحاكم طيبة البيزنطى[٥٨]. وعلمت ثيودورا بعزم الإمبراطور على أن يضمن لبعثته النجاح والسبق، فأسرعت بتحرير رسالة إلى حاكم طيبة، وطلبت إليه أن يحجز سفارة الإمبراطور حتى تصل سفارتها هى إلى بلاد النوبة [٥٩]، وهددته بالقتل إذا خالف

أوامرها. وأطاع الحاكم أوامر ثيودورا وحجز سفارة الإمبراطور عند وصولها، وبرر عمله هذا لرئيس البعثة الإمبراطورية بعدم وجود وسائل النقل، وطلب إليه الانتظار حتى يدبر له الدواب والمرشدين الخبيرين بمسالك الصحراء. أما سفارة الإمبراطورة فوجدت الدواب والمرشدين اللازمين لها فى الانتظار[٦٠]. على أن حاكم طيبة لم يخف حقيقة الأمر عن مبعوث جستنيان وأبدى مخاوفه من الإمبراطورة ووعده بإعداد وسائل السفر، ثم واصلت البعثة الإمبراطورية سيرها مقتفية أثر يوليان دون أن يعبأ رئيسها بما دبر له من خيانة [٦١].

وصل يوليان وصحبه أطراف النوبة حوالى عام ٥٤٣م [٦٢] ومعهم ثيودور أسقف فيلة، الذى رأى فيه يوليان خير معين له فى مهمته لخبرته بأحوال البلاد وأهلها [٦٣]. وعند الأطراف النوبية التقت البعثة برسل ملك النوباديين الذين تولوا حراسة القافلة إلى عاصمتهم باخوراس Bakhoras ، فرس[٦٤]. واستقبل الملك أعضاء البعثة أحسن استقبال وقبل هدايا الإمبراطورة بسرور بالغ، ولم يلبث أن أعلن هو وأمراؤه ترك ما كان عليه أجدادهم وأقروا جميعًا «أن لا إله إلا الله واحد لا شريك له»[٦٥]. ورأى يوليان أن يشرح للنوباديين قواعد النزاع الذى نشب بين المسيحيين حول مسائل العقيدة، واضطهاد الإمبراطور ليثيودوسيوس وعزله ونفيه لرفضه الاعتراف بقرارات خلقيدونية [٦٦]، على حين أن الإمبراطورة تؤيده وتؤازره لتمسكه بعقيدته التى ضحى بمنصبه فى سبيلها «ولهذا أوفدتنا جلالتها إليكم لتسلكوا طريق البابا ثيودوسيوس وتذهبوا مذهبه وتثبتوا ثباته، أما الإمبراطور فإنه بعث بسفرائه إليكم وهم فى طريقهم إليكم»[٦٧]. ثم وصل رسل الإمبراطور، فقدموا الهدايا ودعوا الملك النوبى إلى قبول المسيحية، على أن يتبع الكنيسة الأرثوذكسية ورجالها، وألا يضل كما ضل أولئك الذين طردوا منها [٦٨]. بيد أن الملك النوبى قبل الهدايا ورفض ما عرضته عليه السفارة الإمبراطورية وآثر مذهب الكنيسة المصرية.

أما يوليان فظل فى نوباتيا نحوًا من سنتين وقام بتعميد الملك والأمراء، وعاونه فى أعماله الأسقف ثيودور الذى عهد إليه يوليان برعاية النوباديين بعد سفره إلى القسطنطينية، حيث استقبلته ثيودورا استقبالاً حسنًا [٧٠].

وظل ثيودوسيوس مشغولاً بأمر النوباديين وبخاصة بعد وفاة يوليان. وأصدرت ثيودورا أمرًا بتعيين القس لونجينوس أسقفا لبلاد نوباتيا سنة ٥٦٦م وبهذا تبدأ المرحلة الثانية من مراحل التبشير فى بلاد النوبة.

حاول لونجينوس السفر إلى بلاد النوبة غير أن أعداءه أوغروا صدر الإمبراطور جوستن الثانى ضده، وأوهموه أن لونجنيوس سيؤلب النوباديين ضد الدولة البيزنطية فيعودون لحربها وشن الإغارات على أطرافها، فقبض عليه (٧١). ولما كانت العيون تترصده فى كل مكان فإنه لجأ إلى حيلة تمكنه من الفرار، فخرج متنكرًا بوضع شعر مستعار على رأسه الأصلع ثم وصل سالمًا إلى بلاد النوبة حوالى سنة ٥٦٩م (٧٢). واستقبل النوبيون لونجينوس استقبالاً عظيمًا، ولقى منهم مساعدة كبيرة لبناء كنيسة(٧٣). وتبدو لباقة لونجينوس ودهاؤه عندما أوعز إلى الملك النوبى بإرسال هدية للإمبراطور ليبرهن على نبل مقصده. ووصلت السفارة النوبية حاملة الهدايا، واستقبلها الإمبراطور بحضور رجال البلاط ومن بينهم يوحنا الإفسسى، وأخذ رسول الملك النوبى يمتدح لونجينوس فى حضرة الإمبراطور(٧٤).

وأقام لونجينوس بين النوباديين قرابة ست سنوات، ثم رحل إلى الإسكندرية ليشترك فى انتخاب بطريرك للكنيسة المرقسية. ولما علم الملك النوبى وأمراؤه بعزم لونجينوس على السفر إلى مصر، حاولوا أن يستبقوه بينهم وأظهروا له حاجتهم إليه، التى يوضحها قول ملكهم «ستتركنا كاليتامى دون أب» (٧٥). ثم سمحوا له بالرحيل، وفى طريق عودته مر بجزيرة فيلة وعرض على الأسقف ثيودور - وهو كهل فى الثمانين - أن يصحبه فى رحلته، ولم يمنع ثيودور من السفر سوى كبر سنه (٧٦).

لم ينته الدور الذى قام به لونجينوس فى بلاد النوبة عند هذه الحوادث، بل كانت تنتظره مهمة لا تقل خطورة عما قام به فى نوباتيا، وهى تنصير أهل مملكة علوة Alodia، ذلك أنه قرابة سنة ٥٧٨م بعث ملك علوة رسالة إلى ملك نوباتيا يعلن فيها رغبته فى الدخول فى المسيحية، ورجاه أن يسمح للأسقف لونجينوس بالسفر إلى مملكته لتعميده هو ورعاياه، وذلك بعد أن غادر لونجينوس بلاد

نوباتيا. فأرسل ملك نوباتيا رسله إلى مصر لإقناع لونجينوس بالعودة إلى النوبة وزيارة علوة تلبية لرغبة ملكها[٧٧]. ولما علم الملكانيون بنبأ هذه الدعوة الجديدة أخذوا يدسون الدسائس، وأوعزوا إلى بطرس بطريق الكنيسة الملكانية بالإسكندرية بإصدار قرار بعزل لونجينوس، وأرسلوا صورة هذا القرار إلى ملك نوباتيا لتحويله عن لونجينوس ومذهبه. بيد أن الملك لم يستجب لهذه الدعوة وأصر على عودة لونجينوس؛ لأنه لا يقبل له بديلاً، وطرد رسل الملكانيين من بلاده[٧٨].

وصل لونجينوس إلى بلاد النوبة قرابة عام ٥٨٠م[٧٩]، حيث وجد رسالة ثانية من ملك علوة بدعوته لزيارة بلاده. ولم يكد الملكانيون يسمعون بخبر هذه الدعوة الثانية حتى أرسلوا أسقفين ملكانيين إلى ملك علوة يحملان رسالة مشحونة بالطعن فى حق لونجينوس؛ لأنه على قولهم «هرطقى مطرود من الكنيسة، ومن ثم فهو غير جدير بتعميد أحد»[٨٠]. بيد أن ملك علوة رد هذين الأسقفين خائبين بعد أن قال لهما: «إننا لا نعرفكم ولا نقبل التعميد إلا من هذا الذى عمد النوباديين من قبل. ثم إننا لا نصدق ما تقولونه فى حقه لأننا نعرف أنكم أعداؤه»[٨١].

أما لونجينوس فلم يسعه إزاء هذه الدعاية ضده إلا أن يلبى دعوة ملك علوة. وبهذا تبدأ المرحلة الثالثة من مراحل التبشير فى وادى النيل الأوسط، وهى المرحلة المعروفة بتنصير مملكة علوة. وغادر لونجينوس مملكة النوبة بصحبة بعض الأمراء ورجال ذوى خبرة بمسالك الصحراء. وتعرض فى هذه الرحلة لمصاعب لم تخل من تضحية، أوضحها ملك علوة فى خطابه إلى أورفيلا Awarfiula[٨٢]. ذلك إنه كان على لونجينوس أن يسلك طريق الصحراء الشرقية وأن يتجنب النيل فى المنطقة الواقعة جنوبى مملكة نوباتيا حيث توجد مملكة مَقُرَّة لعداء ملكها لملك نوباتيا. وربما كان هذا بتحريض من الملكانيين[٨٣]. وفى هذا يقول ملك النوبة فى رسالة بعث بها إلى ثيودور بطريرك الكنيسة المصرية. «ولكن بسبب المكيدة الخبيثة التى دبرها ذلك الذى يقيم بيننا [٨٤]، فقد أرسلت أبى البار إلى ملك البليميين ليوصله إلى داخل البلاد». ولكن أهل المقرة سمعوا

بهذا أيضًا وأرسلوا عيونهم للبحث عنه فى جميع الممالك فى الجبال والسهول(٨٥). ويبدو أن قافلة لونجينوس عرجت ثانيًا إلى النيل جنوبى الشلال الرابع(٨٦)، حيث استقبله أيتيكيا Aitekia مبعوث ملك علوة واستأنف الجميع الرحلة فى سفينة نيلية حتى سوبا. ثم بدأ لونجينوس عمله فى الحال، فعمد الملك وأسرته المالكة والأمراء ومن بين من عمدهم بعض الأحباش كذلك (٨٧). ومما يدل على نجاح لونجينوس فى مهمته الدينية ما جاء فى الرسالة التى بعث بها ملك علوة إلى زميله ملك نوباتيا يحييه فيها باعتباره أخًا فى الدين ويشكره على مساعداته القيمة، ويطلب المزيد من المساعدة فى تأثيث كنيسة (٨٨).

***

والخلاصة أن مملكتين من ممالك وادى النيل الأوسط تم تنصيرهما على مذهب الكنيسة المصرية. لكن ماذا كان مصير المملكة الثالثة - مَقُرَّة، هل اعتنق أهلها المسيحية، أو ظلوا على الوثنية؟ على الرغم من الأهمية التى نعلقها على رواية يوحنا الإفسسى فى دراسة موضوع دخول المسيحية بلاد النوبة على اعتبار أنه كاتب معاصر، غير أنه مما يقلل من أهمية روايته أنه من مؤيدى مذهب الكنيسة المصرية، ومن المعادين لقرارات خلقيدونية(٨٩). ولم تخل هذه الرواية بطبيعة الحال من مبالغة فى تعظيم رجال الكنيسة المصرية ومهاجمة منافسيهم أتباع المذهب الملكانى. مثال ذلك أنه لم يشر أية إشارة إلى تنصير مملكة مقرة(٩٠). كما أنه فيما يبدو تعمد الا يذكر شيئًا عن نشاط بعثة جستنيان إلى بلاد النوبة قرابة سنة ٥٤٣م، مع أنه لا يبعد أن تكون هذه البعثة عرجت على مملكة مقرة وأصابت فيها بعض النجاح (٩١).

على أن هنالك كاتبًا آخر يدعى يوحنا البكارى Lohn of Biclarum، وهو ملكانى المذهب ومعاصر ليوحنا الإفسسى. ذكر أن أهل مملكة مقرة اعتنقوا المسيحية فى سنة ٥٦٩م، ثم تلاهم الجرامنتيون «القرعان»(٩٢)، ولا يبعد أن تكون البعثة الملكانية وهى فى طريقها إلى علوة ما بين (٥٧٠ - ٥٨٠م) لتحويلها عن لونجينوس مرت بمملكة مَقُرَّة وإقليم القرعان، ووضعت أسس المذهب الملكانى(٩٣). وربما كان هذا هو سر العداء بين ملك مقرة وملك نوباتيا ولونجينوس كذلك(٩٤).

وعلى الرغم من اختلاف هذين الكاتبين المعاصرين فى المذهب وعدم اتفاق روايتهما، فالراجح أنه أصبح لكل من المذهبين المصرى والملكانى أساس فى بلاد النوبة (الممالك الثلاث). لكن إلى أى حد تأثرت بلاد النوبة بأحدهما أو بكليهما، وأيهما كانت له الغلبة، وأصبح هو المذهب السائد؟ يقول دى فيار إنه لا يأخذ برواية يوحنا الإفسسى لتعصبه لمذهبه، ويرى اعتماداً على نتائج الأبحاث الأثرية التى قام بها يونكر فى بلاد النوبة، أن شواهد القبور التى عثر على كثير منها تبرز صورة مخالفة. ذلك أن الأدعية المكتوبة عليها باللغة اليونانية تشبه أدعية الكنيسة البيزنطية، ولا يوجد لها شبيه فى مصر، مما يقوم دليلاً على أن مصدرها بيزنطة ويعزز الرأى القائل بضعف الحركة المونوفيزية فى بلاد النوبة فى بدء الحركة التبشرية[٩٥]. وفضلاً عن هذا فإن اللغة اليونانية كانت اللغة التى تكتب على شواهد القبور، كما أن الكتب النوبية القديمة ترجمت عن اليونانية لا عن القبطية[٩٦]. وثمة دليل آخر على ازدياد النفوذ الملكانى وهو وجود أسقف ملكانى فى وقت من الأوقات فى تافه بالنوبة السفلى، كما أن بعض ألقاب حكام النوبة مثل لقب إبارك eparch ودومستيكوس Domesticus مأخوذة عن المصطلحات البيزنطية الإدارية [٩٧].

غير أن نتائج أبحاث يونكر لا تقلل من قيمة أثر الكنيسة المصرية فى بلاد النوبة. وربما كان المسئول عن وجود الأثر البيزنطى فى القبريات النوبية، نشاط الحركة الملكانية فى مملكة مقرة، وهذا يتفق مع رواية يوحنا البكلرى[٩٨].

لكن أى المذهبين كانت له الغلبة فى النهاية؟ المعروف أن كتابات القبور أخذت الطابع المصرى تماماً حين حلت اللغة القبطية محل اللغة اليونانية فى الطقوس الدينية[٩٩]. وفضلاً عن هذا فإن رواية سعيد بن بطريق يوتيخا بشأن خلو الكرسى البطريركى للكنيسة الملكانية بالإسكندرية مدة ٩٧ عاماً ـ من خلافة عمر ابن الخطاب إلى خلافة هشام بن عبد الملك ـ أتاح الفرصة لبطريرك الكنيسة المرقسية لانتخاب أساقفة النوبة، بحيث أضحت كل بلاد النوبة على مذهب الكنيسة المصرية[١٠٠] وثمة دليل على التحول من المذهب الملكانى إلى المصرى وهو ما جاء فى حياة إسحاق بطريرك الكنيسة المرقسية (٦٩٠ - ٦٩٣) من أن ملك

مقرة يشكو قلة عدد الأساقفة فى مملكته؛ لأن ملك موريتانيا(١٠١) لا يسمح بمرور رجال الدين من مقرة إلى الأسكندرية لتكريزهم، ويدل هذا على رغبة النوبيين من أهل مقرة فى اتباع مذهب الكنيسة المصرية. أما المؤلفون العرب فإنهم أجمعوا على أن المسيحية فى النوبة كانت على مذهب الكنيسة المصرية. فيقول المسعودى: «لليعاقبة كرسيان لا ثالث لهما أحدهما بأنطاكية والآخر بمصر، والغالب على نصارى مصر من الأقباط وغيرها بفسطاطها وسائر كورها وما يليها من أرض النوبة يعقوبية» (١٠٢). ويقول ابن الفقيه: «والنوبة يعقوبية وللصقالية صلبان ـ الحمد لله على الإسلام ـ وكذلك أهل علوة»(١٠٣).

ثم إلى أى حد تأثر النوبيون بالمسيحية، وهل كان اعتناقهم لها على نطاق واسع، أو شمل بعض طبقات الشعب دون البعض الآخر؟ الواضح مما كتبه يوحنا الأفسسى أن يوليان ولونجينوس بدأ بتعميد الملوك ثم الأمراء ثم بعض أفراد النوبيين. ومن غير المعقول أن يتم تعميد النوبيين جميعًا فى المدة القصيرة التى قضاها كل منهما فى بلاد النوبة(١٠٤). ولابد أن قرارًا صدر من ملوك النوبة باعتبار المسيحية دين الدولة الرسمى، فاعتنقها الناس لا عن فهم واقتناع، ولكن الناس على دين ملوكهم.وفضلاً عن هذا فإن عملية التبشير بالنوبة لابد أنها أخذت أبسط أنواع صورها لتلائم ظروف البيئة البدائية وثقافة السكان. واعتمد المبشرون على سرد القصص المحببة إلى نفوس السامعين أكثر من الاعتماد على الحجج المنطقية والمناقشات اللاهوتية. وبهذا يمكن تصور نوع التعاليم التى تلقاها النوبيون على يد مبشريهم الأول. ولابد أن تكون هذه التعاليم خرجت أحيانًا عن أصولها للحصول على كسب سريع (١٠٥). ثم أنه لابد أن النوبيين لم يعتنقوا المسيحية دفعة واحدة، ولكن على مراحل، بدليل وجود بعض العادات الوثنية بين النوبيين فى الوقت الذى كان يقوم فيه كل من يوليان ولونجينوس بالتبشير بينهم. مثال ذلك عادة تقديم الضحايا البشرية والحيوانية، وكذلك عادة وضع الأوانى الفخارية التى يحفظ فيها طعام الميت وشرابه فى القبور(١٠٦). ثم ازداد انتشار المسيحية ببلاد النوبة حتى أصبحت عامة تقريبًا بسبب هجرة الأقباط من مصر إلى بلاد النوبة على إثر الغزو الفارسى لمصر عام ٦١٩م

واضطهاد الملكانيين للأقباط بعد استرداد البيزنطيين مصر. وفضلاً عن هذا فإن التنظيم الإدارى لمملكة النوبية المتحدة[١٠٧]، وتقسيمها إلى مديريات تحت سلطة حكام خاضعين للملك مباشرة بدنقلة أدى إلى ازدياد سلطة الحكومة، وبالتالى ساعد على إحكام رقابتها على الحياة الدينية وأدى إلى انتشار المسيحية[١٠٨].

* * *

غير أنه لم يكن فى وسع النوبين أن ينشئوا إلا القليل من الكنائس الجديدة بعد تنصيرهم، فبدءوا بتحويل المعابد الوثنية إلى كنائس، وأول من استن هذه السنة هو الأسقف ثيودور. ففى قرابة أوائل القرن السادس الميلادى حول معبد فيلة الوثنى إلى كنيسة باسم القديس إسطفانوس[١٠٩]. وفى النوبة حيث توجد كثير من المعابد المصرية التى تحمل جدرانها نقوشًا فرعونية تحولت هذه المعابد إلى كنائس بعد طمس هذه النقوش بطبقة من الجص، ونقشت صور تمثل السيد المسيح والحواريين[١١٠]. وقرابة سنة ٥٥٩م حول الملك إربانم Erpanome معبد دندور إلى كنيسة. ونقش على جدرانها كتابات ذات أهمية خاصة توضح علاقة هذا الملك النوبى بأسقف فيلة. كما توضح علاقة الملك بمندوبه وممثله فى كلابشه، والذى يحمل لقب hezarch أو eparch «نائب ملك»[١١١]. أما معبد كلابشه فيبدو أنه حول أيضًا إلى كنيسة قرابة ذلك الوقت، وعلى جداره نقشت كتابتان تخليدًا لهذه الذكرى[١١٢].

هذه هى المعابد التى عرف تاريخ تحويلها إلى كنائس. أما بقية المعابد الأخرى مثل: معبد دكة وأمادا ووادى السبوع وأبى سمبل فلا نعرف تاريخ تحويلها. ومن الكنائس التى ظلت فى حالة معقولة تلك التى تحتل قلب معبد وادى السبوع الذى بناه رمسيس الثانى وطليت جدرانه بالجص وكتبت عليها كتابات قبطية وصور تمثل ميلاد السيد المسيح وتلاميذه الاثنى عشر. وصورة للملاك ميخائيل وبجانبه صورة امرأة قد تكون إحدى المتبرعات لإنشاء هذه الكنيسة، وكذلك صورة القديس بطرس وبيده مفتاح كبير مازالت واضحة المعالم[١١٣].

أما الكنائس التى بناها النوبيون، فأولها كنيسة مارى بإبريم، وربما يرجع تاريخ بنائها إلى أواخر القرن السادس أو أوائل السابع. والكنسية الثانية هى التى أشار إليها يوحنا الأفسسى وقال إن لونجينوس بناها للنوبيين أثناء إقامته بينهم فى المرة الأولى من سنة ٥٦٩ ـ ٥٧٥م. والكنيسة الثالثة هى كنيسة دنقلة. أما كنيسة فرس وبوهن فربما يرجع تاريخ بنائهما إلى أواخر القرن السادس أو أوائل السابع الميلادى (١١٤). أما سائر الكنائس المنتشرة على طول النيل من أسوان فى الشمال إلى القطينة على النيل الأبيض فى الجنوب، فلم يعرف تاريخ إنشائها لعدم وجود نصوص مكتوبة على جدرانها، ولم يبق من هذه الكنائس إلا أطلالها، ومعظمها اندثرت معالمه لأنها كانت مبنية من الطين. ولهذا فإن ما تبقى منها معظمه إلى الشمال من أبى حمد حيث تندر الأمطار. ويقول أبو صالح فى الوقت الذى وضع فيه كتابه قرابة منتصف القرن الثانى عشر الميلادى إن مدينة علوة بها أربعمائة كنيسة (١١٥)، ويضيف بتلر (١١٦) أن فرنسسكو الفارز مبعوث ملك البرتغال إلى بلاط ملك الحبشة فى القرن السادس عشر الميلادى، ذكر أن شخصا سوريا يدعى يوحنا السورى حدثه أن ببلاد النوبة مائة وخمسين كنيسة مزينة جدرانها بصور السيد المسيح والسيدة العذراء والقديسين . وعثر سومرز كلارك على سبع وأربعين كنيسة فى النوبة فى جهات مختلفة على طول النيل من أسوان إلى جنوبى الخرطوم. ووصف هذه الكنائس ووضع لها رسومًا فى كتابه عن الآثار المسيحية بوادى النيل. وعثر دى فيار أخيرًا على بقايا عشر كنائس أخرى منها اثنتان بقصر إبريم.

بقى هنا أن نشير إشارة خفيفة إلى البليميين ومدى تأثرهم بالمسيحية بعد القرن السادس الميلادى، فلا يبعد أن يكون لونجينوس عمد بعض زعمائهم أثناء مروره بلادهم. غير أننا لانسمع عن البليميين شيئًا إلا بعد الفتح العربى بقرابة مائة سنة، حين عرفوا باسم البجا وهو اسمهم القديم، ووصفهم الكتاب العرب بأنهم وثنيون، ويقول اليعقوبى: «ليس لهم شريعة إنما كانوا يعبدون صنمًا يسمونه حخاخوا» (١١٧) ويقول أبو الفدا «إنهم يعبدون الأوثان (١١٨) أما الإدريسى فيقول بأنهم نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية (١١٩).

ويمكن القول إن المجموعة البجاوية ظلت على وثنيتها باستثناء جماعات قليلة منها اعتنقت المسيحية بحكم اتصالها بالجماعات المسيحية. ومنذ الفتح العربى لمصر أخذت المسيحية تمتد رويدًا رويدًا إلى أوطان البجة، وبقى بعضهم على وثنيتهم. حتى دخل الإسلام ديارهم كما سيجىء بعد.

هوامش الفصل الثالث

(1) Griffith, F. Ll.: "Pakhoras - Pakharas - Faras in Geography and History" JEA. XI. P. 268.

(2) Growfoot, J. W.: Christian Nubia. JEA. XIII.p. 141.

(3) Roeder, G. : "Die Christiche Zeit Nubiens und des Sudan. Z K., xXXIII. P.365.

(4) Somers Clarke: Christian Antiquities in the Nile Valley, p. 8. Budge, E. A. W. : p. 8 the . Egyptian suban, II, P. 288.

(5) Ibid. : op. cit.p.288.

(6)Butcher. E. L.: The story of the Church of Egypt, P. pp. 19 - 21.

(7) Budge, E. A. W. : op. cit. p. 278.

(8) Ibid. : op. cit. P. 288.

(٩) بتشر- كتاب تاريخ الأمة القبطية وكنيستها - تعريب تادرس شنودة، ص ٥٨ ، ٥٩.

(١٠) المصدر السابق، ص٦٤.

(11) Budge, E. A. W.: op. cit. p, 289.

(12) Bonet -- Mauray: L, Islamisme et le Christianisme en Afrique. p. 37.

(١٣) بتشر - المصدر نفسه، ص٢٩.

(14) Bonet - Mauray: op. cit. p. 37.

(15) Budge. E. A. W.: op. cit. pp. 289 - 290.

Bell, H. I.: HTR, 7. pp. 185 - 208.

(١٦) انظر الفصل السابق.

(١٧) تعتبر منطقة النوبة الوسطى جنوبى الشلال الثانى أنسب الأقاليم لحياة هؤلاء المهاجرين لصعوبتها وبخاصة المنطقة المعروفة ببطن الحجر. Budge. E. A. W.: op. cit. p. 290.

انظر كذلك Dunbar, J H.: "Betwixt Egypt & Nubia. A E.,. XIV p. 109.

(18) Ahmad Fakhry: The Necropolis of El Bagawat in Kharga oasis, p. 12.

(19) Budge, E.A.W.: A Hist. of Ethiopia...., op. cit. I. p. 113.

(20) Budge. E. A.: The Egyptian sudan. Op. cit. p. 290.

(٢١) فشر: تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى القسم الأول ـ تعريب. الدكتور. محمد مصطفى زيادة، ص٦ - ٧.

(٢٢) دليل المتحف القبطى: جـ٢، ص١٤٠.

(٢٣) انظر الفصل السابق: ص٣٤، وانظر : Trimingham, J. S.: op. cit. p.49 نقلا عن Eusebius: Vit. Constantini P. 8.

(٢٤) تبدأ أخبار البعثات التبشيرية الرسمية فى القرن السادس الميلادى ـ كما سيجىء بعد ـ ذلك واختلط على الكاتب أن إثيوبيا تشمل بلاد النوبة أيضًا، لأنها كانت فى نظر القدماء. كذلك. على أن المقصود هنا هو دولة أكسوم (الحبشة).

(٢٥) اختلف كل من آريوس وأثناسيوس حول طبيعة المسيح، وتدخل قسطنطين لحسم هذا الخلاف، وعقد مجمع نيقية ٣٢٦م، حيث نجح قساوسة مصر وتأيد مذهبهم ثم أثار قساوسة القسطنطينية هذا الموضوع من جديد، ونجح كيرلس بطريك الكنيسة المرقسية على خصيمه نسطورس بطريرك القسطنطينية فى مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١م. بعد أن استمال إليه الإمبرطور تاوداسيوس الثانى وبابا روما، ثم ما لبث أن ثار الموضوع مرة أخرى، ونال قساوسة مصر والشام وعلى رأسهم ديوسقورس بطريق الإسكندرية نصرًا جديدا فى مجمع أفسس الثانى سنة ٤٤٩م وشجع هذا النصر قساوسة الإسكندرية، فبالغوا فى تقدير ديوسقورس إلى درجة أحفظت بابا روما ليو الكبير. ولهذا أصدر ليو قراراً يتعارض مع مذهب الكنيسة المرقسية، وانحاز الإمبراطور مارقيان إلى هذا الرأى، وتقرر عقد مجمع دينى فى خلقيدونية سنة ٤٥١م، وفيه تقرر عزل ديوسقورس، وأقر المؤتمرون الصيغة البابوية. ومن أخطر نتائج خلقيدونية تكفير رجال الدين فى كل من مصر والشام. فتكونت فيهما شيع معادية للإمبراطور وتحول النفور الدينى إلى نفور سياسى. وبخروج كنيسة الإسكندرية منهزمة أتاح الفرصة للإمبراطور لبسط سيطرته على الكنيسة البيزنطية. وأطلق على الأقلية المصرية التى قبلت قرارات خلقيدونية اسم ملكانيين - واشتدت معارضة المصريين لقرارات خلقيدونية، واضطرت الدولة إلى تجريد حملات حربية لقمع حركاتهم، ونزل بالمصريين اضطهاد شديد، استمر حتى الفتح العربى لمصر. انظر:

Groves, C. p.: The planting of Christianity in Africa I. pp. 43 - 46.

(26) Laturette. K. S. : A History of the Expansion of Christianity, II. P. 232.

(27) Roeder. G. op.: cit. pp. 376 - 77.

تذكر بعض الروايات أن المسيحية دخلت بلاد النوبة على يد المبشرين المصريين فى القرنين الأول والثانى للميلاد بدليل أن بطريق الكنيسة المصرية منذ عهد المسيحية الأول يحمل لقب بطريرك الإسكندرية والديار المصرية والنوبة والحبشة والخمس مدن الغربية تجمعها الكلمات الثلاث المنقوشة على خاتمه «بطريرك الكرازة المرقسية» انظر دليل المتحف القبطى حـ٢ ص١٤٠، وجاء فى كتاب Maspero, J: Histoire des Patriaches D' Alexandrie. 382. انه أطلق عليه لقب بطريرك الإسكندرية والحبشة والنوبة وبنتابوليس (الخمس مدن الغربية) نقلا عن أبى البركات. Lampes des tenebres - Paris, ar. 203 f. 74b, 154. وذكر فانسليب Vansleb: Histoire de l'Eglise d'Alexandrie, p. 32. «بطريرك الإسكندرية والأقاليم التابعة لمصر ـ بيت المقدس والحبشة والنوبة والخمس مدن الغربية والبلاد الأخرى التى بشر فيها القديس مرقس» وتأيد هذا اللقب فى مجمع نيقية الأول سنة ٣٢٥م ومجمع القسطنطينية الثانى سنة ٣٨١م. وذكر أيضًا فى تاريخ البطاركة والسنكسار فورد فى

تاريخ حياة الأنبا ديمتريوس البطريرك الثانى عشر (١٨٩ ـ ٢٣١م) أنه رئيس أساقفة مصر والخمس مدن والنوبة والحبشة. أما الخمس مدن فهى برقه وتونس وطرابلس الغرب وفريجيا (إفريقيا) والقيروان. عن كتاب السُلّم الكبير، لشمس الدين بن كبر قسيس المعلقة. غير أن أخبار هذا التبشير المزعوم لم يرد عنه نص صريح فى المراجع الكنيسة.

(28) Crum, B. W. E.: A Nubian Prince in an Egyptian Monastery, in Studies Presented to Griffith. F. L I. pp. 137 - 148.

وتعرف هذه القصص باسم بساتين الأبا الرهبان ـ فردوس النعيم ـ الأربعين خبر التى للأبا الرهبان بوادى هيب وغيره «انظر ملحق رقم ٢.

(٢٩) الراجح أن هذه القصص قديمة ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس الميلادى وأنها مكتوبة باللغة القبطية أو اليونانية ثم ترجمت بعد ذلك إلى اللغة العربية حين ترجمت بعض طقوس الكنيسة المصرية إلى اللغة العربية.

(30) Kirwan, L. P. : LA A A., XXIV.,pp. 92 - 94.

(31) Ibid. op. cit. pp. 95 - 96.

(٣٢) إن هذه البعثة التبشيرية ـ لوصحت ـ فهى بعثة غير رسمية، أى أنها غير صادرة عن الكنيسة العامة أو الحكومة البيزنطية.

(٣٣) تشير هذه الوثيقة إلى زيارة راهب اسمه بافنوليوس لراهب آخر عجوز يعيش فى جزيرة بالجنادل الأولى ويدعى إسحاق، وهو تلميذ لناسك مشهور فى هذا الإقليم اسمه آنبا هارون. وحدث إسحاق زائره عن أن سكان فيلة وثنيون وقليل منهم مسيحيون، وهؤلاء هم المضطهدون من جيرانهم. ويزورهم رهبان أسوان وفيلة مرة فى كل أسبوع لتعليمهم قواعد الدين. فأرسل مقدونيوس وهو موظف رومانى تقريرًا بهذه الأخبار إلى أثاناسيوس بطريق الإسكندرية (٣٤٤ ـ ٢٩٠م) فعينه أسقفًا حتى يستطيع أن يقوى من شأن المسيحية فى هذه المنطقة، ثم خلفه مرقس وإسحاق.

Kirwan, L.P. : op. cit. p. 95.

Maspero, j.: op. cit. p. 382.

(34) Kirwan, L. p. LA A نقلا عن Chassinat: Memoire, de L'Institute Fr XXIII p84.XXIV p.92 A., x x IVP. 92

هذا ولم تخل حياة شنودة من جهاد دفاعًا عن عقيدته ، وتدل أقواله على أنه كثيرًا ما شهر السلاح فى وجه بعض البليميين الذين أغاروا على دير إخميم، ونجح شنودة فى حماية الدير من هجمات أولئك البليميين بعد أن عجز الرومان عن صدهم. وفقد حياته فى إحدى المعارك ضدهم. انظر Woolley - Maciver: op. cit. Emery, W. E.: op. cit. p. II : وكذلك p. 95

(٣٥) De Villand: op. Cit. P. 56 وتولى ثيودور أسقفية أسوان بعد أن كرسه البطريرك تيموتاوس أسقفًا سنة ٥٢٦م. وقد ظل يباشر سلطته حتى وفاته سنة ٥٨١م وعمر يناهز من ثمانين سنة.

(36) De Villard: op. cit. p. 56.

(٣٧) كثيرًا ما هدد البليميون سكان منطقة طيبة المسيحيين، وفى القرن الخامس الميلادى مثلا، اضطر المشردون منهم إلى الالتجاء إلى دير إخميم للاحتماء فيه من هجمات البليميين. ويقال إن الأنبا شنودة آوى آلافًا من المسيحيين المشردين إلى دير إخميم؛ حيث رحب بهم وكان يقدم لهم الطعام والشراب مدة ثلاثة شهور.

(٣٨) تقع جزيرة تنارى مقابل قرية الجبلين على بعد خمسة وعشرين ميلا جنوبى الأقصر الحالية.

Emery, W. E.: op. cit ppll - 12 انظر ملحق رقم ٢.

(39) Kirwan. L. P. : op. cit. pp. 87 - 91.
(40) Emery. W. E: op cit. P. 12.
(41) Kirwan. L. P: op. Cit. P. 87.
(42) Bury. J. B.: History of the Later Roman Empire., II., p. 324.
(43) D Villard Op. Cit. , pp. 57 - 58.

استغل الإمبراطور جوستن حادثة نجران باليمن لإثارة عاطفة ملك أكسوم الدينية ليحرضه على حرب اليمن، واستعان فى ذلك بالبطريق تيموتاوس. أما عن حادثة نجران فيقال إن ذا نواس الحميرى اليهودى حاصر جماعة من المسيحيين فى نجران باليمن . ولما رفضوا الارتداد عن المسيحية قتل منهم حوالى ٢٨٠ شخصاً فى ليلة واحدة. انظر:

Bury, J, B.: op. cit. P. 324.
(44) Kirwan, L. P. : op. cit. p. 87./
(45)Ibid. op. cit. p. 89.
(46) Ibid. op. cit. P. 89.

(٤٧) يؤيد هذا ما ذكره برسبق قرابة منتصف القرن الخامس الميلادى عن معاهدة مكسيمينوس والسماح للبليميين والنباطيين بالحج إلى فيلة، وما ذكره أبيون من اعتداء هؤلاء على كنائس أسوان والفنتين فى منتصف القرن الخامس الميلادى أيضا. وما جاء على لسان اليمبودورس من ممارسة البليميين للوثنية واحتفائهم بها. وفى منتصف القرن الخامس الميلادى أى قرابة ٥٤٥م يحدثنا بروكوبيوس عن ممارسة هذين الشعبين للوثنية ثم يعود ويذكر كيف أنهى جستنيان هذه العبادة بإغلاق معبد فيلة الوثنى.

(٤٨) راجع الفصل السابق ص٣٧ ـ ٣٩.

(49) Cosmas Indicopleusets.: The Christian Topograohy. ed . Mc Crindal, Hakluyt Soc. P. 120.

(٥٠) الجرامانتيون هم القرعان وهم شعب رعوى تمتد أوطانهم من فزان جنوبًا إلى النوبة مشتملة على صحراء بيوضة التى كانت تعرف حتى القرن السابع عشر باسم صحراء جوران أو جورهام. وهم يعيشون الآن فى شمال دارفور.

Kirwan, L. P. : "Christianity and the Kura'an." JEA., XX, pp. 201 - 3.
(51) Trimingham, J. S. : op. cit. pp. 50 - 51.
(52) Kirwan, L. P. : LAAA. op. cit. p. 87.
(53) De Villard : op. cit. P. 54.
(54) John of Ephesus Ecclessiastical History. Book IV Part III. ed. by payn Smith. p. 254.
(55) Kirwan, L. P. : "A Contemporary Account of the conversion of the sudan to Christianity" SNR., XX, part II p. 290.

وفيما يتعلق بتعيين الحدود بين هذه الممالك . انظر الفصل الرابع.

(٥٦) يوحنا أسقف أفسس ـ ولد فى أميدا شمال العراق قرابة سنة ٥١٦م. كتب كتابه التاريخ الكنسى باللغة السريانية، استقر ما يقرب من ثلاثين سنة فى مدينة القسطنطينية. وعلى الرغم من أنه من أتباع الكنيسة المصرية إلا أنه تمتع بثقة وصداقة جستنيان، وتقلب يوحنا فى كثير من الوظائف فى البلاط الإمبراطورى واستفاد من هذا المركز فى تدوين ما يقع عليه بصره ويصل إليه سمعه فى البلاط الملكى فى بيزنطة. وأوفده الإمبراطور فى عدة بعثات إلى القبائل الوثنية فى ليديا وكيريا وفريجيا.

(٥٧) كان يوليان من رجال الكنيسة المصرية التى عارضت قرارات خلقيدونية، وهى القرارات التى لاتتفق ورأى الكنيسة المصرية فى طبيعة المسيح. انظر حاشية رقم ٢٥ ص ٤٨ من هذا الفصل.

(58) John of Ephesus. op. cit. pp. 251 - 252.

(59) John of Ephesus: op. cit. p. 252.

(60) Ibid op. cit. pp. 252 - 253.

(61) Ibid : op. cit. P. 253.

(62) De Villard: Op. cit. p. 55.

(63) Ibid: op. cit. P. 55.

(64) John ef Ephesus: op. cit. p. 253.

(65) Ibid: op. cit. p. 254.

يشبه هذا الشهادة عند المسلمين . وفى الواقع أن موضوع طبيعة المسيح كان شغل رجال الكنيسة الشاغل فى مثل هذا الوقت من تاريخ الصراع بين أنصار المذهبين. ويبدو من روح هذا النص معنى الطبيعة الإلهية الواحدة.

(66) John of Ephesus: op. cit. p. 254.

(67) Ibid: op. cit. p. 254.

(68)Ibid.: op. cit. p. 254.

(69) Ibid.: op. cit. P. 255.

تحدث يوليان عن شدة الحرارة فى الصيف بقوله: «إنه من الساعة التاسعة صباحًا إلى الرابعة بعد الظهر كان يضطر إلى أن يلجأ إلى الكهوف المليئة بالماء، ويجلس فيها دون ملابس اللهم إلا الثوب الكتانى الذى كان يلف به جسمه كما يفعل أهل تلك البلاد».

(70) I bid. : op. cit. p. 256.

(71) I bid.: op. cit. p. 257.

(72) Kirwan, L. P.: SNR., XX. part II,p. 292.

(٧٣) أخذ لونجينوس يعلم النوباديين الإنجيل ونطلب إنشاء الكنيسة تاليف هيئة كهنوتية تتولى تلقين طائفة من رجال الدين التعاليم اللازمة لأداء واجبهم المقدس.

John of Ephesus: op. cit. p. 257.

(74) Ibid. : op. cit. pp. 257- 258.

(75)Ibid. : op. cit. p. 258.

(76) Ibid. : op. cit.

(77) Trimingham J. S.: op. cit. p55.

(78) John of Ephesus: Op.cit. p. 317.

(79) Ibid: op. Cit. p. 326.

(80)Ibid: op. cit. pp. 317 - 318.

(81)Ibid: op. cit. p. 318.

(٨٢) أورفيلا اسم محرف للملك نوباتيا. ويقول ماسبرو فى كتابه تاريخ البطارك ان اسم هذا الملك إيريانومى Eirpanome وربما كان هذا الملك خليفة الملك سلكو. حاشية رقم ٤ Maspero., J:op cit. p. 287

(83) John of Ephesus: op, cit. p. 319.

(٨٤) يقصد به هنا ملك مقرة. لأن مملكته تتوسط مملكة نوباتيا ومملكة علوة.

(85) John of Ephesus:op. cit. p. 325.

(86) Kirwan. L. p. : SNR., Vol. X X. part II. p. 294.

(٨٧) قابل لونجنيوس بعض الأحباش المسيحيين فى غلوة. وهم ممن يعتنقون بعض الآراء الهرطقية التى تنسب إلى قس اسمه يوليان الهاليكارناسى Julian of Halicarnasus وقد أعاد لونجينوس تعميدهم وتلقينهم مذهبه، ويرى البعض أن وجود أولئك الأحباش المسيحيين فى علوة قبل قدوم لونجينوس يعنى وصول المسيحية إلى علوة عن طريق الحبشة.

Trimingham, J. S.: op. cit p. 57 Note. غير أنه ـ فيما يبدو ـ لم يكن لهؤلاء الأحباش أثر يذكر فى بلاد علوة Kirwan, L. p. : Firka. p. 55 وإذا وجدت مظاهر الفن الحبشى فى كنيسة دنقلة كما يقول كروفوت. فإن هذا الأثر ضعيف. كما أن حملة عيزانا لم تترك أى أثر للمسيحية ، لأن عيزانا نفسه لم يبشر إلى رغبته فى نشر الدعوة الجديدة التى تلقاها على يد فرومنتيوس. وعلى هذا فإن مصر ـ كما كانت دائما ـ مصدر الثقافة.

(88) John of Ephesus: op. cit. P. 321.

(89) Kirwan, L. P. : SNR., XX, part II., p. 295.

(90) Ibid: op. cit. p. 295.

(91) Ibid: op. cit. p. 295.

(92) Kirwan, L. p. : Christianity and the Aura "an" JEA., XX, p. 201.

(93) Kirwan, L. p.: Firka p. 50.

(94) Ibid. op. cit. p.50.

(95)De Villard,: op. cit. pp. 61.

(96) Kirwan, L. p. : Firka p. 51.

Griffith, F. L : LAAA., XIII, p. 52.

(97) Shinnie, P. L.: Medieval Nubia, p.5.

(98) Kirwan, L. P.: JEA. XX. p. 202.

Kirwan, L.P.: Firka. P. 56.

(99) De Villard : op. cit. p. 62.

(100) Ibid, : op. cit. p. 62.

Kirwan, L. P. : Firka. p. 49.

ويقول شنى أصبح انتصار اليعاقبة أمرًا واقعًا بعد الفتح العربى لمصر إذ اعتبر الملكانيون أنصار الإمبراطورية البيزنطية، على حين لقيت الكنيسة القبطية كل عطف من العرب الحاكمين. وفى مدة تقرب من مائة عام ٦٢٧م إلى ٧٣١م لم يكن للملكانيين بطريرك ملكانى. وعلى هذا لم يستطع النوبيون الحصول على أساقفة ملكانيين. ووجد أنصار الكنيسة المصرية الفرصة سانحة لتدعيم سلطانهم.

Shinnie, P. L. : op. cit. P.5.

(١٠١) انظر الفصل الرابع، ص٧٤.

(١٠٢) المسعودى: التنبيه والإشراف، ص١٠١.

(١٠٣) ابن الفقيه: كتاب البلدان، ص٧٧.

(١٠٤) نعلم أن يوليان بقى فى نوباتيا قرابة سنتين من ٥٤٣ إلى ٥٤٥ م، ثم ترك ثيودور بها حتى سنة ٥٥١م، وعاد بعدها إلى أسقفيته. ثم جاء لونجينوس وبقى بنوباتيا قرابة ست سنوات من ٥٦٩ إلى ٥٧٥م، ثم عاد مرة اخرى سنة ٥٨٠ م إلى نوباتيا. ولم يمكث بها طويلا بل اتجه إلى علوة. ويبدو أن إقامته بها كانت قصيرة.

(105) Kirwan. L. P. : LAAA. op. Cit. P. 103.

(106) Ibid: op. Cit. P. 103.

(١٠٧) مملكة النوبة المتحدة هى التى تكونت من مملكة نوباتيا ومقرة - انظر الفصل الرابع، ص٧١ وما بعدها.

(108) Kirwan. L. P. : LAAA. op cit. p. 105.

(109) Roeder. G, : op. cit. p. 379.

(110) Ibid : op. cit. P. 380.

Kirwan, L. P. : LAAA. XXIV p. 93.

(١١١) انظر ملحق رقم ٤ ، والراجح أن هذا الموظف hezarch كان يمثل الإمبراطور البيزنطى Kraus Johann, S. V. D.: Die Anfange. Des Christ. in Nubien. P. III.

Revillout : Memoire sur Les Blemmyes, P. 121.

(١١٢) عثر على نقشين على جدار هذا المعبد وجاء فيهما : «أنابولس صليت فى هذا المكان للمرة الأولى»، «باسم المسيح عيسى - أنا القسيس بولس وضعت الصليب فى هذا المكان لأول مرة». انظر: Roeder, G, :op. Cit.

(!13) Roeder, G, op. cit. p. 381.

(114) Kirwan, L p. : LAAA. XXIV p. 100

(١١٥) أبو صالح، ص١٢٠.

(١١٦) المصدر السابق، ص٢٦٤ حاشية١.

(١١٧) اليعقوبى: كتاب البلدان، ص٣٣٦.

(١١٨) أبوالفدا: المختصر فى أخبار البشر، ص١٩٦.

(١١٩) الإدريسى: المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ص٢٧.

الفصل الرابع

النظم والحضارة فى ممالك النوبة المسيحية

التنظيمات الإقليمية ـ التنظيمات السياسية ـ طبقات المجتمع ـ التنظيمات الكنسية ـ الاقتصاد النوبى ـ بعض مظاهر الحضارة النوبية.

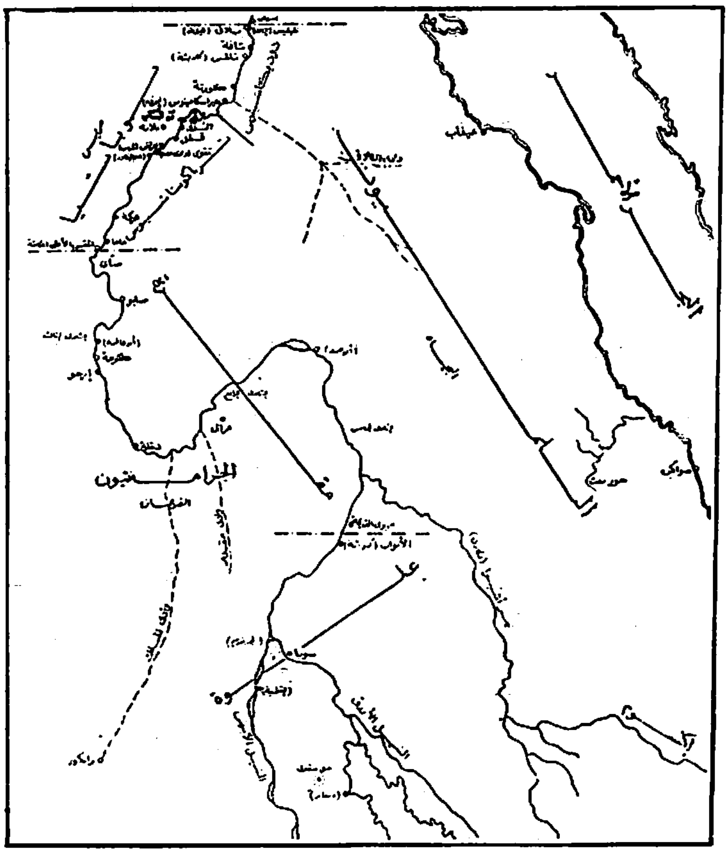
* * *

يرجع ما وصل إلينا من تاريخ ممالك النوبة المسيحية إلى قطع من نصوص مكتوبة بواحدة أو أخرى من اللغات القبطية أو اليونانية أو النوبية، وإلى إشارات قليلة فى المؤلفات القبطية، وإلى ما ذكره بعض المؤلفين العرب الذين جاء ذكر النوبة عرضًا فى مؤلفاتهم[١]. ولهذا جاءت هذه المعلومات إما ناقصة أو غامضة فى كثير من الأحيان[٢].

والممالك المسيحية التى استقبلت المبشرين المصريين والبيرنطيين الرسميين حوالى منتصف القرن السادس الميلادى كانت ثلاثا، تحدث عنها يوحنا الأفسسى دون أن يعين لها حدودًا جغرافية واضحة. أولاها: مملكة النوباديين Nobadae جنوبى الشلال الأول، وثانيتها: مملكة أطلق اليونانيون على سكانها اسم Alo-daie، وهى فى أقصى الجنوب من بلاد النوبة، وثالثتها: مملكة الماكوريين Makor-itae ـ أى مقرة ـ وموقعها بين المملكتين السابقتين[٣]. أما المملكة الأولى فهى التى أسسها الملك سلكو قرابة ٥٣٠م[٤] . ويبدو أنه تمكن من إخضاع الماكوريين[٥]

أصحاب المملكة الثالثة مدة قصيرة[٦]. أما المملكة الجنوبية التى يسكنها Al daie، فهى التى نشأت على أنقاض مملكة مروى بعد سقوطها على يد الملك عيزانا قرابة منتصف القرن الرابع الميلادى[٧] . وورد فى نقش الملك عيزانا اسم مدينة علوة alwah ضمن المدن المبنية بالطوب الأحمر والتى وقعت فى قبضته. وهى تقع على نهر سيدا Seda جنوبى التقائه بنهر تكازى Takkazi (أتبرا).

ومنذ عام ٥٨٠ ظلت هذه الممالك الثلاث المسيحية مستقلة بشئونها تحت حكم رؤساء وطنيين[٨] . غير أن المراجع العربية تخبر بأنه بعد استيلاء العرب بقيادة



ممالك النوبة المسيحية

عمرو بن العاص على مصر سنة ٦٤٠م، قامت حملتان عربيتان من الأراضى المصرية سنة ٦٤٠ ـ ٦٥٢م بقيادة عبدالله بن سعد بن أبى السرح لغزو تلك الممالك المسيحية، كما تخبر بأن عهد الصلح الذى عقده عبدالله بن سعد كان «لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته... من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة[٩]». ومعنى هذا أن المملكتين نوباديا ومقره أضحتا مملكة واحدة عرفت باسم النوبة. أما المملكة الأخرى وهى علوة فيبدو أن المسلمين لم يتعرضوا لها. على أن موضع الأهمية هنا، هو معرفة متى حدث هذا الاتحاد؟ أما المؤرخون فاختلفوا حول تاريخ اتحاد هاتين المملكتين، فهناك قول بأن هذا الاتحاد حدث فيما بين ٥٨٠ ـ ٦٥٢م وأن دنقلة أصبحت بذلك عاصمة للملكة النوبية المتحدة، على حين ظلت فرس عاصمة المقاطعة الشمالية [١٠]. وثمة قول آخر وهو أن اتحاد المملكتين «نوباديا ومقرة» حدث بعد مضى خمسين عامًا على عقد هذا الصلح [١١]. ويستند صاحب هذا الرأى إلى أمرين: أولهما: ما ورد فى بعض المراجع القبطية [١٢] بشأن نزاع نشب بين ملك مقره وملك موريتانيا سنة ٦٩٠م بسبب حاجة الأول إلى أساقفة ومنع الأخير إياهم من المرور بمملكته، وملك موريتانيا فى نظره هو ملك نوباديا. ومعنى هذا ـ فى رأيه ـ أنه حتى سنة ٦٩٠م كانت لاتزال المملكتان مستقلتين. وثانيهما: ما ورد فى هذه المراجع كذلك [١٣] من أن الملك مرقوريوس سلك مسلكا جديدًا نال عليه ثناء الكنيسة المصرية واستحق من أجله لقب قسطنطين الجديد. وربما كان هذاالمسلك الجديد هو تحوله إلى المذهب المونوفيزى وتحويله معبد تافه فى نوباديا إلى كنيسة سنة ٧١٠ [١٤]. وبهذا يكون مرقوريوس جمع بين حكم المملكتين بعد إخضاع المملكة الشمالية وتوحيدهما دينيا وسياسيًا كذلك.

غير أن هذا الرأى لايمكن قبوله، لأنه لايتفق وما جاء فى عقد الصلح سنة ٦٥٢م[١٥] ثم إن اعتماد هذا الرأى على المراجع القبطية وحدها لايعد دليلا كافيًا على صحته، لعدم اتفاق رواياتها. إذ أن بعض هذه المصادر القبطية تقول إن النزاع كان بين ملك مقرة وملك الحبشة[١٦]. ومع التسليم بصحة ما جاء بشأن ملك موريتانيا. فالمعروف أن موريتانيا هى ليبيا وأن الأساقفة كانوا يستخدمون

الطريق الليبى ـ لا طريق النيل ـ فى سفرهم من الإسكندرية إلى دنقلة (١٧). ثم تحول مرقوريوس إلى المذهب المونوفيزى وتوحيد المملكتين دينيا، لايعنى أن المملكتين لم تتحدا سياسيًا من قبل. والراجح أن الوحدة السياسيه تمت قبل الوحدة الدينية فى وقت سابق لحملة عبدالله بن سعد على بلاد النوبة سنة ٦٥٢م، أو فى وقت معاصر لها على الأقل، فإن حاجة الدفاع عن البلاد والوقوف فى وجه الغزو الإسلامى فرضا هذه الوحدة السياسية (١٨)، على أن تحتفظ كل من الدولتين بسيادتها على أراضيها واستقلالها الداخلى. ولابد أن هذا كان أشبه باتحاد فيدرالى أو تعاهدى، احتفظ فيه ملك المملكة الشمالية بسلطاته على أن يكون بمثابة نائب ملك ـ كما سيجىء تفصيله بعد ـ ولعل تحول ملك مقرة إلى المذهب المونوفيزى تضمن تأييدًا وتأكيدًا لهذ الوحدة السياسية التى سبقته.

أطلق الكتاب العرب على هذه الأقاليم جميعًا اسم النوبة. ويتفق فى هذا كل من اليعقوبى (٨٩٤م) والمسعودى (٩٣٥م) بيد أن اليعقوبى جعل الحد الشمالى لمقره عند بلدة اسمها ماوا (١٩). على حين جعل المسعودى الحد الشمالى لمقرة عند أسوان . ومعنى هذا أن المملكة الشمالية «نوباديا ومقرة» عرفت باسم مقرة وعرفت الأخرى باسم علوة (٢٠) ، وأن الجزء الشمالى من مقرة والمتاخم لمصر عرف باسم مريس دون تعيين حدود سياسية واضحة لهذه الممالك. ويضيف المسعودى أن المملكتين مقرة وعلوة كانتا تحت حكم ملك واحد اسمه كبرى بن سرور، غير أن هذا الاتحاد لم يسمع عنه،وهو ـ إن صح ـ لم يدم طويلا ويشير المسعودى إلى وجود عاصمتين هما دنقلة عاصمة مقرة، وسوبا عاصمة علوة. يتفق عبدالله بن أحمد بن سُلَيْم الأسوانى(٢١) (٩٦٩م) مع كل من اليعقوبى والمسعودى، ولكنه يضيف كثيرًا من المعلومات الجغرافية والتاريخية لهاتين المملكتين، فذكر الأسوانى أن الحد الشمالى لمريس(٢٢) يقع عند مدينة القصر، بينها وبين أسوان خمسة أميال، وبينها وبين جزيرة بلاق (فيلة) ميل واحد، وإلى بلاق تنتهى مراكب النوبة. أما الحد الجنوبى لمريس فيقع عند المقس الأعلى(٢٣) ، بينها وبين الشلال الأول(٢٤) ست مراحل، والعاصمة نجراش. ويتفق هذا التحديد مع ما ذكره أبو صالح الأرمنى (١٢٠٠م). ويرى دى فيار أن هذا الحد يقع عند

قرية عكاشة جنوبى الشلال الثانى[٢٥] . وتبدأ مقرة بأقاليم ثلاثة هى: سقلودا وبقون وصفد بقل[٢٦] وهى جميعًا شمال مقرة، وتمتد جنوبًا بعد انثناءة النيل الكبرى بحيث تشمل إقليم شنقير[٢٧]. وتنتهى جنوبًا عند حد الأبواب (كبوشة الحالية) حيث تبدأ مملكة علوة. ويذكر مفضل بن أبى الفضائل أن مريس تنقسم إلى قسمين: بلاد العلى وتنتهى عند مهندى (جنوبى المحرقة الحالية) وبلاد الجبل وتنتهى بنهاية حد مريس فى الجنوب [٢٨]. ويشير ابن سليم إلى صعوبة الانتقال بين جميع تلك الأقاليم بسبب وجود الجنادل التى تعترض سير النهر فى كثير من المواضع [٢٩].

اتفقت كتابات المؤلفين العرب على أن حد علوة من ناحية الشمال يبدأ عند منطقة تعرف بالأبواب[٣٠]. غير أن أحدًا من الكتاب العرب أوغيرهم لم يعط صورة واضحة لمدى اتساع هذه المملكة أو يعين لبقية جهاتها حدودًا جغرافية واضحة. فيكتفى ابن سليم بقوله: «إن مملكة علوة أوسع وأخصب من مملكة مقرة[٣١]». ولم يكن ابن سليم فى تحديده لعلوة دقيقًا كذلك. إذ يشير إلى الحد الشرقى لعلوة مثلا بقوله «وعليه أى النيل الأزرق جنس مولد من العلوة والبجه يقال لهم الديجيون وجنس يقال لهم بازة.... وبعد هؤلاء أول بلاد الحبشة [٣٢]». ومعنى هذا ـ فى قوله ـ إن مملكة علوة تمتد شرقًا فى اتجاه النيل الأزرق إلى حدود الحبشة. وقدر ابن حوقل[٣٣] طول علوة بقرابة شهر وعرضها من النيل مشرقًا بثمانى مراحل (قرابة ٦٦ميلا)، على حين أن ياقوت قدر المسافة من عاصمة مقرة إلى حدود علوة بثلاثة أشهر وقال: إن إلى الجنوب من علوة توجد أمة أخرى من السودان تدعى تُكْنَة[٣٥] . والخلاصة أن هذه الأقوال فى جملتها غير دقيقة ولاتوضح إلى أى الجهات امتد نفوذ ملوك علوة المسيحيين. غير أن ما جاء فى مخطوط تاريخ قلاوون[٣٦] قد يوضح ولو قليلا الأقاليم التى تتألف منها مملكة علوة. ومن هذه الأقاليم بارة ـ التاكة ـ كدروا ـ دنفوا ـ آرى ـ بفال ـ الأنج ـ كرسه. ومهما يكن من أمر، فإن هذه الأقاليم على كثرتها لا تعطى لنا صورة واضحة تمامًا عن مدى اتساع مملكة علوة. ولعل الأبحاث الأثرية التى تمت فى منطقة النيل الأوسط حيث قامت مملكة علوة المسيحية، يمكن أن تعطى صورة

أدق لحدود هذه المملكة . ذلك أنه عثر على بقايا كنائس فى مناطق مختلفة على النيل الأبيض عند بلدة القطينة وقوز رجب على نهرأتبرا، وجبل سجدى بأرض الجزيرة وقرب خزان مكوار على النيل الأزرق. وربما امتدت حدود علوة إلى أبعد من هذه المراكز شرقًا وغربًا وجنوبًا بحيث شمل نفوذ ملك علوة جهات لم تبن فيها كنائس، إما لعدم اهتمامهم ببنائها لضعف عقيدتهم وإما لأن آثار هذه المناطق زالت بفعل عوامل التعرية. وعلى كل حال فالراجح أن مملكة علوة امتدت من الأبواب (كبوشية) شمالا إلى القطينة على النيل الأبيض جنوبًا وشملت جهات الأتبرا والنيل الأزرق حتى حدود الحبشة شرقًا وبعض جهات دارفور وكردفان غربًا [٢٧].

***

أما عن التنظيمات السياسية فى ممالك النوبة المسيحية، فالمصادر لا تعطى سوى صورة ضئيلة باهتة لماكان عليه حكم هذه الممالك فى تاريخها الطويل. غير أن هذه المصادر على قلتها وغموض بعضها لا تخلو من فائدة فى التعريف بألقاب الملوك وسلطاتهم ونظام وراثة العرش، والتعريف بحكام الولايات وألقابهم وسلطاتهم، ولنبدأ هنا بدراسة نظم الحكم فى مملكة مقرة ثم ننتقل بعد ذلك إلى دراستها فى مملكة علوة.

يعد نقش سلكو المكتوب باللغة اليونانية على جدران معبد كلابشة أول مصدر سجل عليه اللقب الذى اتخذه سلكو لنفسه[٢٨] وهو Basilikos أى ملك صغير. وهذا اللقب يتفق وما ادعاه سلكو لنفسه من سلطة على النوباديين وجميع الأثيوبيين. وربما يرجع هذا التخبط فى اختيار اللقب الفعلى للملك إلى الجهل باللغة اليونانية الدخيلة عليهم[٢٩].

أما نقش دندور سنة ٥٥٩م فيشير إلى تطور الألقاب الملكية فى نوباديا، إذ يتخذ إربانم Ergamenes لنفسه لقب ملك، وهو لقب يفوق فى المرتبة لقب Basilikos. ويوضح هذا النقش حقيقة أخرى، وهى أنه يوجد إلى جوار الملك عدد من الموظفين ، وأعظم هؤلاء الموظفين خطرًا هو الذى يحمل لقب هيزارك hezarch

أو إيبارك eparch، وهو يعادل لقب (Dux) فى الألقاب البيزنطية، ومعناه هنا نائب الملك أو مندوب الملك (٤٠). وكان هذا الموظف الكبير ينوب عن الإمبراطور البيزنطى فى حكم نوباديا بالاشتراك مع إريانم، واتخذ هذا المندوب الإمبراطورى بلدة تالمس مقرًا له (٤١). وفى ذلك دليل على اشتراك البيزنطيين مع الملك سلو فى طرد البليميين من نوباديا إلى الصحراء الشرقية (٤٢).

ومن الألقاب الأخرى التى ورد ذكرها مسبوقة بأسماء حامليها من الموظفين الملكيين neciorp اى خص أو أغا، Cipus Repitapio ومعناها البريدى أو حامل الرسائل، Cauata ومعناها حامل التاج الملكى أو كبير الحرس الملكى، و Cauata ومعناها أمين الأختام. وليس لدينا ما يوضح طبيعة العمل الذى مارسهQop oc أولئك الموظفون سوى ألقابهم التى يحملونها ، وهى ألقاب بيزنطية استعارها النوباديون وأطلقوها على موظفين فى بلادهم (٤٣).

وعرفت نوباديا ومقرة بعد اتحادهما باسم النوبة، كما عرف ملك المملكتين باسم عظيم النوبة وعاصمته دنقلة(٤٤) غير أن نقش تافه الخاص بالملك مرقوريس والمكتوب سنة ٧١٠ م يدل على أن هذا الحاكم يحمل لقب «ملك» ويشمل نفوذه جميع أجزاء مملكة النوبة المتحدة - نوباديا ومقرة. وإلى جانبه حاكم يحمل لقب نائب ملك eparch (٤٥)، ويباشر سلطاته فى نوباديا (مريس) وجاء فى سيرة البطريرك ميخائيل (٧٤٤ - ٧٦٨م) التى جمعها ساويرس أسقف الأشمونين أن الملك قيرياقص Cyriacus (٧٥٠م) يسيطر على ثلاثة عشر ملكًا (٤٦). ولهذا أطلق عليه لقب «الملك الكبير» (٤٧) أو ملك الملوك(٤٨) وعرف باسم ملك النوبة (٤٩) أو كابيل ملك مقرى ونوبة (٥٠) وعرف أحيانا باسم كاسل(٥١).

واتخذ ملوك النوبة عادة شارات للملك منها: السرير ويصنع فى الغالب من خشب الأبنوس، والتاج وهو مرصع بالأحجار الكريمة يعلوه صليب ذهب (٥٣)، ثم المظلة ترفع على رأس الملك فى المواكب (٥٣).

وتمتع ملوك النوبة بسلطان مطلق على رعاياهم، فالملوك يملكون الأرض ومن عليها ، ورعاياهم عبيد لهم، لاحق لهم فى امتلاك الأرض أو التصرف فيها ببيع أو شراء(٥٤).

ولا خلاف بين الروايات التاريخية على أن نظام وراثة العرش النوبى كان يسير على نظام الأمومة[٥٥] . ومن الدلائل على هذا قول أبى صالح «إن عادتهم جارية بأنه إذا مات ملك وخلف ولدًا وكان له ابن اخت فيملك بعد خاله دون ولد الملك، وإن لم يكن له ابن أخت يملك ولده بعده بلاد النوبة» [٥٦] ، وسواء تمسك النوبيون بهذا النظام أو خالفوا بعض قواعده، فالمعروف أن وراثة العرش لم تخل من وقوع اضطرابات لسبب أو لآخر، بدليل ما جاء فى سيرة الأنبا ميخائيل من أن الملك زكريا بن مرقوريوس الذى خلف أباه على عرش النوبة سنة ٧١٠ م آثر التفرغ للعبادة واختار لعرش النوبة أربعة ملوك تولوا الحكم واحدًا بعد الآخر آخرهم قرياقوص، ولم تخل هذه العملية من حوادث قتل واغتيال ذهب فيها أحد الملوك المتنافسين على العرش[٥٧]. وارتقى عرش النوبة ملوك لا تعرف صلتهم بهذه السلسلة حتى جاء الملك زكريا بن يوحنا [٥٨] (٨٢٢ م) الذى عهد بولاية العهد لابنه جورج[٥٩]. وتشير بعض المصادر السورية [٦٠] إلى زواج الملك زكريا هذا من بأميرة من بيت الملك لكى يضفى على نفسه صفة الصلة الملكية، وأنه ظل يباشر سلطاته نيابة عن ابنه القاصر حتى بلغ سن الرشد. ومن الجائز أن زكريا هذا أحد أفراد البيت الملكى بعلوة، وانتهز فرصة الاضطراب فى مملكة النوبة وضمها إليه، بدليل ما جاء فى بعض النصوص النوبية الخاصة بهذا الملك بأنه «نادى بنفسه ملكا» وهذه عبارة غريبة على البروتوكول الملكى النوبى. والراجح أن اتحاد المملكتين «مقرة وعلوة» ، كان مؤقتًا وتم بقوة السلاح [٦١] ويبدو أن هذه العملية تكررت أكثر من مرة بدليل ما جاء فى قول المسعودى وأبى صالح من أن مقرة وعلوة كانتا تحت حكم ملك واحد[٦٢]. ثم إن ثمة نزاعًا نشب داخل البيت الملكى النوبى على عهد جورج الأول. إذ ثار عليه ابن أخته وزوج ابنته نيوتى. بيد أن الملك جورج رصد له من يقتله [٦٣]. فطالب ابن نيوتى بالعرش وبدأ صراع عنيف بينه وبين ابن الملك جورج.

الخلاصة أن ملوك النوبة توارثوا عرش آبائهم مخالفين فى هذا المبدأ الوراثى القديم الذى قام على أساسه المجتمع النوبى، على أن مخالفتهم لهذه القاعدة لم تدم طويلا. ومنذ القرن الحادى عشر الميلادى أمست عملية انتقال الملك إلى ابن

الأخت هى الظاهرة التى سادت التاريخ الملكى النوبى. ويذكر أبو صالح أن أحد ملوك النوبة ويدعى سلمون تنازل عن العرش لابن أخته زهدًا فى الدنيا ورغبة منه فى التفرغ للعبادة فى إحدى الكنائس المصرية (٦٤). الراجح أن النوبيين تمسكوا بمبدأ توريث ابن الاخت أو ابن البنت. وثبت مبدأ الوراثة على هذا النحو وأضحى ركنا من أركان سياستهم التى ساروا عليها فيما بعد. غير أن هذا النظام لم يؤد إلى استقرار علاقة المتملكين وأولياء عهودهم من البيت الملكى النوبى، بل خلق مشاكل لم يكن من الهين عليهم حلها لصالح مملكتهم، فظهر الانقسام والتخاصم بينهم، مما أدى فيما بعد إلى سقوط المملكة المسيحية فى الشمال.

وجرى حكم الأقاليم على ما تقدمت الإشارة إليه من تعيين ثلاثة عشر حاكمًا إقليميًا أطلق عليهم جميعا لقب الملوك الخاضعين للملك الكبير بدنقلة (٦٥).

وناب أولئك الحكام - الملوك) عن الملك الكبير فى حكم الأقاليم، وكان عليهم إقامة الطقوس الدينية مثلما يفعل الملك الكبير تماما، حتى وصفهم أبو صالح بأنهم «جميعهم كهنة(٦٦)». أما طبيعة وظائفهم الإدارية فلم يصلنا عنها شىء لعدم تعرض المؤرخين العرب أو غيرهم لهذا الموضوع، ومما لا شك فيه أن حاكم مريس، كان أعظم هؤلاء الملوك وأكثرهم خطرًا، وسماه المؤلفون العرب باسم صاحب الجبل(٦٧). واتخذ مدينة نجراش(٦٨) (فرس) عاصمة له. واتخذ هذا الملك فى إقليمه إشارات خاصة وهى العمامة ذات القرنين والسوار الذهبى(٦٩). وعثر على صورتين تمثل صاحب الجبل فى زيه وشاراته: الأولى فى كنيسة عبدالقادر والثانية فى فرس. وتمثل الصورة الأولى صاحب الجبل لابسًا على رأسه عمامة يبرز منها قرنان، والعمامة مزينة فى واجهتها الأمامية بمثلثين متعاشقين،، وهما رمز سليمان وفوقهما هلال صغير، وتمثل الصورة الأخرى صاحب الجبل لابسًا سوارًا فى كلا ذراعيه لا تختلف كثيرًا عن الأولى، ماعدا بعض زخارف على شكل قلب(٧٠).

وتمتع صاحب الجبل فى إقليم مريس بسلطة لا تقل عن سلطة الملك الكبير، فكان عليه الدفاع عن حدود المملكة النوبية فى الشمال ضد أى غزو خارجى، وعدم السماح لأحد بالدخول إلى ما وراء الشلال الثانى مهما كان مركزه إلا بإذنه(٧١) ولهذا أقيمت مراكز عسكرية لمراقبة المرور ومنع تسرب أخبار البلاد

إلى الخارج وربما كان هذا الاحتياط الشديد لمنع تسرب العرب إلى ما وراء أطراف مريس جنوبًا (٧٢).

لم يقتصر مقام صاحب الجبل على مدينة فرس وحدها، بل كان مضطرًا لأسباب حربية أو إدارية أن يتنقل من مدينة لأخرى. وذكر أبو صالح عدة مدن جرت عادة صاحب الجبل أن ينتقل بينها وهى: إبريم(٧٣)، ونجراس(٧٤) وبوسقا(٧٥) والدو(٧٦) وجزر ميخائيل(٧٧).

وإلى جانب الحكام الإقليميين فى مملكة النوبة كانت هناك طبقة أخرى من صغار الموظفين يحملون ألقابًا بيزنطية. ومن بين هؤلاء الموظفين من كان فى خدمة الملك مباشرة، ومنهم من كان فى خدمة صاحب الجبل. غير أن معظم ألقاب هؤلاء الموظفين غير واضحة ومنها: خادم الملك أو أمين خاص الملك Domestico وأمين أول القصر الملكى Protodomesticos وهي وظيفة كبيرة كان يشغل صاحبها إما منصب حاكم، أو أن يقوم بعمل القاضى أو يباشر بعض الشئون المالية. هذا فضلا عن حكام المدن، كحاكم مدينة درمس(٧٨) الذى أشار إليه أبو صالح. ولابد أنه كان فى بلاد مريس موظف لمراجعة أوزان العملة حيث كانت العملة متداولة بدليل ما جاء فى وثيقة عثر عليها فى مهندى «تسلمت ثمن أربع عملات طيبة ووزنها صحيح»، وأخرى فى المدينة نفسها تدل على وجود موظف للإشراف على إصلاح المنازل. ومهما يكن من أمر فإن العدد الكبير من ألقاب الموظفين لم يعرف لها نظير، وتدل على مدى التعقيد فى الإدارة النوبية(٧٩).

أما عن التنظيمات السياسية فى مملكة علوة فإن المراجع لا تذكر عنها شيئًا يستحق الاهتمام. ويغلب على الظن أن نظمها السياسية تشبه - إلى حد بعيد - نظم الحكم فى مملكة النوبة (مقرة)، فكبيرها عرف باسم «ملك علوة» وعاصمته سوبة (٨٠)، التى أطلقت عليها بعض المراجع المتأخرة اسم كوسة (٨١). واتبع ملوك علوة نظام الأمومة فى وراثة العرش(٨٢). والراجح أن ملوك علوة تمتعوا بسلطة مطلقة على رعاياهم مثل ملوك مقرة. فالملك هو صاحب الأرض والشعب كله عبيده لايخالفون له أمرًا ولايعصونه بدليل قول ابن سليم: «وملكهم يسترق من شاء من رعيته بجرم وبغير جرم ولاينكرون ذلك عليه، بل يسجدون له ولايعصون أمره على المكروه الواقع بهم وينادون الملك يعيش فليكن أمره(٨٣) » ولانعرف من شارات ملكه سوى التاج.

لامحل للخلاف فى أن الطابع العام لحكومة الأقاليم فى مملكة علوة يشبه ما كان معمولا به فى دولة مقرة. إذ انقسمت المملكة إلى ولايات عرفت كل واحدة منها بالمملكة وعلى رأس كل منها ملك (٨٤). وكان ملك إقليم الأبواب الواقع فى شمال المملكة (منطقة كبوشية الحالية)، أعظم أولئك الملوك الإقليميين قدرًا وأعلاهم مقامًا.

* * *

وفيما يتعلق بالمجتمع النوبى المسيحى فقد اتفقت جميع الروايات التاريخية على أنه كان يتألف من طبقتين: الأولى وهى الطبقة الحاكمة، وتشمل الأسرة المالكة وعلى رأسها الملك الكبير سواء فى دنقلة أو فى سوبا، هذا فضلا عن حكام الأقاليم (الملوك). والطبقة الثانية هى طبقة العبيد، وهم عامة الشعب النوبى. وبين هاتين الطبقتين قامت فئة الموظفين، وقد تولى أفراد هذه الفئة مختلف الوظائف الملكية فى العاصمة والأقاليم، ولابد أن عددهم كان محدودًا. ومن الواضح أن الطبقة الحاكمة الشاملة للأسرة المالكة وفروعها هى وحدها التى مارست حقوقًا سياسية ودينية (٨٥).

ويزعم بعض الكتّاب ومنهم يوحنا النقيوسى والمسعودى وابن سليم والمهلبى أن ملوك النوبة يرجعون إلى أصل حميرى (٨٦). ويبدو أن المجتمع النوبى يشكل نوعًا من الإقطاع غريبًا فى تركيبه، ولم يعرف له نظير فى الإقطاع الأوروبى أوغيره. فالملك هو صاحب الأرض، ولابد أن طبقة الحكام فى الأقاليم كان لهم نفس هذا الحق. أما الشعب فلا أملاك له، وهم عبيد الملك، يعملون فى الأرض لصالح سادتهم (٨٧)، يباعون ويشترون ويهدى بهم ويقومون مقام العملة. ويوضح ذلك أن العملة لم تعرف ببلاد النوبة إلا فى منطقة مريس، أما ما وراءها جنوبًا، فالرقيق يقوم مقام العملة فى البيع والشراء. فيقول ابن سليم الأسوانى «ومن يخرج إلى بلد النوبة من المسلمين فمعاملته معه فى تجارة أو هدية إليه (صاحب الجبل) أو إلى مولاه، يقبل الجميع ويكافئ عليه بالرقيق»، ثم يضيف «ولايجوزها دينار ولا درهم، إذ كانوا يتبايعون بذلك إلا دون الجنادل مع المسلمين، وما فوق ذلك لابيع بينهم ولاشراء، إنما هى معاوضة بالرقيق والمواشى والحبال والحبوب»(٨٨).

* * *

وفيما يتعلق بالتنظيمات الكنسية تشير جميع كتابات المؤرخين العرب والمصادر القبطية كذلك إلى أن بلاد النوبة اتجهت فى زعامتها الروحية إلى الكنيسة المصرية[٨٩]. ويقصد بالنوبة هنا جميع بلاد مريس ومقرة وعلوة، بدليل أن المقاطعات الكنسية التى أوردها فانسليب Vansleb [٩٠] فى قائمته تشتمل على مقرة وعلوة وهاتان المقاطعتان الكنسيتان تشتملان على ثلاث عشرة أسقفية تابعة للكنيسة المصرية ومن هذه الأسقفيات. سبع فى مريس وهى كورته وإبريم وفرس ودنقلة وساى وتالمس (كلابشة) وشنقير[٩١]. وأسقفيات علوة هى: بورا وجاجورا ومارتن وأروديَاس وبنازى ومنكيزا [٩٢].

غير أن الكنيسة الملكانية لم تتخل عن حقوقها الدينية القديمة فى بلاد النوبة، وجاءت قوائم أقاليمها الكنسية متضمنة وجود أسقفية مريس ومطرانية نوبة [٩٣]. لكن إذا جاز للكنيسة الملكانية أن تدعى نفوذًا دينيًا فى بلاد النوبة فهذا النفوذ لم يشمل مريس (نوباديا)، بل اقتصر على مقرة ولمدة لم تتعد أوائل القرن الثامن الميلادى[٩٤]، بسبب تحول أهلها إلى مذهب الكنيسة المصرية. وبهذا أصبح لبلاد النوبة كلها «مريس ـ مقرة ـ علوة» كنيسة موحدة على رأسها مطران يعينه بطريرك الكنيسة المرقسية ويتولى المطران رسامة أساقفة وقساوسة البلاد جميعًا[٩٥].

والراجح أن أساقفة الكنيسة فى بلاد النوبة كانوا يرسلون من مصر، فيقول أبو صالح: «ملك النوبة له النوبة وأعمالها وأرض علوة والمقرة والأجناس المضافة إليها... وهى كرسى مارى مرقس الإنجيلى ومنه يقسم لهم» [٩٦]. ويذكر أبو صالح أنه استمر العمل بهذ التقليد حتى أبطله الحاكم بأمر الله الفاطمى على عهد البطريرك زكريا (١٠٠٠ ـ ١٠٣٩م) [٩٧].

وشملت وظائف الإكليروس النوبى القسوس والشمامسة والمرتلين[٩٨]. وقد تقدمت الإشارة إلى ممارسة حكام الأقاليم (الملوك) وظائف كهنوتية علاوة على أعمالهم الإدارية . فكان من حقهم إقامة الطقوس الدينية داخل الهيكل ، ويحرمون من ممارسة هذا الحق إذا ارتكبوا جريمة القتل[٩٩]. وقد يشغل القسيس أو الشماس منصبًا إداريًا آخر إلى جانب وظيفته الدينية كموثق عقود أو أمين مخازن[١٠٠].

ويرأس الرهبان فى الأديرة النوبية أرشمندريت «رئيس رهبان». وورد فى بعض النصوص أن الأسقف كان يتولى أحيانًا منصب أرشمندريت (١٠١).

* * *

ويتضح من قول أبى صالح أن الطقوس الدينية بالكنائس كانت تؤدى باللغة اليونانية (١٠٢)، غير أنه فى خلال القرن الثامن الميلادى أخذ النوبيون يترجمون الطقوس الدينية عن اليونانية إلى النوبية (١٠٣). ويقول جريفث إن أول نص كتب باللغة النوبية يرجع إلى سنة ٧٩٥م(١٠٤). غير أنها لم تصبح لغة مدونة إلا منذ أواخر القرن العاشر الميلادى على الأقل(١٠٥).

ودخل اللغة النوبية عدد من الكلمات اليونانية والقبطية (١٠٦) ، وكتبت بحروف يونانية ذات طابع قبطى، فضلا عن استعمال كثير من الحروف القبطية (١٠٧). وباستثناء بعض النقوش والكتابات المبعثرة هنا وهناك، فإنه لم يعثر إلا على سبعة مخطوطات باللغة النوبية تحمل الطابع الدينى ماخلا واحدًا منها(١٠٨). وهذه المخطوطات وإن كانت عديمة القيمة من الناحية التاريخية فهى تلقى ضوءًا على طبيعة الأدب المسيحى فى اللغة النوبية (١٠٩)، وأهمها المخطوط الذى كتبه الملك سلمون وأشار إليه أبو صالح(١١٠). ويوضح هذا المخطوط ما كان يتمتع به هذا الملك النوبى من علم ومعرفة. وتشتمل بعض هذه المخطوطات على ترجمة فقرات من الإنجيل وترانيم عن صلب السيد المسيح ومناقبه إلى اللغة النوبية (١١١). ويحتوى بعضها الآخر على أعمال تشبه المعجزات قام بها الأسقف مينا، كما يحتوى على صورة تمثل هذا الأسقف، ممتطيًا صهوة جواد وبيده رمح (١١٢) ، وعلى الرغم من أن اللغة النوبية حلت محل اليونانية فى الصلاة إلا أن اليونانية ظلت تستعمل فى كتابة شواهد القبور حتى عهد متأخر يرجع إلى القرن الثامن عشر الميلادى، على حين أنه لم يعثر على شاهد قبر واحد باللغة النوبية (١١٣).

ومما لاشك فيه أن اللغة القبطية كان لها نفوذ واسع فى بلاد النوبة. فهى علاوة على أنها كانت لغة الوثائق الرسمية حتى القرن العاشر الميلادى على الأقل(١١٤)، نجدها قد استخدمت فى أغراض دينية كذلك. وكثير من شواهد

القبور التى عثر عليها مكتوب باللغة القبطية. وأحيانًا تسود اللغة القبطية على اليونانية فى كتابة شواهد القبور فى بعض جهات النوبة. ويرجع ذلك فى الغالب إلى هجرة جماعات من الأقباط واستقرارهم فى جهات النوبة المختلفة (١١٥). ويبدو ذلك واضحًا فى منطقة دير الغزال قرب مروى(١١٦).

غير أن معلوماتنا عن لغة أهل علوة قليلة جدًا لضياع معظم آثارها. ويبدو مما ذكره ابن سليم أن أهل علوة ترجموا الطقوس الدينية إلى اللغة النوبية (١١٧). بيد أن الدمشقى يقول إنهم يقرأون الإنجيل بلغة الروم(١١٨). ومهما يكن من أمر فإنه لم يصلنا من مخلفات علوة اللغوية سوى شاهدى قبر عثر عليهما فى سوبا، يرجع أحدهما إلى سنة ٨٩٧م. وبفحص نقوشه وضح بما لايدع مجالا للشك أنها لغة نوبية مكتوبة بحروف ذات طابع متميز عن حروف اللغة النوبية فى المملكة الشمالية. ويقول جريفث ليس فيها أى أثر للغة اليونانية أو الحروف القبطية(١١٩). غير أن لبسيوس ـ اعتمادًا على مخطوط بمتحف برلين يشتمل على أنواع الكتابة المستعملة عند الشعوب التى تتكلم اللغات الحامية ـ يرى أن الكتابة التى يستعملها أهل علوة تعرف باسم كيليكيا (١٢٠). كما يرى لبسيوس أن الكتابة التى أمكن العثور على نموذجين منها بالمتحف البريطانى تشبه الكتابة القبطية باستثناء بعض الزيادات التى دخلت عليها (١٢١). ويوافقه شنى على هذا، ويضيف أن الكتابات التى عثر عليها فى سوبا لاتحمل سوى دعاء لله أو اسم صاحبها(١٢٢). والخلاصة أن لغة علوة تختلف فى طبيعتها وفى نوع كتابتها عن اللغة النوبية فى مملكة مقرة (١٢٣).

وإذا كانت رغبة أهل مقرة فى الاستقلال بنوع خاص من الكتابة، هى التى دفعتهم إلى ترجمة الطقوس الدينية إلى لغة نوبية عامية كتبوها فيما بعد، فمن الصعب تفسير تمسكهم باللغة القبطية واليونانية دون النوبية فى كتابة شواهد القبور(١٢٤). ومن الطبيعى أن هذه القبريات سواء اليونانية أو القبطية لم تخل من أخطاء لغوية إملائية فضلا عن أنها لاتعبر عن شىء سوى ذكر اسم المتوفى وعمره وتاريخ وفاته وطلب المغفرة له من الله. وقد تشير هذه القبريات إلى منصبه الكنسى، لكنها لاتذكر شيئًا عن تاريخ حياته أو نسبه (١٢٥).

أما عن علاقة الكنيسة النوبية بالكنيسة المصرية، فلا شك أنها كانت طيبة. وفضلا عن إرسال الأساقفة المصريين إلى بلاد النوبة فإن ثمة علاقة نشأت بين ملوك النوبة المسيحيين وبطارك الكنيسة المرقسية. ولعل مصدر هذه العلاقة هو ما اجتمع لملوك النوبة من سلطة سياسية ودينية معًا. وهذه السلطة الدينية جعلت منهم ممثلين للكنيسة النوبية. واختلفت طبيعة هذه العلاقات من حين إلى آخر تبعًا لما تقتضيه مصالح الطرفين. مثال ذلك أن البطريرك إسحق تدخل قرابة سنة ٦٩٠ م لفض نزاع نشب بين ملك النوبة وملك الحبشة، غير أن وساطته لم يقدر لها النجاح لخوفه من بطش عبدالعزيز بن مروان والى مصر إذ ذاك [١٢٦]. ومثال آخر أن خلافًا نشب بين الملك زكريا ملك النوبة والأسقف قيرياقوص، وطلب الملك عزله، ولما لم يسفر التحقيق عن إدانة الأسقف. طلب البطريق إلى الأسقف أن يقيم فى إحدى الأديار، وعين من يقوم بعمله [١٢٧].

وتتحدث المصادر القبطية عن حملة قام بها قيرياقوص ملك النوبة سنة ٧٥٠م على مصر لإرغام واليها على إطلاق سراح البطريق ميخائيل[١٢٨]. وتفسير هذه الحملة من وجهة النظر النوبية - إن صحت[١٢٩] - أن البطريرك بات متمتعًا بحماية ملوك النوبة. لكن يبدو أن الملك النوبى انتهز فرصة ثورات الأقباط فى إقليم الحوف بسبب نزع الصور المقدسة من الكنائس، وفداحة الضرائب، وقام بحملته على مصر.

ولما توترت العلاقات بين زكريا بن يحنس (يوحنا) ملك النوبة ووالى مصر بسبب امتناع زكريا عن تنفيذ التزاماته للخليفة، تدخل البطريرك يوساب لحسم هذا الخلاف ونصح زكريا بتنفيذ شروط العقد بين ولاة مصر وملوك النوبة. واستجاب الملك النوبى لهذه النصيحة وبعث بابنه جورج إلى بلاط الخليفة المعتصم ببغداد. وفى طريق عودته كرزله البطريرك مذبحًا نصب فى القصر الذى نزل فيه بالجيزة، وأقيم عليه القداس وسمع الوالى بدق الناقوس من سطح القصر[١٣٠].

وجاء فى سيرة الأنبا فيلوتاوس (٩٧٠ - ٩٩٥م) أن الملك جورج ملك النوبة توسط لدى البطريرك لإعادة العلاقات الدينية بين الكنيسة المصرية والحبشة بعد انقطاعها مدة. وقبل البطريرك رجاء الملك النوبى(١٣١).

وجاء فى تاريخ بطاركة الإسكندرية لمؤلفه رينودو ما يشير إلى تجدد الاعتداء على البطريق. ذلك أن اليازورى قبض على البطريرك كرستودولس وزج به فى السجن وصودرت أمواله بسبب ما ترامى إليه أن البطريرك يحرض ملك النوبة على عدم دفع التزاماته للخليفة، ونال الأقباط اضطهاد شديد. ولما وصلت أنباء هذه الحوادث إلى ملك النوبة أرسل معونة مالية للبطريق ليستعين بها على تفريج أزمته (١٣٢). وثمة تهمة أخرى وجهت إلى البطريق كرستودوليس فى وزارة بدر الجمالى، ومجمل هذه التهمة أن البطريق أرسل الأسقف فيتورى إلى بلاد النوبة وكلفه بهدم المساجد الموجودة بها، ولكن أظهر التحقيق الذى أجرى ببلاد النوبة كذب هذه التهمة وحكم على صاحبها بالإعدام (١٣٣). ولايبعد أن يكون ملك النوبة تدخل لحسم هذا الخلاف لتمتعه بمكانة طيبة فى البلاط الفاطمى فى عهد المستنصر فجاء التحقيق فى صالح البطريرك.

غير أن تأثير الكنيسة النوبية فى حياة الناس لم يكن - فيما يبدو - قويًا، بل ظل المجتمع النوبى يعيش فى مثل ما عاش قبل دخول المسيحية. وربما كان بعض السبب فى هذا أن الطقوس الدينية تؤدى بلغة أجنبية، فلم تختلط العقيدة الجديدة بقلوب الناس، وأخذت هذه الطقوس مظهرًا تقليديًا رسميًا. فانحطت الروح الدينية ولم تظهر حركة إصلاح دينى، بل اكتفى النوبيون بترجمة الطقوس إلى اللغة النوبية التى لم تتخل عن بعض المعتقدات الوثنية القديمة (١٣٤).

ولم تنجب الكنيسة النوبية علماء متخصصين فى اللاهوت أو الفلسفة الدينية، أو رجال دين ذوى مثل مستمدة من تجارب القديسين والشهداء - مثلما كان الحال فى الكنيسة المصرية (١٣٥). ولهذا ظل الجهاز الكنسى بيد رجال مصريين مبعوثين من الكنيسة المصرية. واقتصر العنصر الوطنى على تقلد الوظائف الدينية القليلة

الخطر. وتحدد مستقبل الكنيسة النوبية بنوع العلاقات بين الكنيستين. غير أن هذه العلاقات لم تلبث أن خضعت لعوامل سياسية، فتأثر مركز الكنيسة النوبية تبعًا لهذا التدخل من جانب السلطات الحاكمة فى مصر. إذ منع الحاكم بأمر الله إرسال خطابات بطريرك الكنيسة المرقسية السنوية إلى كل من الحبشة والنوبة. وتبع هذا توقف إرسال الأساقفة مدة من الزمن، حتى إذا جاء العهد المملوكى وتعرضت الكنيسة المصرية لنوع من الضغط من جانب بعض سلاطين المماليك، فقدت بهذا نفوذها القديم فى بلاد النوبة. ومن الواضح كذلك أن اعتناق النوبيين للمسيحية كان صوريًا، واقتصر أثرها حيث توجد المدن والقرى الكبيرة. وظلت الغالبية العظمى من النوبيين يمارسون عاداتهم الوثنية القديمة[١٣٦]. بدليل ما لاحظه ابن سليم من أن بعض سكان النوبة يعرفون الله ولكنهم يشركون معه بعض مظاهر الطبيعة كالنجوم والكواكب والأشجار ويعتقدون فى السحر[١٣٧] . ويؤيد هذا وجود بعض التقاليد الموروثة عن العهد الوثنى. ومنها توريث ابن الأخت أو البنت، والطاقية أم قرنين كرمز للسلطة، ولبس السوار الذهبى ، والختان الفرعونى، وبعض الشعائر الخاصة بحفلات الزواج والختان. ولابد أن هذه العادات لعبت دورًا مهمًا فى حياة المجتمع المسيحى[١٣٨]. هذا فضلا عما بدا من عجز الكنيسة النوبية عن القضاء على تجارة الرقيق[١٣٩].

* * *

وفيما يتعلق بالاقتصاد النوبى، فمعلوماتنا عنه قليلة وتعتمد أساسًا على ما ورد فى كتب المؤرخين والجغرافيين العرب مثل ابن سليم الأسوانى وابن حوقل والإدريسى. ويبدو من كتابات هؤلاء أن الاقتصاد النوبى فى العهد المسيحى اعتمد على نوعين من الحرف هما الزراعة والتجارة. فضلا عن وجود الرعى فى مملكة علوة. ففى المملكة الشمالية (مقرة) تنحصر مواضع الخصب فى شريط ضيق يحاذى النيل، ويختلف ضيقا واتساعًا من مكان إلى آخر.

ففى جزئها الشمالى «مريس» ـ على حد قول ابن سليم ـ يضيق الوادى وتحفه الجبال من الجانبين، وتمتد القرى على حافة النهر. ويزرع النوبيون مساحات

محدودة على شكل مدرجات تتراوح مساحتها من فدان إلى ثلاثة أفدنة اعتمدوا فى ريها على الساقية. ونظرًا لضيق الرقعة الزراعية اضطر النوبيون إلى زراعتها مرتين فى السنة (١٤٠) . ويبدو أنهم عرفوا طريقة التسميد ليحافظوا على خصوبة التربة. واقتصرت زراعتهم على أنواع محدودة من الذرة وقليل من الشعير والسمسم واللوبيا، هذا فضلا عن انتشار أشجار النخيل فى المدرجات العليا.

والجزء الجنوبى من مريس حتى المقس الأعلى، أشد أجزائها فقرًا. إذ يمتد النيل بين حافتين جبليتين شديدتى الانحدار وصحراء قاحلة «وبرها مجاوب ضيقة وجبال شاهقة وطرقات ضيقة حتى لايمكن الراكب أن يصعد منها والراجل الضعيف يعجز عن سلوكها ورمال فى غربها وشرقها، وفى جزائرها نخل يسير وزرع حقير وأكثر أكلهم السمك(١٤١)».

وإلى الجنوب من ساى حتى دنقلة يختلف عرض الوادى من منطقة إلى أخرى ويعترض مجرى النهر عدد من الجزر العامرة. ويكثر شجر النخيل والمقل. وتظهر أحيانا بعض حدائق الكروم.

وإلى الجنوب من دنقلة حتى حدود علوة تزيد المسافة بينها وبين أسوان. ويبدو أن هذه المنطقة، أغنى جهات مقرة حيث يتسع الوادى قليلا فتكثر قطعان الماشية. وتتسع حقول القمح وحدائق الكروم وأشجار النخيل(١٤٢). فيقول ابن سليم: «ومسافة ما بين دنقلة إلى أول بلد علوة أكثر مما بينها وبين أسوان، وفى ذلك من القرى والضياع والجزائر والمواشى والنخل والشجر والمقل والزرع والكرم أضعاف ما فى الجانب الذى يلى أرض الإسلام...».

ومما لاشك فيه أن مملكة علوة أغنى وأوسع ثروة من ملكة مقرة، لاتساع واديها وخصوبة أراضيها التى تعتمد فى ريها على النيل أو مياه الأمطار الصيفية ويكثر فيها شجر النخيل ويزرع الذرة (١٤٣). «وسائر بقولهم من السلجم والبصل والفجل والقثاء والبطيخ» (١٤٤). وعلى الرغم من اتساع الرقعة الزراعية فى مملكة علوة إلا أن سكانها كانوا دون أهل مقرة فى المستوى الحضارى، فلم يستغلوا خصوبة أرضهم استغلالاً اقتصاديا، ولم يبذلوا جهدًا فى الإكثار من المحصول واتباع وسائل التسميد أو طرق الزراعة واعتمدوا على السحر(١٤٥).

والراجح أن الزراعة لم تكن من الوفرة والتنوع بحيث يمكن استغلال فائض منها فى أغراض تجارية. أما التجارة فيبدو أن دور النوبيين فيها كان دور الوسيط للحصول على عمولة أو رسوم حماية التجارة وطرق القوافل(١٤٦). ولم تعرف العملة الذهبية أو غيرها من أنواع العملات المعروفة آنذاك إلا فى منطقة مريس. أما إلى الجنوب منها فكان يتم التبادل عن طريق المقايضة بالرقيق والمواشى والحبال والحديد والحبوب (١٤٧). وتحدث بعض الكتّاب العرب عن نقط تنتهى عندها التجارة على طول النيل. وهى بمثابة محطات يتم عندها التبادل التجارى مثل مدينة بلاق (جزيرة فيلة) التى كانت تنتهى عندها مراكب النوبة شمالا. وبلدة تقوى عند الشلال الثانى حيث تنتهى عندها مراكب النوبة المصعدة من القصر(١٤٨). ويشير الإدريسى إلى ميناء نوبى آخر اسمه بلاق لانعرف مكانه تمامًا ويضعه بين ذراعى النيل وربما يقع قرب التقاء النيل بأتبرا. وفى هذا المكان يلتقى تجار النوبة ومصر والحبشة (١٤٩).

* * *

ولننتقل الآن إلى رسم صورة مبسطة لأهم مظاهر الحضارة النوبية فى العهد المسيحى، ولعل أهم آثارها المادية تلك الكنائس المبعثرة هنا وهناك من أسوان شمالا إلى جبل سجدى بالقرب من سنار جنوبًا. ويغلب عليها جميعا طابع عام مشترك، فهى من النوع المعروف باسم باسيلكا Basilika. والكنيسة النوبية بصفة عامة على شكل مستطيل توجد فيها ممرات فى الجهة الشمالية والجنوبية تفصلها عن صحن الكنيسة سلسلة من الأعمدة. وفى الطرف الشرقى من الكنيسة من الداخل يوجد الهيكل، ويقع المنبر عادة بالقرب من آخر عمود بالناحية الشرقية من الممر الشمالى(١٥٠). إلا أن كنيسة دنقلة ذات طابع مختلف. فهى مكونة من طابقين، ربما استخدم الطابق السفلى كمخزن لحفظ أدوات الكنيسة. ويتصل بالطابق العلوى بسلم حلزونى. ويرى كروفوت، أن طراز الطابق العلوى لهذه الكنيسة يشبه طراز كنيسة حبشية قرب عدوة، وحول هذا الطابق العلوى أخيرا إلى مسجد(١٥١).

ويرى سومرز كلارك أن فن البناء فى وادى النيل يختلف من مكان إلى آخر باختلاف المواد الطبيعية ودرجة كثافة السكان ومستواهم الحضارى. ويبدو من طابع البناء النوبى أنه متأثر بفقر البلاد وقلة مواردها الطبيعية وضعف المستوى

الفنى[١٥٢]. وإذا كان النوبيون استعانوا ببعض الفنانين البيزنطيين لبناء كنائسهم وزخرفتها، إلا أن مادة البناء - ومعظمها من الطوب واللبن والطين - ظل الطابع السائد للعمارة النوبية [١٥٣] باستثناء بعض الكنائس المبنية من الحجر مثل كنيسة فرس وكنيسة دير الغزال.

واقتصرت الزخرفة على الرسوم والنقوش على جدران الكنيسة الداخلية غير أن معظمها اندثر بطبيعة الحال. ولعل أجمل هذه النقوش ما عثر عليه فى كنيسة عبدالقادر وكنيسة فرس. وعثر بجوار كنيسة عبدالقادر على نقش يمثل نائب ملك فى نوباديا فى ملابسه التقليدية حاملا نموذج كنيسة يبدو أنه eparch مؤسسها[١٥٤].

وفضلا عن هذا فإنه يوجد عدد من النقوش التى هى فى الواقع عبارة عن صور القديسين. ومشاهد من الإنجيل وأخرى لميلاد المسيح. ويرى جريفث أن طابعها العام يشبه الطابع البيزنطى[١٥٥]، ويقول شنى. إن الطابع العام لهذه النقوش يدل على البساطة وعدم النضج، ولكنها توضح فى الوقت نفسه رغبة الفنانين وتحمسهم لفنهم [١٥٦].

لم يعثر على بقايا مساكن إلا بأطلال سوبا. وهى مبنية من اللبن وطرازها بسيط ساذج.

ويمكن التمييز بين نوعين من الفخار، فخار دنقلة وفخار سوبا، إذ يشتمل الأول على أوان صغيرة من طينة ناعمة ذات طلاء أبيض أو أصفر أو برتقالى. وكثير من هذه الأوانى يحمل رسومًا لحيوانات أو رموزا مسيحية، وهى جميعا متأثرة بالفن القبطى، وأجود أنواع هذا الفخار يرجع إلى القرن التاسع أو العاشر الميلادى. أما فخار سوبا فمن الآجر المطلى بطلاء أسود وبه زخارف على شكل زهور صغيرة صفراء وحمراء، وهو يمثل طابعًا مستقلا لا وجود لمثله فى مقرة أو فى مصر.

هوامش الفصل الرابع

(1)Kirwan. L. p.: "Note on the topography of the Christian Nubian Kingdoms". JEA., XXI, 1934, p. 57.

(2) Quatremère, E,: Memoires, II p 1.

(3) John of Ephesus, : op. cit.p. 319.

(٤) انظر الفصل الثانى ص ٣٩ – ٤٠.

(٥) ربما كان هؤلاء الماركوريون هم الذين أشار إليهم سترابون باسم Meya Bapoi، وأشار إليهم بطليموس باسم Makkoupai .Kiwan, L. P. op, cit. P. 57.

(٦) من الواضح أن خضوعهم لم يدم طويلا بدليل موقفهم العدائى أثناء بعثة لونجينوس التبشيرية، انظر الفصل الثالث من هذا البحث، ص٦٢.

(٧) انظر الفصل الثاني، ص٢٤.

(8) Kirwan, L. P.: op. cit. p.58.

والراجح أن علوة مدينة قديمة ترجع إلى قرابة منتصف القرن الرابع قبل الميلاد. ولايبعد أن تكون مدينة IL(t) التى ورد ذكرها على لوحة تركها الملك ناستاسن Nastasen ملك مروى ٣٢٨ ق. م.

(8) Kirwan, L. P. : op.cit. p. 57.

انظر ايضاً Shinnie, P. L. "Excavations at soba" SAS. No. 3, 1955, p. 11.

وكذلك Cammerer, A: Essai sur l'histoire Antique d'abyssinie p. 82.

ويقول كامرير: إن علوة اسم قديم لانها ذكرت على نقش هيرغليفى فى النقعة (قرب شندى) تحت اسم Alut.

(٩) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١، ص٢٠٠، سيرد ذكر هذه الحملات تفصيلا فيما بعد انظر الفصل الخامس.

(10) Crawford, O. G. S. : op. cit. p. 23.

Kirwan, L. P. : op. cit. p. 61. وأنظر أيضًا

(11) De Villrd, : op. cit. p. 76.

(١٢) اعتمد دى فيار فى إيراد هذا الرأى على ما جاء فى سيرة البطريرك إسحق (٦٩٠ - ٦٩٢م)، والتى جمعها الأسقف مينا. Ibid,: op. cit. p. 79.

(١٣) واعتمد هذا المؤلف أيضًا على ماورد فى سير بطاركة الإسكندرية. Ibid.: op. eit. p. 80.

(١٤) يقول دى فيار: إنه عثر على حجر فى معبد تافه يحمل نقوشًا يونانية مؤرخة ١٤ ديسمبر سنة ٧١٠م تمجد مرقوريوس لإتمامه هذا العمل الجليل. وربما كان هذا العمل الجليل هو تحويل معبد تافه إلى كنيسة. وتافه تقع فى نوباديا ومعنى هذا أن مرقوريوس ملك مَقرَّة، يحكم نوباديا كذلك.

(١٥) وينص الصلح على أن المملكة النوبية تمتد من أسوان إلى حد علوة.

(١٦) يقول بتلر فى كتاب تاريخ أبى صالح الأرمنى (حاشية ١ ص ٣١٦) إن البطريرك إسحق تدخل لحسم النزاع بين ملك النوبة وملك الحبشة مما أدى إلى غضب عبدالعزيز بن مروان وإلى مصر على البطريرك إسحق. وورد فى كتاب رينودو «تاريخ بطارق الإسكندرية» ما يؤيد رأى بتلر الذى استقاه من مصدر قبطى هو سيرة البطريرك إسحق التى جمعها ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونيين.

Renaudot, E,: Hist. Patriarcharum Alexandrinarum," p. 178. conti Rossini: Note Ethiopiche - 1 - Una Guerra fra la Nubia e l' Ethiopie. Nel Seclo XII. p. I.

(17) Mapero : op. Cit . P. 348,

Roeder: op. cit. pp. 383 - 384.

(18) Arkell, A. j.: Ahist. of the Sudan. p. 186.

(١٩) اليعقوبى: كتاب البلدان ، ص ٣٣٦ «ومن أسوان أول بلاد النوبة الذين يقال لهم مقرا وهو موضع يقال له ماوا» وفى موضع آخر «فأما من قصد من العلاقى إلى بلاد النوبة الذين يقال لهم علوة....» . أى أن اليعقوبى أطلق النوبة على كل الأقاليم جنوبى أسوان بما فيها مقرة وعلوة وجعل ماوا الحد الفاصل بين نوباديا ومقرة ، بيد أنه لم يذكر شيئًا عن الحدود بين مقرة وعلوة. ومدينة ماوا غير معروفة، وربما قصد بها ماما وهى فى رأى كروفورد تقع قرب جبل فركة جنوبى الشلال الثانى، وهى تمثل نهاية إقليم السكوت. واعتبار الحد الفاصل بين نوباديا ومقرة جنوبى ماما بقرابة ١٤ ميلا لهو أمر مقبول. Crawford , op, cit p. 23.

(٢٠) المسعودى: مروج الذهب. جـ ٢، ص ٣٣ «فأما النوبة فافترقت فرقتين ، فى شرق النيل وغربيه، وأناخت على شطيه، فاتصلت ديارها بديار القبط أرض صعيد مصر من بلاد أسوان وغيرها. واتسعت مساكن النوبة على شاطئ النيل مصعدة، ولحقوا بقريب من أعّاليه، وبنوا دار مملكة تدعى دنقلة، والفريق الآخر من

النوبة يقال لها علوة وبنوا مدينة للملك سموها سوبة... والبلد المتصل من مملكته بأرض أسوان يعرف بمريس».

(٢١) عبدالله بن أحمد بن سُلَيْم الأسوانى كان مبعوث الخليفة المعز لدين الله الفاطمى، إلى ملك النوبة ليدعوه إلى الدخول فى الإسلام ويذكره بدفع البقط وكتب كتابه «أخبار النوبة ومقرة وعلوة البجة والنيل، وهذا الكتاب مفقود ولكن المقريزى حفظ لنا فى كتابه المواعظ والاعتبار شيئًا منه.

(٢٢) مريس معناها فى اللغة القبطية الجنوب. وتنسب إليها الريح المريسية، وهى رياح الجنوب الباردة التى تهب على جنوبى مصر فى فصل الشتاء. انظر عبداللطيف البغدادى «كتاب الإفادة، ص ١٣.

(٢٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار ، جـ ١،، ص ١٩٠ «... وأول الجنادل من بلد النوبة قرية تعرف بتقوى وهى ساحل ، وإليها تنتهى مراكب النوبة المصعدة من القصر أول بلدهم ومنها إلى المقس الأعلى ست مراحل».

(٢٤) الشلال الأول هنا المقصود به أول شلال فى الأراضى النوبية، ولم يدخل إبن سليم الجندل الأول (الشلال الأول) لأنه داخل فى الحدود المصرية. وعلى هذا فإن الجندل الأول حسب قول ابن سليم يقابل الجندل الثانى (الشلال الثانى قرب حلفا) ومنها أى من تقوى (عند الشلال الثانى) إلى المقس الأعلى ست مراحل. حوالى ٧٢ ميلا. وهى منطقة الشلال الثانى.

(٢٥) أبو صالح: الشيخ أبو صالح الأرمنى، ص ١٢٠. ويعتمد دى فيار فى تحديد هذا الموقع على ما ذكره أبوصالح من أن فى جهة المقس الأعلى يوجد السنباذج Carundum، وهو حجر ساخن يوجد قرب عين ماء ساخنة. ومن تقرير لهيوم وجد أن هذه العين لا وجود لها فى وادى النيل كله إلا عند عكاشة ويسميها السكان هناك حمام عكاشة أو حمام سيدنا سليمان انظر De Villard: op. cit. p. 136

(٢٦) المقريزى: جـ ١ ص ١٩١. سقلودا معناها السبع ولاه. ويبدو أنها تتفق من إقليم السكوت. وباكون مع إقليم المحس وصفد مع إقليم الجوابرة: Crawford op. cit.pp. 24 - 25 وجاء فى رواية أخرى لابن سليم «أن وستو آخر قرى مريس آخر عمل متملكهم». والواقع أن هذه الرواية تتعارض مع ما سبق أن ذكره أن المقس الأعلى هى آخر مريس من ناحية الجنوب، ولكن إذا علمنا أن وستو أوياستو تقع شمال دنقلة الأوردى بقرابة ٢٧ ميلا Burckhardt, j.l.: Travels in Nubia, p. 523 اى قرب أبى فاطمة التى تنتهى عندها لغة الدناقلة التى تشبه لغة الكنوز وهى اللغة المريسية، ترى أن ابن سليم ربما قصد الحد الشمالى للغة مريس الدنقلاوية لا الحد الجنوبى لإقليم مريس انظر Kirwan, L.P.: op. cit. p. 60

(٢٧) منطقة شنقير هى منطقة أبى أحمد - بربر حيث يبدأ منها الطريق البرى إلى سواكن Crawford.: Op. cit, p. 26.

(٢٨) إن مهندى غير معروفة تمامًا لكن دى فيار يرى أنها تقع إلى الجنوب من المحرقة وبهذا يمكن القول إن هذه التقسيمات تتفق تمامًا والتقسيمات الرومانية بأراضى النوبة (انظر الفصل الأول، ص ٩، وانظر أيضا، نقلا عن مفضل بن أبى الفضائل، «النهج السديد».

De Villard: op. cit. pp. 137 ،138.

(٢٩) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ١، ص ١٩٠، ١٩١.

(٣٠) المصدر السابق، جـ ١، ص ١٩٢ والأبواب هى كبوشية الحالية: .Crawford op. cit.p.24 ويرى دى فيار أن الأبواب هى الإقليم المحاذى للنيل من نقطة التقائه بنهر أتبرا - إلى الشلال الرابع.

De Villard,: op. cit. p. 153.

(٣١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ١، ص ١٩٣.

(٣٢) الديجيبون والبازة غير معروفين تماماً وربما البازة هم الباريا الذين كانوا يحتلون هذه المنطقة قبل أن ينتقلوا جنوبياً.

(٣٣) ابن حوقل:كتاب صورة الأرض، ص ٥٦.

(٣٤) ياقوت: معجمُ البلدان، ص ٣٢٣.

(٣٥) ربما كان هؤلاء التكنة هم الدنكا، والراجح أنهم فى هذا الوقت تقدموا شمالا على النيل الأبيض متجاوزين أوطانهم الحالية.

(٣٦) مخطوط تاريخ قلاوون المعروف باسم تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور جـ ٢ ص ٢٩٢ ا - ٢٩٢ ب.

انظر كذلك .Quatrémere, E.: Memoires hist. et. goog.... 11.pp. 109 - 112

ومعظم هذه الأقاليم (الممالك) غير معروفة ،، وحاول بعض الكتاب تحقيق أسمائها فيرى دى فيار أن بارزة هم الباريا قبل انتقالهم من نهر أنترا إلى أوطانهم الحالية. والتاكة هو الإقليم المحيط بكلا، وكرسه ربما هم الذين أشار إليهم ابن سليم وكانوا يسكنون أرض الجزيرة، أما دنفوا ويقفل وآرى فغير معروفة، أما الأنج فربما كانوا فى جبل حرزا، ويقول دى فيار: إن الإنج شعب قديم واسع الانتشار، وبعد سقوط سوبا أطلق عليهم «القدماء» وفى الرصيرص تلصق كلمة الهمج على العنج. انظر:

Mac Michael, H.A.: Ahist of the Arabs in the sudan, I.p. 183.

Arkell,A.J. : op. cit. p. 196.

(37) Crawford,: op. cit. p. 25. De Villard,: op. cit. p. 156.

Arkell. A. j.: op cit. p. 196.

(٣٨) على الرغم من أن سلكوا لا يعرف عنه تماماً اعتناقه للديانة المسيحية فإنه على الأقل يعتبر المؤسس الأول لمملكة نوباديا المسيحية.

(39) Emery, W. E.: The Royal Tombs of BBallana & Qustul i.p. 12.

ويتفق هذا اللقب مع لقب ملك أى حاكم إقليم وهو اللقب الذى حمله حكام الأقاليم الخاضعة لسلطان الفونج. وهناك كثيرون لايزالون يحملون هذا اللقب حتى الآن.

De Villard,: op. cit.. p. 83.

(40) De Vllard,: op. cit. p. 85.

(41) Morie, L. j: Hist. de L'Ethiopie et la Nubie Tomler p. 412.

Backett, H.W: ASN., 11., Report 1907 - 8 p. 366. انظر أيضًا

(٤٢) انظر الفصل الثانى، ص ٤٠.

(٤٣) يبدو أن النوباديين استعاروا هذه الألقاب البيزنطية ومنحوها لأشخاص ربما لم يسبق لهم ممارسة مثل هذه الوظائف التى تحمل ألقابا. إذ لا يمكن أن نتصور مملكة حديثة النشأة لم يمض على تأسيسها أكثر من ١٥ عامًا أن تطبق النظم البيزنطية بنصها وقصها، على حين أن حضارتهم التى سبق أن أشرنا إليها، فى حضارة المجموعة الثقافية لا توحى بمثل هذا النظام الذى لا بد أن يمر فى مراحل حضارية طويلة وأن يعتمد على أسس ثقافية عميقة.

De Villard op. cit. p. 86.

(٤٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ١، ص ٢٠٠، نص عقد الصلح الذى عقده عبدالله بن سعد لعظيم النوبة «واهل مملكته من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة».

(٤٥) إن اتحاد المملكتين نوديا ومقرة تم على أساس أن تحتفظ كل من المملكتين باستقلالها الداخلى. ويظل حاكم المملكة الشمالية نوباديا أو مريس فى منصبه يحمل لقب eparch «نائب ملك». والظاهر أن النوبيين احتفظوا بهذا اللقب حتى بعد أن شغر هذا المنصب بانسحاب نائب الإمبراطور البيزنطى فى نوباديا على أثر خروج البيزنطيين من مصر، ثم أطلق هذا اللقب على ملك نوباديا بعد اتحاد مملكته مع مقرة. انظر:

De Villard,: op. cit. p. 86.

(46) Griffith, FL.I. christ, Documents from Nubia. p. 28

(٤٧) أبو صالح، ص ١٢٥.

(48) De Villard: op. cit. pp. 97 -99-172.

(٤٩) المسعودى: نفس المصدر نفسه جـ ٢، ص ٣١.

(٥٠) ياقوت معجم البلدان: ص ٣٢٣ – «وملوكهم يزعمون أنهم من حمير ولقب ملكهم كابيل وكتابته إلى عماله وغيرهم: من كابيل ملك مقرى ونوبة» وربما كان أصل كلمة كابيل من قبل. وهو لقب أطلق على بعض أمراء اليمن، ابن هشام سيرة النبى، جـ ٤ ص ٢٥٨ ، ويقول دى فيار ص ١٧١ : وليس بمستبعد أن الأسرة المالكة النوبية ترجع فى أصلها إلى جنوبى الجزيرة العربية، إذ عبر الحميريون البحر الأحمر واستقروا فى السودان حيث نقلوا أسماء أجدادهم – مثل كوة - دارو - سبأ، ولا يبعد أن تكون الأخيرة حرفت إلى سوبا (العاصمة).

(٥١) الإدريسى: المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ص ١٩.

(٥٢) أبو صالح من ١٢٥.

(53) De Villard: op. cit.. p. 178.

(٥٤) المسعودى: المصدر نفسه، جـ ٣، ص ٤١.

(٥٥) نظام الأمومة - أى توريث ابن البنت أو ابن الأخت Matrelineam System ، وهو نظام حامى قديم ومازالت بعض الجماعات السودانية تسير عليه حتى الآن.

(٥٦) أبو صالح، ص ١٢٥.

(57) De Villard: op. cit. 96 – 97.

(٥٨) تطلق المراجع العربية على هذا الملك اسم زكريا بن يخنس، بيد أن هذه التسمية خطأ وربما كان اسم أبيه يحنس (يوحنا) وقرئت خطأ بعد قلب الباء ياء والحاء إلى خاء.ibid: op. cit.p.106

(٥٩) هو جورج الأول بن زكريا وهو الذى قام برحلة إلى بغداد وحصل من الخليفة المعتصم على وعد بتخفيف البقط كما سيجىء ذكره بعد، ويطلق عليه المقريزى اسم فيرقى.

(60) Michel Le Syrien: Chronique... 111. pp. 94 , 95.

(61) De Villard: op. cit. p. 100 - 106.

(٦٢) المسعودى: جـ ٢ ص ٢١ «فأخبرت أن الملك للنوبة فى مدينة دنقلة كبرى ابن سرور وهو ملك ابن ملك فصاعدا وملكه يحتوى على مقرى وعلوة». انظر أبو صالح، ص ١٢٥. «ملك النوبة وأعمالها وارض علوة والمقرة والأجناس المضافة إليها».

(٦٣) المقريزى: المقفى، مخطوط، جـ ٤، ص ١١٦٦.

انظر كذلك: Quatrémer: op . cit. pp. 59 -80.

(٦٤) نزل هذا الملك ضيفًا على الخليفة المستنصر بالله الفاطمى الذى أحسن وفادته. وبعد موته دفن فى دير مارى جرجس. أبو صالح ص ١٢٤ . ١٢٥ «... كان يتعبد فى البيعة سلمون ملك النوبة لما نزل على الملك وخلع نفسه وقال من ذا الذى من الملوك يخلص من الحكم بين الناس من قبل الله تعالى ولم يمل مع الهوا ولم يسفك الدماء ظلمًا، ولم يغتصب الناس لما لم يستحقه عليهم. فأنهى حاله إلى والى الصعيد الأعلى وهو سعد الدولة القواس فى خلافة المستنصر بالله ووزارة أمير الجيوش بدر. فسير من أخذه من هناك ووجه به إلى القاهرة ولما وصل إلى الباب أكرم كرامة عظيمة... وبعد إقامته مدة تنيح ودفن فى دير القديس مارى جرجس بالخندق فى بطركية كيلس وهو السابع والستون فى العدد وقبره من داخل سور البيعة مجاور على يمين الداخل إليها.» انظر روفيلة: تاريخ الأمة القبطية، ص ١٤٠- ١٤١.

(٦٥) يفرق أبو صالح ص ١٢٥ بين هؤلاء الملوك وملك مقرَّة فأطلق على الأخير لقب الملك الكبير، أما هؤلاء الملوك الذين تحت طاعته فهم أشبه بالمكوك (جمع مك) الذين تولوا حكم الأقالى فى عهد دولة الفونج وكانوا خاضعين للسلطان أو المانجل.

(٦٦) أبو صالح، ص ١٢٥ «وعدة ملوك النوبة ثلاثة عشر ملكاً هؤلاء ضابطون البلاد وجميعهم تحت طاعة كرياكوس الملك الكبير وجميعهم كهنة...».

(٦٧) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١ ص١٩٠ يقول ابن سليم: «... ولهذه الناحسة (مريس) وال من قبل عظيم النوبة يعرف بصاحب الجبل من اجل ولاتهم لقربه من أرض الإسلام». وأطلق ابو صالح ص١١٩ على هذا الملك لقد جوسار، ثم أطلق عليه صاحب الجبل. وربما ذكر أبو صالح اسم جريس الذى تولى منصب صاحب الجبل سنة ١٢٨٧ أى زمن أبى صالح، ثم حرف إلى جوسار بدلا من جريس:

De Villard: op. cit. p. 135.

(٦٨) أطلق المقريزى، جـ١ ، ص١٩٠ على عاصمة مريس اسم نجراش على حين أن أبا صالح ص١١٩ يطلق عليها اسم بجراس Bujaras والاسمان يطلقان على فرس الحالية قرب الشلال الثانى .. Griffiih, FLI: Faras. JEA. XI. p. 267.

(٦٩) أبو صالح: ص١١٩ «بجراس Bujaras مدينة المريس... وبها مقام جوسار اللابس العصابة turban والقرنين والسوار الذهبى» ثم يعود فيقول «... مدينة تعرف بمدينة بوسقا مدينة حسنة... وبها مقام صاحب الجبل». أما بوسقا فغير معروفه.

(٧٠) تعتبر عادة لبس السوار الذهبى مظهراً من مظاهر السلطة، وهى عادة مأخوذة عن ملوك مروى الذين تبدو صورهم وأذرعتهم مضمومة وتحمل أساور ضخمة على جدران معبدالنقعة قرب كوشية وكذلك فى أهرام مروى، وهى تمثل ملوك مروى. ونسمع من أسرة تعرف بسوار الذهب فى العصر الحاضر فى دنقلة. أما القرنان فيبدو أن استعمالهما كان استمراراً لعبادة آمون. ويرى دى فيار أن العمامة ذات القرنين والمظلة والتاج من الشارات الملكية الساسانة التى وصلت إلى النوبيين إما عن طريق مصر أيام احتلال الفرس لها ما بين (٦١٦ ـ ٦٢٧م)، وإما وصلت عن طريق اليمن، لأنهم احتلوها مدة غير قصيرة، وأن وجود الطاقية أم قرنين عند ملوك الفونج يؤيد وصولها من ناحية الجنوب. أما عن رمز سليمان فهو أثر يهودى، ونحن نعرف أن اليهودية دخلت اليمن فى القرن السادس وربما قبل ذلك أيضا. ولايبعد أن يكون هذا الرمز مأخوذاً عن الحميريين الذين وصلوا إلى وادى النيل الأوسط. انظر الصورة رقم٢.

(٧١) المقريزى: جـ١، ص١٩٠ «وأول الجنادل من بلد النوبة قرية تعرف بتقوى هى ساحل وإليها تنتهى مراكب النوبة المصعدة من القصر أول بلدهم، ولاتتجاوزها المراكب ولايطلق لأحد من المسلمين ولا من غيرهم الصعود منها إلا بإذن من صاحب جبلهم» وفى موضع آخر «... ولايطلق لأحد أن يجوزها إلا بإذن الملك (صاحب الجبل)، ومن خالف كان جزاؤه القتل كائناً من كان. وبهذا الاحتياط تنكتم أخبارها حتى أن العسكر منهم يهجم على البلد إلى البادية وغيرهم فلا يعلمون به».

(72) De Villard,: op. cit. p. 187.

(٧٣) أبو صالح ص١٢١ «ومن بلاد النوبة مدينة إبريم وهى سكن صاحب الجبل.»

(٧٤) انظر الصفحة السابقة.

(٧٥) انظر الصفحة السابقة.

(٧٦) جاء فى المواعظ والاعتبار ذكر بلدة أدواء التى ينسب إليها لقمان وذو النون المصرى، وأطلق عليها بوزخارت اسم Adda أو الدر. غير أن دى فيار يرى أنها داود نسبة إلى شيخ بهذا الاسم سكن فيها وأخذت اسمه وهى تقع عند مدخل وادى الزرقاء.

(٧٧) وهى ذات أهمية استراتيجية مهمة لوقوعها عند مدخل الشلال الثانى

De Villard,: op. cit. p. 140.

(٧٨) أبو صالح ص١٢٥ «مدينة درمس من بلاد النوبة بها بيعة جليلة القدر حسنة الوضع مطلة على البحر فيها صفة صور الملك الكبير وصورة صاحب درمس» ودرمس هذه هى تالمس (كلابشة الحالية).

(٧٩) كتبت هذه الألقاب باللغة النوبية وليست باليونانية أو القبطية، ومن عوامل تعقيدها واضطرابها أنها أخذت أصلا عن النظم البيزنطية وطبقت على الوظائف التى خلفها العهد المروى وما دخل عليها من تقاليد بدائية، على حين أن الشعب ظل محتفظًا بالألقاب والوظائف القديمة. وبمضى القرون اختفت التقاليد البيزنطية من مصر بعد دخول العرب فيها واختفت معها الألقاب التى تخلفت فى بلاد النوبة ولم يكن لها أساس أو معنى فى أذهان الناس، ثم حلت محلها أسماء وألقاب نوبية مما يستعملها الشعب وعادت بعض الألقاب المروية إلى الظهور من جديد فى الإدارة النوبية وهذا هو سر تعقيدها.

انظر De Villard: op. cit. pP. 193 - 194.

(٨٠) المقريزى: جـ١، ص١٩٢.

(٨١) الدمشقى: ص٢٦٨ «النوبة صنفان أحدهما يقال لهم علوا وملكهم يسكن مدينة تسمى كوسة، والآخر يسمى مقرا وملكهم يسكن دنقلة».

(٨٢) يؤكد ابن حوقل، ص٥٦ هذه الظاهرة بعد أن حققها بنفسه خلال زيارته لعلوة فيقول «ومن أعمر بلادهم فى أرض علوة... وكان ملكهم وأنا بالناحية أسانيوس كرجوه بن حوقى وقد خلا له فى ملكه سبع عشرة سنة، وتوفى فى مجلس ابن أخته أسطانيوس ابن بركى وهو مقيم فيهم إلى وقتنا هذا. ومن سنة جميع السودان إذا هلك الملك أن يعقد ابن أخته دون كل قريب وحميم من ولد وأهل».

(٨٣) المقريزى: جـ١ ص١٩٢.

(٨٤) سبق أن أشرنا فى هذا الفصل إلى الأقاليم التى تتكون منها مملكة علوة والتى جاء ذكرها فى مخطوطة قلاوون، ولاحظنا أن حكام هذه المقاطعات عرفوا جميعًا باسم ملوك» كما عرف حكام مقاطعات مقرَّة بهذا اللقب كذلك. ومعنى هذا أن هاتين المملكتين الكبيرتين - مقُرَّة وعلوة - كانتا تحتويان على عدد كبير من الممالك.

(٨٥) أشرنا من قبل إلى أن ملك النوبة وملوك الأقاليم مارسوا إقامة الطقوس الدينية وقاموا بأعمال القسس.

(٨٦) المسعودى: مروج الذهب جـ٢، ص٣٧٢، ٣٨٣ جـ٣ ص٣١، ٣٣، ٣٤ «ملوكهم تزعم أنها من حمير».
المقريزى: جـ١ ص١٩١، يقول ابن سليم «ويقال إن سلحا جد النوبة ومقرى جد المقُرَّة من اليمن. وقيل النوبة ومقرى من حمير» انظر De Villard: op cit. p. 170. وانظر كذلك Mac Michael: op. cit. I.p. 168.
ويرى دى فيار أن الشارات الملكية النوبية جاءت من بلاد اليمن على يد الحمريين الذين هاجر فريق منهم إلى النوبة حيث كونوا طبقة حاكمة، انظر، ص٨٦. وكذلك De villard p. cit. p. 185.

(٨٧) المسعودى: مروج الذهب، جـ٣، ص٤١.

(٨٨) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١، ص١٩١.

(٨٩) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١، ص١٩٢.

انظر ايضًا Roeder,: op. cit. p. 384.

وكذلك ايضًا Renaudot: op. cit. pp. 178, 222:

(90) Vansleb, J. M.: Hist de l'Eglise D' Alex. fonde par s. Marc. pp. 29 - 30.

لاشك أن قائمة فانسليب تحتوى على تحريف كثير لأسماء المدن والمقاطعات النوبية وهى تحتاج إلى تحقيق
انظر Crawford: op. cit.p. 26.

(٩١) ذكر فانسليب هذه الأسقفيات محرفة وقد حاولنا تحقيقها كما هو واضح فى المتن. وبعد أن ذكر فانسليب أن بالنوبة مقاطعتين كنسيتين هما مقُرة وعلوة، عاد فذكر أن أسقفيات مريس هى كذا وكذا. على حين أنه كان يجب أن يذكر مقرة بدلا من مريس، وذلك لأنها تحتوى على أسقفيات لاتقع فى حدود مريس ومنها. دنقلة، وساى، وشنقير. وهذا خلط فى الأسماء.

(٩٢) من الصعب تحقيق هذه الأسماء فلا يوجد الآن ما يشبهها أو ما هو قريب منها. وموضع الصعوبة فى قائمة فانسليب هو أنه نقل هذه الأسماء من مخطوط عربى أو قبطى، غير أنه لم يتمكن من مقابلتها وتحقيقها، وثمة صعوبة أخرى وهى أنه نقلها بالأحرف اللاتينية فحدث تحريف وخطأ هجائى جعل من العسير مطابقتها على ما هنالك من أسماء، وعلى هذا فإن هذه المدن لايعرف عنها شىء الآن. De Villard. pp. 155 - 156
Crawford, p. 26

(93) De Villard: op. cit. p 130

(٩٤) انظر الفصل الثالث من هذا البحث، ص٦٥ ، ٦٦.

(95) De Villard: op. cit. p. 159.

(٩٦) أبو صالح، ص١٢٥، وترجمها بتلر فى حاشية ص٢٧٢ من الكتاب نفسه كما يلى:

"... Which Consecrates (their bishops) for them".

(97) Roeder: op. cit. p. 386.

(98) De Villard: op. cit. pp. 166 ، 167.

(٩٩) أبو صالح، ص١٢٥، ويرى دى فيار أن هذه الصفة الدينية لملوك النوبة ربما ترجع إلى أصل فرعونى، وتسربت إلى الشعوب الإفريقية وظلت حتى العهد المسيحى فى بلاد النوبة. وأن فكرة النجاسة الناشئة عن قتل رجل منتشرة انتشارًا واسعًا De Villard p. 174، ولاتزال فكرة تقديس الملك أو الرئيس منتشرة عند الشعوب النيلية مثل رث الشلك

(100) Ibid: op. cit. p. 167.

(١٠١) يشير دى فيار إلى لوحة عثر عليها فى قبر توماس أسقف فرس وتدل على أنه كان يشغل أيضًا وظيفة أرشمندريت فى دير موراج . De Villard: op. cit,

(١٠٢) أبو صالح ص١٢٥، «وقداسهم وصلواتهم روميًا» ويرى بتلر حاشية ، ص٢٧٢ من هذا الكتاب أن استعمال اللغة اليونانية فى الطقوس الدينية ببلاد النوبة دليل على دخول المسيحية إلى هذه البلاد قبل أن تترجم الطقوس الدينية من اللغة اليونانية إلى اللغة القبطية فى مصر انظر
Budge, E. W.: Ethiopia, ...I, P. 117.

Budge, E. W.: The Egypt. Sudam 11. p. 301.

Budge, E.W.: Nubian Texts,pp. 7. -10.

(103) Griffith, Fli: op. cit. p . 17.

(104) Griffith, FL.1.: Oxford Ex. in Nubia. p. 55.

(105) Shinnie, p. L.: Med. Nubia, p.6.

ويرى شيء أن اللغة النوبية القديمة ذات علاقة وثيقة باللهجة المحلية الحديثة المنتشرة ما بين الشلال الثانى وأبى فاطمة عند الشلال الثالث.

Ibid: op. cit. pp. 6 ،7.

(106) Griffith, F. Li: The Nubian texts of christan period. pp. 5 ، 6.

(107) Shinnie, p. L: op. cit.

(108) Ibid.: op.cit p. 70.

(109) Roeder,: op . cit. p. 392.

(١١٠) أبو صالح ، ص ١٢٤ ، ١٢٥.

(١١١) عثر على بعض هذه المخطوطات بإدفو فى صعيد مصر واشتراها ملك ألمانيا، وهى الآن بمتحف برلين. Roeder: op. cit. p. 392.

(112) Ibid op. cit. pp. 392 - 3.

(113) Griffith, FLi.: Oxford Ex in Nubia. 53.

Sbinnie, p. : : op. cit. p.7.

(١١٤) يقول جريفث إن الوثائق الرسمية كانت تكتب بالقبطية حتى القرن ١٠ م ثم حلت محلها اللغة النوبية.

Griffith, F. L1: Christ. Doc. from Nubia pp. - 18.

(115) Griffith F. L1.: Oxford Ex. in Nubia. p. 53.

(116) Shinnie, P. L. : op. cit. p.7.

(١١٧) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ١، ص١٩٣.

(١١٨) الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر البحر، ص ٩٩.

(119) Griffith, F.L1.: Christian Documents from Nubia p. 14.

(120) Budge, E.W.: Nubian pp.7 ,8.

(121) Ibid:o. cit. p. 8.

(122) Shinnie, p.L: Excavations at soba. SAS., 111. p. 50.

(123) Budge, : op. cit. p.8.

(124) Growfoot, j,W.: christian Nubia, JEA., Xiii., p. 146.

(125) Crowfoot, j. W.: op. cit. p. 146.

(126) Renaudot: op, cit. p. 178.

(127) Ibid., : op. cit.p. 221.,

De Villard. : op. cit. pp. 96 - 97.

(١٢٨) اختلفت المصادر القبطية حول تاريخ هذه الحملة واسم والى مصر إذ ذاك انظر الأراء المختلفة حول هذه الحملة فى أبى صالح وكذلك. De Villard,: op. cit pp. 97 - 98.

Griffith . FL1.: Christ. Doc. p. 28.

Lane - poole: op. cit. op. p 27.

(١٢٩) يشك بعض المؤرخين فى مقدرة ملك النوبة على تجريد هذه الحملة لفقر النوبة وضعفها. ويرى رينودو أن الحبشة لابد آزرت النوبة فى هذه الحملة.

Renaudot: op. cit. p. 222.

انظر التفاصيل فى MacMichael: op. cit. I. p. 168.

(١٣٠) علق رينودو على هذا المذبح بقوله: إنه الأول من نوعه إذ لم يكن هناك مذابح متنقلة ولم يسمح بإقامة الطقوس فى أماكن بعيدة عن الكنائس.

Renaudot, op. cit. p. 285.

(١٣١) ساويرس بن المقفع: تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية، المجلد الثانى ، الجزء الثانى، ص ٨١، ص ١١٣، ١١٤. انظر ملحق رقم ١٤.

De Villard. op. cit. p. 125.

(132) Renaudot. op. cit. p 435.

(133) Renaudot. op. cit. pp. 443 - 445.

Devillard : Op, cit, p. 128.

(134) Timingham, J. S.: Islam in the sudan. p. 70. Devillard : Op, cit, p. 128.

(١٣٥) لم يسجل تاريخ الكنيسة النوبية استشهاداً أو اضطهاداً كما حدث فى مصر إبان عهدها الأول بالمسيحية. بل إن النوبيين قبلوا الدعوة الجديدة بأمر من ملوكهم.

(136) Crowfoot, J.W.: op. cit. pp. 142 ،143.

(١٣٧) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، جـ ١، ص ١٩٣.

(138) Crowfoot, J. W.: op. cit. pp. 142 ، 143.

(139) Ibid, : op. cit. pp. 142 ،143.

(١٤٠) المقريزى: المواعظ والاعتبار ، جـ ١، ص١٩٠.

(١٤١) المصدر السابق، ص ١٩١ . تعرف هذه المنطقة الجنوبية من مريس باسم الجنادل، وهى المنطقة الممتدة من تقوى إلى المقس الأعلى، وتعرف الآن ببطن الحجر.

(١٤٢) المصدر السابق ، ص ١٩٠.

(١٤٣) المصدر السابق، ص ١٩٣.

(١٤٤) الإدريسى: المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٢٠.

(١٤٥) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ١، ص ١٩٣.

(١٤٦) الشاطر بصيلى: معالم تاريخ سودان وادى النيل، ص ٧.

(١٤٧) المقريزى: المواعظ والاعتبار ، جـ ١، ص ١٩١.

(١٤٨) المصدر السابق، ص ١٩٠.

(١٤٩) الإدريسى: المصدر نفسه، ص ٢٠.

(150) Shinnie, p. L.: Medieval Nubia. pp. 8 ، 9.

(151) Crowfoot, j.W.: op. cit. pp. 144 ، 145.

(152) Somers Clarke.: Christian Antiquities in the Nile Valley p.7.

(153) Griffith, F. Ll.: Oxford Ex. in Nubia.p. 52.

(154) Shinnie, p. L. : op. cit. pp. 12 - 18.

(155) Crowfoot, J.W: op cit. p. 146.

(156) Shinnie, p. L. :op cit. p. 13.

الفصل الخامس

النوبيون والعرب

الاتصال القديم بين الجزيرة العربية ووادى النيل ـ الهجرات العربية إلى مصر ـ أول اتصال بين المسلمين من ناحية وبين النوبيين والبجة من ناحية أخرى توغل العرب جنوبًا فى أرض النوبيين والبجة، عوامله ودوافعه المختلفة فى التاريخ ـ بعض آثاره السياسية والاجتماعية والثقافية حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ـ أثر الرق.

* * *

لقد صحب اتصال العرب بالنوبيين دخول لون جديد من الثقافة إلى بلاد النوبة، فصبغ سكانها بصبغة جديدة، وطبعهم بطابع خاص، مختلف عن الطابع القديم الذى اتصف به المجتمع النوبى فى العهد المسيحى. أما هذه الثقافة الجديدة فهى الثقافة العربية الإسلامية.

وثمة ظاهرة أخرى هى نزوح بعض الجماعات النوبية من بلادها وتأثرها بتلك الثقافة خارج الوطن النوبى. وهذا العامل الأخير سنتعرض لذكره بعد.

أما عن صلة النوبيين بالعرب فقديمة وترجع إلى ما قبل ظهور الإسلام، وهذه حقيقة تؤيدها الحقائق الجغرافية والروايات التاريخية، ذلك أن البحر الأحمر لم يكن فى وقت من الأوقات حاجزًا يمنع الاتصال بين شواطئه الآسيوية العربية

وشواطئه الإفريقية، لا يزيد اتساع البحر على المائة والعشرين من الأميال عند السودان. وليس من الصعب اجتيازه بالسفن الصغيرة.

وفى الجنوب يضيق البحر الأحمر جدًا عند بوغاز باب المندب حتى لا يزيد على عشرة أميال وهو الطريق الذى سلكته السلالات والأجناس إلى القارة الإفريقية منذ عشرات الآلاف من السنين(١).

ولعل التجارة كانت أهم وسيلة هذا الاتصال، إذ نشطت حركة تجارة العاج والصمغ واللبان والذهب بين الجزيرة العربية من ناحية وبين موانى مصر والسودان والحبشة من ناحية أخرى. واتخذ التجار العرب من بعض نقط على الساحل الإفريقى مراكز لهم، يوغلون منها بسلعهم وبضائعهم فى قلب القارة الإفريقية حتى وادى النيل على الأقل(٢). وفى الألفى سنة قبل الميلاد هاجرت جماعات عربية من جنوب غربى الجزيرة العربية إلى الحبشة. وبلغت هذه الهجرات أقصاها ما بين ١٥٠٠ ق م - ٣٠٠ ق م فى عهد دولتى معين وسبأ. وحمل المعينيون والسبئيون لواء التجارة فى البحر الأحمر ووصلوا فى توغلهم غربًا إلى وادى النيل(٣) ونشطت حركة التجار العرب بخاصة زمن البطالة والرومان. ولا شك أن عددًا غير قليل من هؤلاء استقروا فى أجزاء مختلفة من حوض النيل، ولحق بهم عدد من أقاربهم وأهليهم. وفى القرنين السابقين للميلاد عبر عدد كبير من الحميريين (أهل اليمن) مضيق باب المندب فاستقر بعضهم فى الحبشة وتحرك بعضهم الآخر متتبعًا النيل الأزرق ونهر أتبرا ليصلوا عن هذا الطريق إلى بلاد النوبة(٤).

وتشير بعض الروايات التاريخية إلى حملات عسكرية قام بها الحميريون فى وادى النيل الأوسط وشمال إفريقيا، وتركت هذه الحملات وراءها جماعات استقرت فى بلاد النوبة وأرض البجة وشمال إفريقيا(٥). ويرى ريد Reid أن هؤلاء الحميريين اختلطوا بالحاميين سكان شرق السودان، وورثوا ملك أجدادهم من ناحية الأم حسبما يقضى به نظام التوريث المعروف عند الشعوب الحامية وهو توريث ابن الأخت أو ابن البنت(٦). ويرى بول Paul أن ممن انتفع بهذا النظام الوراثى من العرب جماعة من الحضارمة - سكان حضرموت - الذين عبروا البحر

الأحمر إلى ساحله الإفريقى فى القرن السادس الميلادى، ثم اختلطوا بالبجة وكونوا طبقة حاكمة خضع لها هؤلاء البجة المعروفون بالزنافج، وتعلموا لغتهم واعتنقوا المسيحية حتى يسهل عليهم قيادتهم والسيطرة عليهم[٧]. وعلى الرغم أن عدد هذه الجماعات المصرية المهاجرة لم يكن كبيرًا، فمما لا شك فيه أنها تركت بعض آثارها الثقافية ولاسيما فى ناحيتى الدين والفن[٨].

أما الطريق الشمالى وهو طريق برزخ السويس، فهو ذو دور خطير فى تاريخ العلاقات بين سكان الجزيرة العربية وسكان وادى النيل الأدنى منذ فجر التاريخ ولم تخل الآثار المصرية القديمة من الإشارة إلى بدو سيناء وفلسطين وسوريا وغيرهم من العرب الشماليين الذين عرفتهم مصر منذ عهد الأسرات الأول إما تجارًا يختلفون إلى الأسواق المصرية، أو غزاة كالهكسوس، أو مهددين لمصالح الإمبراطورية المصرية فى سوريا، أو لاجئين يرغبون العيش فى كنف الفراعنة[٩] ومهما يكن من أمر هذه العلاقات فإنها طبعت اللغة المصرية القديمة بالطابع السامى[١٠]. ولم تنقطع صلة هذه العناصر العربية بمصر زمن البطالة والرومان كذلك.

وإذ خلفّت هذه الجماعات العربية بعض آثارها فى البلاد التى وصلت إليها قبل ظهور الإسلام، فإن الهجرات العربية الكبرى التى أعقبت ظهور الإسلام تركت دماء عربية غزيرة ونشرت لغتها العربية ـ لغة القرآن الكريم ـ فى دائرة أوسع من البلاد المجاورة. وتمثل حملة عمرو بن العاص سن ٦٣٩م على مصر إحدى طلائع هذه الهجرات الكبرى التى شقت طريقها من قلب الجزيرة العربية إلى أفريقيا عبر برزخ السويس. ولم يكد يشتبك عمرو بقوات البيزنطيين فى مصر حتى أمده الخليفة عمر باثنى عشر ألفًا انهارت أمامهم المقاومة البيزنطية. وتم عقد الصلح بين عمرو بن العاص والمقوقس Cyrus فى نوفمبر سنة ٦٤١م[١١]، وبهذا تم فتح مصر.

ثم أخذت القبائل العربية المختلفة تهاجر منذئذ إلى مصر بانتظام، وتعاقب الولاة على حكم مصر[١٢]، وصحب معظم هؤلاء الولاة رجال قبائلهم الذين آثروا سكنى مصر، ولم يبرحوها إلى بلاد العرب. كما أخذت قبائل كاملة تنتشر فى

جهات القطر المختلفة من الدلتا إلى أقصى جنوب الصعيد[١٣]. وتمثل هذه الهجرات المجموعتين العربيتين الكبيرتين ـ القحطانيين والعدنانيين ـ ومن القحطانيين: بنو جذام ـ طيء ـ بلى ـ جهينة ـ لخم. ومن العدنانيين: كنانة وقريش ـ قيس عيلان ـ فزارة ـ بنو هلال وبنو سليم ـ ربيعة وبنو كنز[١٤].

وإذا كان العرب فى أول عهود الفتح لم يختلطوا بالمصريين فذلك لأنهم كانوا لايزالون فى شبه تجنيد، ولهذا منعوا من امتلاك الأرض والاشتغال بالزراعة، ثم لم يلبث هذا أن تغير بعد أن استتب لهم الأمر فاختلطوا بالسكان وتزاوجوا منهم [١٥]. غير أن عددًا كبيرًا من القبائل ظل محتفظًا ببداوته التى تعودها فى البيئة الأصلية [١٦].

اتجهت سياسة المسلمين ـ منذ أن تم لهم فتح مصر ـ إلى فتح النوبة وتلاقت رغبة الخليفة عمر مع رغبة قائده عمرو بن العاص فى مصر لضرورة غزو النوبة لضمان المحافظة على أطراف مصر من ناحية الجنوب وتأمين طريق التجارة [١٧] القديم بين البلدين. فأرسل عمرو فرقة من الفرسان بقيادة عقبة بن نافع لفتح النوبة سنة ٦٤١م [١٨]. والراجح أن عدد المسلمين فى هذه الحملة لم يكن كبيرًا بينما كانت خسائرهم كثيرة لشدة المقاومة التى أبداها النوبيون، فضلاً عن مهارة هؤلاء فى الرمى بالسهام، حتى أطلق عليهم المؤرخون العرب اسم رماة الحدق[١٩] ولذا لم يستطع المسلمون أن يتوغلوا جنوبًا. على أن هذه المحاولة إن لم تكن ناجحة، فهى كذلك لم تكن فاشلة تمامًا، وفى الدليل على ذلك نص معاهدة الصلح بين عمرو وقيرس (المقوقس)، ذلك النص الذى ورد فيه ذكر النوبة لأول مرة فى وثيقة عربية، «أن على النوبيين الذين يدخلون فى صلح مع المسلمين دفع كذا وكذا من الرءوس، وفتح بلادهم لتجارة الصادر والوارد[٢٠]». والواضح من هذا النص أن الطرفين الإسلامى والنوبى اتفقا على عقد هدنة بينهما فى هذه السنوات على غرار ما كان بين مصر والنوبة قبل الفتح العربى لمصر.

بيد أن النوبيين لم يحافظوا على العهد بعد أن علموا بعزل عمرو بن العاص، ووفاة الخليفة عمر، فأرسلوا سراياهم إلى الصعيد فخرجوا وأفسدوا. واستعد عبد الله بن أبى السرح الذى خلف عمرًا فى ولاية مصر لملاقاتهم، رغبة منه فى

تقليد الفتوحات التى قام بها سلفه ومنافسه عمرو[٢١]. وتمكن جيش ابن أبى السرح من التوغل جنوبًا حتى دنقلة عاصمة المملكة المسيحية الشمالية «مقُرَّة» سنة ٦٥٢م وحاصرها حصارًا شديدًا واستخدم المنجنيق فى ضرب المدينة فخربت كنيستهم. ويقول المقريزى نقلاً عن ابن سُلَيمْ الأسوانى فبهرهم أى (النوبيين) ذلك وطلب ملكهم واسمه قليدوروث (قليدور) الصلح وخرج إلى عبد الله وأبدى ضعفًا ومسكنة وتواضعًا فتلقاه عبد الله ورفعه وقربه...» وقرر القائد العربى عقد صلح عرف باسم البقط[٢٢]، مؤداه أن يدفع ملك النوبة لبيت مال المسلمين ٣٦٠ رأسًا من الرقيق، ووعده عبد الله بن سعد بهدية سنوية من حبوب وملابس لما شكا له الملك النوبى قلة الطعام فى بلده. وكتب عبد الله بن سعد للنوبيين عهدًا يعتبر أساسًا للعلاقات بين مصر الإسلامية والنوبة المسيحية. وقد نص فيه على حدود معلومة للملكة التى عقدت الصلح مع المسلمين، وتمتد من أسوان شمالاً إلى حد أرض علوة جنوبًا أى إلى منطقة الأبواب (كبوشية الحالية). وبهذا لا يشمل الصلح دولة علوة المسيحية لعدم وصول جيوش المسلمين إليها، فضلاً عن أن العقد لم يشر إلى البجة.

وينص هذا العقد كذلك على تأمين أهل النوبة وتأكيد بعدم محاربتهم مادامو قائمين على تنفيذ الشروط التى بينهم وبين المسلمين، ومنها: إرسال ٣٦٠ رأسًا من أفضل رقيق بلدهم، وحفظ من نزل بلدهم من مسلم أو معاهد، وحفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتهم، ولا يلتزم المسلمون بدفع عدو أو مغير على بلادهم [٢٣].

ومما يلفت النظر فى هذا العقد أنه نص على ما يدفعه النوبيون على حين أنه لم يلزم المسلمين بدفع شىء لهم أما ما جرى عليه العرف من إرسال كمية من الحبوب والملابس إلى النوبيين، فهو نتيجة اقتناع عبد الله بن سعد بحاجتهم إليها لفقر بلادهم، فصار هذا التقليد رسمًا اتبعه كل من جاء بعده من ولاة المسلمين.

ويرى بعض المؤرخين أن هذا الصلح جعل النوبيين والمسلمين على قدم المساواة فلا غالب هناك ولا مغلوب بدليل ما يدفعه المسلمون من أشياء مساوية تقريبًا لما يدفعه النوبيون وقد تزيد، وأنها مصلحة متبادلة [٢٤]، وهى أشبه بمعاهدة تجارية.

وعلى الرغم مما لهذا الرأى من وجاهة تؤيدها الوقائع التاريخية فإن عدم التزام المسلمين بدفع شىء رسميًا فيه من الدلالة ما يوحى - ولو من وجهة النظر الإسلامية - بادعاء نوع من السيادة فى بلاد النوبة. وأنه على الرغم من النصر الحربى الذى ناله المسلمون فى بلاد النوبة ووصولهم إلى عاصمتهم دنقلة، فإن المسلمين لم يطبقوا القواعد التى طبقوها على البلاد التى فتحوها عنوة. وربما كان لفقر البلاد وسوء حالتها الاقتصادية أثر فى إقناع المسلمين بعدم احتلالها، ولا بأس من أن تجاورهم دولة مسيحية لا يخشون خطرها، على حين أنه كان لا يزال يواجه المسلمين فى المراحل الأولى للتوسع الإسلامى مشاكل كثيرة داخلية وخارجية آثروا التفرغ لها وتثبيت أقدامهم فى البلاد التى فتحوها، والتغلب على محاولات البيزنطيين لاسترداد بعض ما احتله المسلمون.

ثم إن المعاهدة ضمنت للمسلمين فتح النوبة للتجارة والسماح لتجار المسلمين بزيارة بلادها على ألا يقيموا فيها (٢٥). بيد أن ولاة المسلمين لابد توقعوا أثر الدور الذى يقوم به تجار المسلمين - وهم عنصر نشيط - فى نشر الدعوة الإسلامية التى لا تفرض بحد السيف بل بالحجة والبرهان، هذا فضلا عن شرط حفظ المسجد الذى بناه المسلمون بمدينة دنقلة، وهو يدل على مبلغ حرص المسلمين على نشر ديانتهم. وربما كانت الإشارة إلى وجود قيام النوبيين بتعهد المسجد وتنظيفه ما يدل على شىء من الاطمئنان إلى ما سوف يقوم به النوبيون فى المحافظة على هذه الشعيرة الإسلامية الوحيدة فى النوبة المسيحية. وليس من المعروف تمامًا تاريخ بناء هذا المسجد، والراجح أن بناءه سابق لحملة عبد الله ابن سعد، بناه التجار المسلمون الذين لم تنقطع صلتهم بوادى النيل، ولو صح هذا الإسلام يكون قد أخذ فى الامتداد نحو بلاد النوبة فى عصر مبكر سبق التوسع الحربى. ولم يلتزم المسلمون بالدفاع عن النوبيين إذا هاجمهم عدو خارجى، لما يعرفه المسلمون عن طبيعة بلادهم الوعرة ومجاورتها لمملكة مسيحية أخرى من ناحية الجنوب (علوة) ومجاورتها لشعب البجة من ناحية الشرق إذ لا يخلو الأمر من قيام عداء بينهم جميعًا لأسباب داخلية لا يهم المسلمين الدخول فيها وتكبد خسائر فى الرجال والأموال. خصوصًا وأن النوبة لم تدخل بعد فى الإسلام.

وعلق بعض المؤرخين العرب على هذه المعاهدة: فقال البلاذرى[٢٦] «ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق، إنما هى هدنة بيننا وبينهم». ويمكن أن يفسر هذا العقد بأنه معاهدة حسن جوار يحقق للمسلمين الاطمئنان على سلامة حدودهم من ناحية الجنوب، وفتح البلاد للتجارة، والحصول على سواعد النوبة القوية فى خدمة الدولة، وحفظ مصالح المسلمين وحريتهم الدينية، ونشر الثقافة الإسلامية فى بلاد النوبة بالطرق السلمية. ومهما يكن من أمر هذه المعاهدة، فإنها ظلت تمثل نوعًا من الاتصال الدائم بين المسلمين والنوبيين المسيحيين مدة ستة قرون[٢٧].

* * *

ومن الملحوظ فى هذه المعاهدة أن البجة[٢٨] لم يرد عنهم نص فيها، ويرجع هذا كما يقول ابن عبد الحكم [٢٩]، إلى عدم اكتراث عبد الله بن سعد بهم. غير أنهم ما لبثوا أن أغاروا على صعيد مصر قرابة سنة ٧٢٥م فصالحهم ابن الحبحاب وكتب لهم عقدًا [٣٠] ينص على دفع ثلاثة مائة من الإبل الصغيرة، على أن يجتازوا الريف تجارا غير مقيمين، وألا يقتلوا مسلماً أو ذمياً وألا يؤووا عبيد المسلمين، ويظل وكيلهم فى الريف، رهينة فى يد المسلمين.

غير أنه لم يكد يمضى قرن على هذه المعاهدة حتى عاد البجة إلى شن الإغارات من جديد على جهة أسوان وكثر إيذاؤهم للمسلمين فرفع ولاة الأمور فى أسوان خبرهم إلى المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣م) فجرد عليهم حملة بقيادة عبد الله بن الجهم سنة ٢٣٣هـ (٨٤١م)، فكانت له معهم وقائع انتهت بموادعتهم وكتابة عقد جديد بينه وبين رئيسهم كنون بن عبد العزيز[٣١]، ومن أهم شروطه:

١ـ أن تكون بلاد البجة من حد أسوان إلى حد ما بين دهلك (مصوع) وباضع (جزيرة الريح) ملكا للخليفة، وأن كنون بن عبد العزيز وأهل بلده عبيد لأمير المؤمنين على أن يبقى كنون ملكًا عليهم.

٢ـ أن يؤدى ملك البجة الخراج كل عام مائة من الإبل أو ٣٠٠ دينار لبيت المال.

٣ـ أن يحترم البجة الإسلام ولا يذكروه بسوء، وألا يقتلوا مسلمًا أو ذميًا حرًا أو عبدا فى أرض البجة أو فى مصر أو النوبة، وألا يعينوا أحدًا على المسلمين.

٤- إذا دخل أحد من المسلمين فى بلادهم للتجارة أو الإقامة، أو مجتازا للحج، فهو آمن لآخر حدهم.

٥- إذا دخل البجة صعيد مصر مجتازين، أو تجارا لا يظهرون سلاحا ولا يدخلون المدائن والقرى.

٦- ألا يهدموا شيئا من المساجد التى ابتناها المسلمون بصيحة وهجر.

٧- وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم من البجة.

ويختلف هذا العقد كثيرًا عن عقد عبد الله بن سعد لملك النوبة. وموضع الأهمية هنا أن بلاد البجة حتى «مصوع» أضحت جزءًا من الدولة الإسلامية، ويطبق عليها شروط البلاد التى تفتح عنوة، بدليل فرض الخراج. ثم إن شرط عدم التعرض للمسلمين بأذى سواء فى بلاد البجة أو النوبة فضلا عن شرط حفظ المساجد القائمة فعلا فى بلاد البجة، وجمع صدقات من أسلم من البجة دليل على دخول الإسلام فى تلك الجهات وإقامة بعض المسلمين بها. فكيف إذًا شق الإسلام طريقه إلى أرض البجة؟ (٣٢) يبدو أن جماعات عربية وبخاصة من بلى وجهينة نزحت إلى هذه الجهات للتجارة عقب الفتح العربى لمصر. وليس من المستبعد أن ينشر أفرادها الإسلام بصفة جزئية فى منتصف القرن السابع الميلادى وفى رواية لابن حوقل أن أفراد من البجة «أسلموا إسلام تكليف وضبطوا بعض شرائط الإسلام وظاهروا بالشهادتين ودانوا ببعض الفرائض(٣٣) ولهذا سامحهم عبد الله بن سعد ولم يحاربهم.

وفى نهاية القرن السابع الميلادى عبرت جماعة من عرب هوازن البحر الأحمر واستقرت فى أرض البجة حيث عرفوا باسم الحلانقة، ثم انتقلت إلى منطقة تاكة ويرى بول أن هؤلاء الحلانقة كانوا أول من استقر من العرب المسلمين فى الوطن البجاوى(٣٤).

ويقال إن جماعات من الأمويين لجأت إلى بلاد البجة فى منتصف القرن الثامن الميلادى هربًا من مذابح العباسيين، واستقر عدد منهم فى ميناء باضع

(جزيرة الريح) [٣٥]. وفضلا عن هذا فإن الأبحاث الأركيولوجية أثبتت وجود جاليات إسلامية فى منطقة خور نبت الواقعة على مسافة ٧٠ ميلا غربى سواكن، إذ عثر على شواهد قبور عربية يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثامن الميلادى (٧٦٠م) ودل البحث الأثرى كذلك على وجود مسجد فى سنكات يرجع تاريخ بنائه إلى عام ٨٣١م[٣٦].

ويرى بلوس Bloss أنه بعد الفتح العربى لمصر هاجرت جماعات عربية على طول الساحل الإفريقى للبحر الأحمر واستقرت فى أرض البجة واختلطت بهم وتزوجت من بناتهم على الرغم من أن موجة الفتوح الإسلامية كانت لاتزال على شدتها على طول ساحل البحر المتوسط[٣٧].

وفى رواية لابن حوقل أن جماعات من عرب الحوف وبخاصة من قيس عيلان قامت بهجوم على البجة لتعديهم على أهل مدينة فقط قبل أن تغزوهم قوات ابن الجهم بقرابة ٣٠ سنة، ولا يبعد أن يكون هؤلاء استقروا فى العلاقى حيث توجد آثارهم. ويضيف ابن حوقل إلى أن بعض الذين اشتركوا فى حملة ابن الجهم ضد البجة آثروا البقاء فى العلاقى حيث بهرتهم معادن الذهب، ثم لحقت بهم ـ فى الوقت نفسه ـ جماعات من أهل اليمامة، بسبب ضغط جماعات عربية أخرى.

ولم يكد يمضى أكثر من ست سنوات على حملة ابن الجهم على البجة حتى وفدت جماعات من ربيعة وجهينة سنة ٢٢٨هـ (٨٣٧م) إلى العلاقى بعد أن وصلتها أنباء المعادن التى تحويها تربة هذا الوادى[٣٨].

ومما لاشك فيه أن هذه الجماعات الإسلامية المختلفة تركت لونًا من التأثير فيمن اختلطت بهم من البجة، بل إن بعضهم تخلف فى بلاد البجة وتعلم اللغة البجاوية ليسهل عليه التعامل مع البجاويين والتأثير فيهم وفى الدليل على ذلك أن زكريا بن صالح المخزومى من سكان جدة وعبد الله بن إسماعيل القرشى قاما بترجمة عقد ابن الجهم إلى اللغة التبداوية [٣٩].

وإذا كانت الحملات الحربية التأديبية التى وجهها ولاة مصر ضد البجة أتاحت الفرصة لبعض الجماعات العربية للتعرف على خصائص البيئة البجاوية

فاستقرت فيها واختلطت بسكانها فضلا عن وضع هذه الجهات من الناحية الرسمية ضمن النفوذ الإسلامى، فإن ثمة حملات حربية وجهها ولاة مصر المسلمون إلى بلاد النوبة كذلك لمثل هذه الغرض، وكانت هذه أيضا فرصة لبعض الجماعات العربية للاستقرار إلى جوار النوبيين والاختلاط بهم وبخاصة فى منطقة النوبة السفلى. وترجع أسباب هذه الحملات الإسلامية نحو النوبة ـ فى الغالب ـ إلى امتناع النوبيين عن دفع البقط. على أن ولاة مصر تمسكوا بهذا البقط وشروطه لما فيه من معنى لبسط نفوذهم على تلك الجهات، وكانوا من ناحيتهم لا يتأخرون فى مهاجمة النوبة كلما ماطلت أو ساومت فى دفع البقط. وربما كان البقط فى ذاته حملا ثقيلا ضاق به النوبيون ذرعًا لما استتبعه من إعداد الرقيق الذى يرسل شخصيًا للوالى أو لنائبه فى أسوان، أو إلى الوفد الذى كان يذهب لتسلم لعدد الرسمى، فضلا عن حرمان النوبة من أفضل عناصرهم فى الجيش والأرض وذهابه للخدمة فى بلاط الخليفة أو الوالى فى مصر، ولم تخل عملية إعداد الرقيق سنويا من صعوبة لاضطرار النوبيين لشن الإغارات على جيرانهم للحصول على العدد المطلوب أو تعويضه من أبنائهم فيقول البلاذرى(٤٠)، «وقد ادعوا (النوبيون) حديثًا أنه ليس يجب عليهم البقط لكل سنة، وأنهم كانوا طولبوا بذلك فى خلافة المهدى، فرفعوا إليه أن هذا البقط مما يأخذون من رقيق أعدائهم فإذا لم يجدوا منه شيئًا، عادوا على أولادهم فأعطوا فيه منهم بهذه العدة»، وفى كلتا الحالتين استنزاف قوى النوبيين، ولهذا حاولوا التخلص من هذه التبعية المضطرية للدولة الإسلامية.

ومع هذا فإن النوبيين ظلوا يؤدون البقط سنويا ويدفع لهم ما يقابله من جهاز وكانوا إذا عجزوا عن دفع البقط يرغمهم ولاة المسلمين القريبون من بلادهم على دفعه بشن الإغارات عليهم، والامتناع عن إخراج الجهاز إليهم حتى إذا كانت أيام الخليفة المعتصم بالله (٨٣٣ ـ ٨٤٢م) وعظيم النوبة وقتذاك زكريا بن يوحنس (يوحنا) أنكر عليه ابنه وولى عهده جورج (فيرقى) بذل الطاعة للمسلمين واستعجزه فيما يدفع، وطلب إليه عصيانهم وشن الحرب عليهم. وامتنع النوبيون فعلا عن إرسال البقط مدة أربعة عشر عامًا واجه النوبيون خلالها ضغطًا حربيًا

متواصلا من جانب ولاة الصعيد الأقصى. غير أن زكريا رأى أن يوفد ابنه جورج إلى بلاط الخليفة فى بغداد ليعاين بنفسه قوة المسلمين ومدى استعداد النوبة لمقاومتهم «حتى يحاربهم على خبرة» أو يحاول كسب ود المسلمين وعطفهم[٤١]. فشخص جورج إلى بغداد، وأتاحت له هذه الرحلة فرصة التعرف على مدى قوة المسلمين، «فبهره كثرة الجيوش وعظم العمارة» وأدرك ألا طاقة له بمخالفتهم، لا سيما وأن المعتصم أحسن وفادته وأكرمه[٤٢] وتم الاتفاق[٤٣] على أن يدفع بقط سنة كل ثلاث سنين على ألا ينقص المسلمون ما سبق أن تعهدوا بدفعه من حبوب وثياب وغيرها. ولبى الخليفة طلب ولى عهد النوبة بالإفراج عن المسجونين النوبيين ولم يجبه إلى إزالة المسلحة التى أقامها المسلمون بمدينة القصر[٤٤].

غير أن البجة عادوا إلى الفتنة، فأغاروا على الصعيد وامتنعوا عن دفع الخراج وقتلوا كثيرا من المسلمين بمناجم الذهب بالعلاقى، وكتب عامل البريد فى مصر إلى الخليفة المتوكل ٢٣٢هـ - ٢٤٧هـ (٨٤٧ - ٨٦١م) فندب لحربهم محمد بن عبدالله القمى سنة٢٤١هـ (٨٥٤م). وكتب الخليفة إلى واليه على مصر عنبسة بن إسحاق الضبى بأن يمده بالرجال. فسار القمى فى عشرين ألفا من الجند والمتطوعة [٤٥].. وسار إلى أسوان وأتى العلاقى فأخذ من ربيعة ومضر واليمن ثلاثة آلاف رجل من كل بطن ألف رجل[٤٦]». ووافته المراكب من البحر حاملة المؤن إلى ميناء عيذاب. ولجأ ملك البجة إلى المطاولة لتجويع المسلمين، غير أن القمى لجأ إلى حيلة حربية بارعة [٤٧]، انهزم بسببها البجة، وأثخن فيهم القمى حتى طلب ملكهم على بابا [٤٨] الصلح، على أن يدفع الخراج لما سلف ولما يأتى، وألا يمنعوا المسلمين من العمل فى المعدن. فصالحهم القمى «على أن يطأ على بابا بساط الخليفة فى سر من رأى» حيث أكرمه الخليفة [٤٩].

وعلى الرغم من أن على بابا ظل على وثنيته ولم يعتنق الإسلام [٥٠]، فإن صلحه مع العرب سنة ٨٥٤م كان تأكيدًا لما سبق أن تعاقد عليه العرب والبجة واستغلال مناجم الذهب والزمرد[٥١]. وبات العرب متمتعين بحماية الدولة الإسلامية وعين عليها وال من قبل الخليفة [٥٢]. فاجتذبت هذه المعادن إليها جماعات عربية قامت على استخراجها والاتجار فيها. واحتكر العرب هذه

الصناعة، لأن البجة - فيما يبدو - لم يهتموا كثيرًا باستغلالها (٥٣)؛ وربما كان الدافع لولاة مصر على التمكين للعرب من استغلال هذه المعادن مشاطرتهم أرباحها. ويظهر أن البجة اطمأنوا إلى العرب الذين عاشوا إلى جوارهم واختلطوا بهم، فقل اعتداؤهم على المسلمين، مما أدى إلى هجرة جماعات كثيرة منهم إلى أرض المعادن بعد أن كشف عن كثير من مناجمها (٥٤). ولا ريب في أن الحملات الحربية التي وجهها العرب إلى أرض البجة أتاحت الفرصة لكثير من الجماعات العربية للتخلف والاستقرار فيها للمشاركة في خيراتها بعد أن راجت سوقها (٥٥).

ازداد إقبال العرب إذًا على أرض المعادن وغيرها منذ عهد الخليفة المعتصم (٨٣٣ -٨٤٢م)، لأن الخليفة استكثر من الجند الأتراك وأثبتهم في الديوان وأمر واليه في مصر كيدر بن نصر الصِّفدى بإسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم(٥٦). وأدى هذا القرار الخطير إلى ثورة عربية ضد الوالي وانتهت بأسر زعماء الثورة من العرب (٥٧). ومنذ عزل عنبسة بن إسحاق في عهد المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١م) لم يعد حكام مصر يختارون من العرب، بل من الأتراك الذين يكرهونهم ويحقدون عليهم (٥٨). وبهذا فقد العرب نفوذهم القديم (٥٩). وعانوا ضيقًا اقتصاديًا شديدًا بسبب ما فرض عليهم من أتاوات وضرائب مختلفة ابتدعها ابن المدبر والي الخراج في مصر من سنة ٨٥٢م إلى سنة ٨٦٧م. وأثارت التدابير المالية الجديدة حفيظة العرب على الأتراك فقاموا بعدة ثورات في أنحاء مختلفة قمعها الأتراك بعنف وقسوة، وزج بزعمائهم في السجون، وفرضت عليهم غرامات باهظة (٦٠).

كان لهذا الضغط السياسي والاقتصادي أسوأ الأثر في نفوس العرب، وبدأت جماعات كثيرة منهم تسعى للرحيل والهجرة. ولم يكن أمامهم إلا الانسياب جنوبًا وغربًا بعيدًا عن ضغط الأتراك في مصر(٦١). وحانت لهم هذه الفرصة عقب تأسيس الدولة الطولونية على يد أحمد بن طولون سنة ٨٦٨م حينما أعلن عن إعداد حملة حربية إلى بلاد النوبة وأرض البجة بقيادة أبي عبدالرحمن عبدالله ابن عبد الحميد العمري(٦٢)، فاشترك فيها كثير من العرب معظمهم من ربيعة وجهينة.

وبهذا تبدأ مرحلة جديدة من مراحل انتشار الثقافة الإسلامية إلى ما وراء حدود مصر الجنوبية، وروادها من أولئك الساخطين على الحكم التركى فى مصر والمغامرين الذين يجرون وراء الثروة حيثما وجدوا إليها سبيلا. ويظهر من رواية المقريزى فى كتابه المقفى الكبير(٦٣) أن هدف هذه الحملة لم يكن مجرد تأديب البجة كما يقول ابن خلدون(٦٤)، أو تأديب النوبيين كما يزعم ماكمايكل(٦٥)، بل كان هدفها الكشف عن مناطق جديدة لمعدن الذهب فى أرض البجة، والبحث عن مهاجر جديدة تتسع لهم بعد أن ضاقت بهم مصر(٦٦).

تقدم العمرى جنوبيًا سنة ٨٦٨م متجاوزًا العلاقى إلى إقليم شنقير(٦٧). واهتدى إلى مواقع جديدة للتبر تعترف بالشلة قرب شنقير(٦٨). وتمكن من الحصول على حق إقامة قواعد على النهر للحصول على المياه الكافية لحياة مستقرة فى هذا الإقليم، بعد تغلبه على قوات جورج الأول ملك القوبة (٦٩).

غير أن بعض القبائل العربية فى بلاد الشام وبخاصة سعد العشيرة وقيس عيلان خرجت على العمرى، بعد أن حصلوا من النوبيين على حق الإقامة الدائمة فى منطقة مريس ما بين أدندان وجبل عدة. فانهزم العمرى وانسحب بقواته شمالا إلى منجم قريب من منطقة مريس(٧٠)، واتسعت أعمال العمرى وامتد نفوذه شرقا حتى عيذاب وشمالا إلى أسوان، فكثرت بهم العمارة فى البجة حتى صارت الرواجل التى تحمل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب التى تحمل من القلزم إلى عيذاب (٧١).

ويظهر أن العمرى كان يهدف إلى إقامة إمارة إسلامية تحت زعامته فى هذه المنطقة، بدليل أن ابن طولون شك فى نوايا العمرى نحوه وخشى ازدياد نفوذه فى هذه البلاد فيطمع فى مصر. فأرسل ابن طولون جيشًا لمحاربةالعمرى بقيادة صباح بن حركام البابكى. غير أن العمرى تغلب عليه وهزمه ولم يكتف بهذا، بل تقدم بجيوشه شمالا حتى أدفو سنة ٨٦٩م، لكنه آثر العودة إلى المناجم(٧٢)، وهناك خرجت عليه قبيلة ربيعة ونشبت الحرب بينها وبين قوات العمرى التى ظلت على ولائها له، وتمكن العمرى من هزيمتها. غير أن العمرى ما لبث أن قتل على يد أحد أفراد قبيلة مضر(٧٣). وبهذا انتهت قصة هذا المغامر الشجاع.

واستقر كثير من عرب ربيعة وجهينة وغيرهم حول أسوان. غير أن الشقاق ما لبث أن دب فى صفوفهم وبدأ صراع عنيف بين هؤلاء جميعا بعد موت العمرى على امتلاك المعادن بالعلاقى، وتمكن فخذ من ربيعة أن يخرج من خالفه من العرب بعد أن استمال إليه البجة «وتصاهروا إلى رؤساء البجة وبذلك كف ضرهم عن المسلمين (٧٤).

وإذا كان اليعقوبى وهو المؤرخ المعاصر لمعظم هذه الأحداث (٨٧١م) فاته أن يشير إلى أثر هذه الجماعات الإسلامية المختلفة. وهم كثيرون كما قال بأرض البجة (٧٥). ودورهم فى نشر الثقافة الإسلامية بين البجة، فإن أبا الحسن المسعودى الذى زار مصر قرابة ٣٣٢هـ (٩٤٠م) أى بعد حملة العمرى بقرابة سبعين سنة فقط، يتحدث عن الأثر الواضح لهذه الجماعات العربية الإسلامية فى نشر الثقافة الإسلامية فى إقليم البجة وبلاد النوبة كذلك. ويبدو من رواية المسعودى(٧٦) أن الإسلام ظهر وانتشر بعد أن سكن جماعة من المسلمين أرض البجة، وممن سكن مناجم الذهب والعلاقى وعيذاب عرب ربيعة الذين اختلطوا بالبجة وتزوجوا ببناتهم، فاشتد ساعد البجة على من ناوأهم من النوبيين وغيرهم، كما اشتد ساعد ربيعة بالبجة على من خالفها من العرب، وتحالفت ربيعة مع البجة، وكان أميرهم زمن المسعودى أبا مروان بشر بن إسحق بن ربيعة، الذى بلغ عدد جيشه ثلاثة آلاف فارس من ربيعة وأحلافها من العرب وثلاثين ألف حراب على الإبل من الحدارية (٧٧)، وهم المسلمون من سائر البجة. والراجح أن جماعة من عرب ربيعة نجحوا فى وضع أساس أول إمارة عربية إسلامية بالعلاقى بعد أن استمالوا إليهم البجة وجماعات عربية من قبيلتى مضر وتميم فخضع لهم الجميع ويقول المقريزى: «واستولوا على معدن الذهب العلاقى فكثرت أموالهم واتسعت أحوالهم وصارت لهم مرافق ببلاد البجة واختطوا قرية تعرف بالنماس وحفروا بها آبارًا (٧٨)». ويتحدث المسعودى عن وصول الإسلام جنوبًا حتى جزيرة سواكن حيث تسكن جماعة من البجة اعتنقت الإسلام تعرف باسم الخاسّة (٧٩).

* * *

أما بلاد النوبة فإن حديث المسعودى واضح تمامًا ولا سيما فيما يتعلق بتسرب بعض الجماعات العربية من مصر إلى جزئها الشمالى المعروف باسم مريس، وما استتبع هذا التسرب العربى الإسلامى من ظهور بعض الأفكار الجديدة التى لاعهد للنوبيين بها من قبل. فيشير المسعودى[٨٠] إلى جماعات من عرب قحطان وربيعة وقريش سكنوا أسوان، ثم أخذوا فى التقدم جنوبيًا فى أرض مريس حيث اشتروا أراضى من النوبيين استغلوها لصالحهم، وأثارت هذه الحالة ثائرة بعض ملوك النوبة [٨١]، وحاولوا تسوية هذه المشكلة وديا، وحجتهم فى ذلك. هى أن النوبيين عبيد للملك، ولاحق لهم فى بيع هذه الأراضى، لأنها ملك خاص للملك ولا أملاك لهم. ولما أحيلت هذه المشكلة إلى حاكم أسوان وشيوخها وأهل العلم بها للفصل فيها لجأ العرب إلى حيلة تحفظ لهم حقوقهم فى بلاد النوبة، فأوعزوا إلى النوبيين الا يعترفوا لملكهم بالرق ففعلوا، ومضى البيع وتأكدت حقوق العرب المادية فى أرض مريس، وتوارثوا هذه الأراضى جيلا بعد جيل. ومعنى هذا أن العرب أضحى لهم حق الإقامة الدائمة فى هذه الجهات.

غير أن ثمة ظاهرة تستحق الالتفات وهى أن هؤلاء العرب المسلمين كانوا يدفعون خراج هذه الأراضى لملك النوبة المسيحى[٨٢]. ويدل هذا على اعتراف هذه الجماعات العربية بامتداد نفوذ هؤلاء الملوك إلى هذه المنطقة التى يعيشون فيها، وتنظيم العلاقات الاقتصادية بينهم وبين ملوك النوبة [٨٣]. غير أن هذا النفوذ لم يعد أن يكون اسميًا فقط. ذلك أن سكانها من النوبيين أنفسهم أصبحوا أحرارًا غير عبيد شأنهم فى هذا شأن العرب الأحرار الذين اختلطوا بالنوبيين وتأثروا بهم وأخذوا عنهم بعض أفكارهم ونظمهم الاجتماعية. ولم يعترف لملك النوبة بالعبودية سوى أهل مقرة الأصليين، وهم من يسكنون إلى ما وراء الجنادل الثانية جنوبيًا، وهى المنطقة التى يحرم على العرب الدخول فيها إلا للتجارة «وصارت النوبة أهل مملكة هذا الملك فى نوعين: نوع ممن وصفنا أحرار غير عبيد، والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد وهم من سكن النوبة فى غير هذه البلاد المجاورة لأسوان». ومعنى هذا أن قرابة نصف سكان مملكة مقرة، وهم المريسيون لم تعد تربطهم بملكهم تلك الرابطة القديمة على أساس العبودية والطاعة العمياء له.

لكن هل مارس العرب حقوقهم الاقتصادية فى بلاد النوبة من أسوان، أو أنهم انتقلوا إلى بلاد النوبة لاستغلال أملاكهم؟ على الرغم من أن نص المسعودى لايعطى إجابة صريحة، إلا أن ابن سليم (٩٧٥م) يشير فى صدد حديثه عن النوبة أن المنطقة من أسوان حتى الشلال الثانى هى الجهة التى يتصرف فيها المسلمون ولهم فيها أملاك[٨٤]. هذا وتؤيد الأبحاث الأثرية فى منطقة مريس وجود جاليات عربية إسلامية مستقرة فى هذه المنطقة. ذلك أنه عثر فى غير قليل من الأماكن بأرض مريس على كثير من الكتابات العربية يرجع تاريخ أقدمها الى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وتدل كثرة شواهد القبور المكتوبة بالخط العربى وتحمل أسماء عربية فى كل من تافه (٢١٧هـ - ٨٣٢م) وفى كلابشة (٣١٧هـ - ٩٢٩) على حياة هادئة مطمئنة لجاليات عربية إسلامية فى بلاد مريس[٨٥]. ويرى دى فيار أن تنقل الجماعات العربية المختلفة بين منطقة مريس وأرض البجة كان أمرًا مألوفًا، بدليل وجود كتابات عربية بالخط الكوفى على جدران قلعتين من دير يهيب بالقرب من منجم للذهب فى هذه المنطقة. ويرجع تاريخ هذه الكتابات إلى القرن العاشر الميلادى (٩٨٢ - ٩٨٣م)، فضلا عن كتابات أخرى فى نيزارى على بعد ٣٠ كيلومترًا جنوبى دير يهيب. ويرجع تاريخها إلى هذا العهد كذلك[٨٦].

لاشك أن اختلاط هذه الجماعات العربية المهاجرة بالعناصر النوبية والبجاوية، أدى إلى تأثرهم بالدماء العربية التى كانت تتجدد باستمرار مع توالى وصول عناصر عربية جديدة إلى هذه الجهات، بسبب اضطراب بعض أجزاء العالم الإسلامى وقيام الفتن والثورات. ولم تسلم مصر أواخر عهد الإخشيديين (٩٣٥ - ٩٦٩م) من التعرض لأخطار خارجية. فالفاطميون أخذوا يطرقون أبواب مصر من ناحية الغرب بعدأن ثبتوا أقدامهم فى بلاد المغرب [٨٧] وقام النوبيون كعادتهم بإغارة على الواحة الخارجة سنة ٩٥١م وأتبعوها بحملة أخرى على أسوان سنة ٩٥٦م حيث قتل ملك النوبة جمعًا من المسلمين، فخرج إليه محمد بن عبدالله الخازن على عسكر مصر من قبل أنوجور بن الإخشيد (٣٤٥هـ - ٩٥٧م) فهزم النوبيين وتقدم جنوبًا حتى إبريم وسبى كثيرًا من أهلها وقدم بهم إلى مصر[٨٨] بيد أن هذه الهزيمة لم تضع حدًا لهجمات النوبيين على حدود مصر من

ناحية الجنوب فتجددت إغاراتهم على صعيد مصر زمن كافور، وتقدموا شمالا حتى إدفو منتهزين فرصة اضطراب الأحوال فى مصر، وقيام المجاعة فيها بسبب انخفاض مياه النيل وتعرضها من الشرق لتهديد القرامطة (٨٩) وليس من المستبعد أن تكون هذه الإغارات النوبية نتيجة لدعاية فاطمية واسعة الغرض منها إضعاف الإدارة المصرية وشغلها فى أكثر من جهة حتى لا تركز جهودها ضد الزحف الفاطمى من الغرب (٩٠) ويظهر أن ملك النوبة امتنع عن دفع البقط.

***

ثم تأسست الدولة الفاطمية فى مصر سنة ٩٦٩م فأرسل جوهر الصقلى قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى، أحمد بن سليم الأسوانى مبعوثًا إلى جورج الثانى ملك النوبة، يطلب إليه دفع البقط (٩١) ولابد أن الملك جورج شعر بالوضع الجديد فى مصر بقيام الدولة الفاطمية، فعاد إلى دفع البقط أما ما يقال من أن جوهرًا دعا ملك النوبة إلى اعتناق الإسلام فيرجحه أن الدولة الفاطمية قامت على مبدأ الدعاية والتوسع، وليس من غير المحتمل أن يكون جوهر فكر فى هذه الناحية من النوبة وفى أن يمتد الإسلام إليها على المذهب الشيعى.

وعلى الرغم من أن الملك جورج لم يقبل دعوة جوهر، وكذلك على الرغم مما سبق هذا من اضطراب العلاقات النوبية المصرية أواخر عهد الإخشيديين، فقدازداد رسوخ قدم الجماعات العربية ببلاد النوبة السفلى فيذكر ابن سليم: أن المسلمين يتمتعون بكامل استقلالهم فى هذه المنطقة التى استقروا فيها حيث توجد أملاكهم(٩٢)، فضلا عن أن كثيرًا من النوبين أنفسهم اعتنقوا الإسلام رغم جهلهم باللغة العربية (٩٣) والراجح أن العرب تعلموا لغة النوبيين بعد أن اختلطوا بهم واستطاعوا بذلك نشر ثقافتهم الإسلامية فى النوبة (٩٤).

وتدل الأبحاث الأثرية التى قام بها دى فيار فى وجهة مريس على تأثير هذه الجماعات العربية فى النوبيين، إذ أنه عثر فى مقابر نوبية على كتابات باللغة القبطية تحمل تأريخًا مزدوجًا من التقويمين القبطى والهجرى، وترجع معظم هذه الكتابات إلى القرن العاشر الميلادى (٩٠٦ ـ ٩٠٧م) ثم تظهر بعد هذا كتابات من

هذا النوع أيضا لا تحمل سوى التأريخ الهجرى، وهى جميعا ترجع إلى نفس هذا القرن[٩٥] ويتضح كذلك مما جاء فى ابن سليم عن مملكة علوة أن المسلمين يختلفون إليها للتجارة ولابد أن عددهم كان كبيرًا بدليل أنه أصبح لهم رباط خاص بهم يأوون إلية [٩٦].

ويتسم عهد الفاطميين فى مصر (٩٦٩) - ١١٧١م) بقيام علاقات دالة على حسن الجوار والمسالمة بين مصر الفاطمية والنوبة المسيحية غير أن هذا العهد شهد ميلاد إمارة عربية قوية اتخذت مدينة أسوان مركزًا لها، وامتد نفوذها جنوبيًا فى أرض مريس، وأنشأ هذه الإمارة زعيم من عرب ربيعة اسمه أبو مروان بشر بن إسحق[٩٧]، ثم لم يلبث النزاع أن نشب فى العلاقى وعيذاب بين بطون ربيعة ذاتها، وقتل بشر بن إسحق وخلفه على زعامة القبيلة ابن عمه أبو عبدالله محمد على المعروف باسم أبى يزيد بن اسحق واختلط عرب ربيعة بالنوبيين وتزوجوا ببنات رؤسائهم، فأضحت لهم مصالح مادية فى بلادهم، لانتفاعهم بنظام الوراثة المعروف عندالنوبيين، وهو توريث ابن البنت أو ابن الأخت.

والراجح أن هذه العشيرة كونت طبقة حاكمة خضع لها النوبيون من أهل مريس الذين زال عنهم السلطان الفعلى لملك النوبة المسيحى، لا سيما بعد أن تحول معظمهم إلى الإسلام ثم اعترفت الدولة الفاطمية بهذه الإمارة العربية النوبية، وذلك حين استعان الخليفة الحاكم بأمر الله بأبى المكارم هبة الله أمير ربيعة فى القبض على أبى زكوة [٩٨] الخارج على الدولة الفاطمية وهو يلوذ بالفرار من مصر من ناحية الجنوب[٩٩] ونجح أبو المكارم فى القبض على أبى ركوة سنة ١٠٠٦م، ولذا كوفئ بلقب كنز الدولة وتوارث أبناؤه هذا اللقب «ولم تزل الإمارة فيهم وكلهم يعرفون بكنز الدولة [١٠٠]» وعرف بنو ربيعة ببنى كنز[١٠١] وقصد الكتاب والشعراء أمراء بنى كنز ومدحوهم، ومن أولئك الشديد أبو الحسن ابن عرام وأبو محمد الحسن بن الزبير[١٠٢].

ومن الطبيعى أن يحسب الأيوبيون، الذين خلفوا الفاطميين فى حكم مصر سنة ١١٧١م كل حساب لأبناء هذه الإمارة ويتضح هذا فى ثنايا العلاقات بين مصر الأيوبية زمن صلاح الدين والنوبة المسيحية ذلك أن الجند السودانيين فى

جيش الخليفة العاضد الفاطمى قاموا بحركة لإقصاء صلاح الدين من الوزارة العاضدية أواخر أيام الفاطميين، فجرد عليهم صلاح الدين حملة بقيادة شجاع الدين البعلبكى سنة ١١٧٢م ودارت بين الفريقين معارك عنيفة فى شوارع القاهرة انهزم بعدها الجند السودانيون إلى الصعيد(١٠٣).

وإذا كان كنز الدولة اشترك مع قائد صلاح الدين فى القضاء على حركة المتمردين السودانيين، فإن ولاء بنى كنز لم يلبث أن تحول ضد صلاح الدين ففى سنة ١١٧٢ - ١١٧٣م أرسل صلاح الدين أخاه توران شاه على رأس حملة لغزو النوبة وربما كان أحد أهداف هذه الحملة الإمعان فى القضاء على نفوذ بنى كنز، ظنا من صلاح الدين «أنهم شيعة للعلوية بمصر(١٠٤) غير أن هناك من المؤرخين من يرى أن صلاح الدين رغب فى فتح النوبة لتكون موئلا له ولأسرته إذا هاجمه نور الدين فى مصر(١٠٥) وربما كان صلاح الدين يفكر فى إيجاد بعض المكملات الاقتصادية لمشروع الاستقلال بمصر أو ربما كان لهذه الحملة دوافع أخرى تتصل بمشروع غزو اليمن، إذ أن صلاح الدين أراد أن تكون طريقًا قريبًا لبلاد اليمن، وتوغل توران شاه فى بلاد النوبة حتى إبريم، غير أن تقرير توران شاه إلى صلاح الدين جاء مخيبًا لذلك المشروع (١٠٦).

وإذا كانت أنباء هذه الحملة ليس فيها ما يدل على قيام توران شاه بعمل عدائى ضد كنز الدولة، فالمعروف أن صلاح الدين أقطع هذا الإقليم إلى أحد أمرائه وهو أخو أبى الهيجاء السمين ولهذا ثار كنز الدولة على صلاح الدين وجمع جيشا من النوبيين والعرب وهجم على أخى أبى الهيجاء وقتله (١٠٧) والراجح أن كنز الدولة كان على اتصال ببقايا العناصر العاملة على إعادة الدولة الفاطمية، فدعا للأمير دواد بن العاضد(١٠٨) غير أن هذه المحاولة لم تنجح واستطاع صلاح الدين القضاء على هذه العناصر الثائرة فى مصر وأرسل أخاه الملك العادل على رأس جيش هزم كنز الدولة وقبض عليه وقتله (١٠٩) وأدت هذه الهزيمة إلى رحيل بنى كنز عن أسوان (١١٠)، فلم تعد مركز إمارتهم، بل نقلوا مركز نشاطهم إلى الجنوب فى بلاد مريس واندمجوا اندماجًا تامًا فى سكانها (١١١).

***

ويفسر خروج النوبيين فى مصر على صلاح الدين حقيقة لا سبيل إلى تجاهلها ذلك أن صلاح الدين عزف عن استخدام النوبيين فى الجيش الأيوبى، واستبدلهم بعناصر شمالية، كردية وتركية وديلمية ولهذا قام النوبيون بعدة محاولات لإعادة سلطان الفاطميين ليستردوا مركزهم الذى كان لهم فى الجيش الفاطمى، غير أن موضع الأهمية هنا ليس تذمر النوبيين من النظام الجديد، بل إن وجود أعداد ضخمة منهم فى مصر فى هذا الوقت هو الظاهرة التى تسترعى الالتفات، وقد يكون لها ثمة أثر فى ضعف النوبة المسيحية واضمحلالها فمنذ أن فقدالعرب سلطانهم القديم فى الدولة الإسلامية على أيام المعتصم بالله، بدأ الولاة فى مصر يستخدمون عناصر غير عربية فى الجيش وكان ابن طولون أول من استخدم السودانيين فى الجيش الطولونى وبلغت عدتهم ٤٠ ألف سودانى(١١٢) وهو عدد لايستهان به، وأقطعهم إقطاعًا خاصًا عرف باسمهم(١١٣) وبلغ من كثرة عددهم حدًا استوجب معه تعيين حاجب خاص لصرف جراياتهم(١١٤) لكن كيف حصل ابن طولون على هؤلاء النوبيين للعمل فى جيشه؟يقول المقريزى إنه حصل عليهم بطريق الشراء (١١٥) ولو صح هذا فإن بلاد النوبة تعرضت لحملات عنيفة من جانب تجار الرقيق وخاطفيهم(١١٦).

وبهذا يمكننا أن نخرج باستنتاج مطمئن وهو أن من ضمن عوامل اضمحلال ممالك النوبة ما يمكن أن نسميه تبادل فى الجماعات والثقافات (١١٧) بين مصر الإسلامية والنوبة والمسيحية فخرج من النوبة جماعات نوبية مسيحية التحقت بجيش مصر ولفظت مصر بعض عناصر الشعب فيها ـ فى نظر ولاتها الأتراك ـ وهم جميعًا من العرب المسلمين فانسابوا إلى النوبة ثم أخذ هؤلاء يؤثرون تأثيرًا بشريًا وثقافيًا فيما تبقى لدى النوبة من عناصر نوبية مستقرة، على حين أن هذه العناصر النوبية النازحة إلى مصر لابد أن تكون تحولت إلى الإسلام، بدليل ما تردد فى بعض المراجع من «شكوى أهل مصر من ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بالجند السودانيين» (١١٨).

ولم تتوقف عملية جلب النوبيين للخدمة فى الجيش المصرى بعد وفاة ابن طولون، بل استمرت فى جيش الإخشيديين وبخاصة فى عهد كافور(١١٩) النوبى ثم

ازدادت أعدادهم فى عهد الفاطميين لا سيما فى عهد المستنصر بالله، وشجعت أم المستنصر وهى سودانية الأصل على جلب أبناء جلدتها، وبلغت عدتهم حسب رواية ابن ميسر ٥٠ ألفًا (١٢٠) هذا فضلا عن طوائف سودانية (نوبية) كثيرة اتخذت أسماء خاصة وسكنت حارات خاصة بها كذلك (١٢١) وشارك أولئك النوبيون فى حوادث الدولة الفاطمية، فاستعان بهم الحاكم فى القضاء على الثورات (١٢٢) واستعانت بهم أم المستنصر بالله على الأتراك (١٢٣) وتدخلت فئاتهم فى النزاع الذى نشب بين الخليفة الحافظ وابنه الأمير الحسن بسبب الخلاف على ولاية العهد(١٢٤) هذا وكان للنوبيات دور مهم فى الحياة المصرية فكثيرات منهن تخصصن فى تربية أولاد السلاطين وتنظيم الأفراح والأعياد وترتيب شئون الحريم السلطانى(١٢٥).

* * *

ومما لاشك فيه أن العناصر النوبية النازحة إلى مصر لم يقتصر دورها فى الحياة المصرية على ما سبقت الإشارة إليه من الانخراط فى صفوف الجيش المصرى أو ممارسة الأعمال الحرة فى أحيائهم الكثيرة المنتشرة فى القاهرة، أو العمل فى بيوت السلاطين والأمراء، بل قدر لبعض فئاتهم أن يشارك مشاركة إيجابية فى الحياة العربية الإسلامية فى مصر قبل أن ينتشر الإسلام فى بلادهم(١٢٦) فتشير المراجع العربية إلى بعض شخصيات نوبية ممن اشتغل بالعلوم الدينية والفقهية مثل يزيد بن أبى حبيب، أو ممن سلك طريق التصوف مثل ذى النون المصرى النوبى الأصل وتحية النوبية.

أما يزيد بن أبى حبيب، فأبوه أبو حبيب، واسمه سويد، كان من سبى النوبة الذين أسرهم العرب فى حملتهم الثانية على النوبة سنة ٦٥٢م ونشأ ابنه يزيد نشأة عربية إسلامية وقد أفادت يزيد صلته بعدد من صحابة رسول الله ﷺ الذين شهدوا فتح مصر وتابعيهم، فى أن أصبح محدثًا ومؤرخًا وفقيهًا كذلك وتتلمذ على يديه عدد من التلاميذ أضحوا من أشهر فقهاء مصر الأوائل منهم: الليث بن سعد وعبدالله بن لهيعة.

أما أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الملقب بذى النون المصرى فأصله من النوبة، ونشأ فى مصر فى القرن الثانى للهجرة وقد تلقى الموطأ عن بعض أصحاب مالك ابن أنس حين خرج إلى الحجاز حاجا ولما عاد ذو النون إلى مصر مال إلى حياة الزهد والتصوف[١٢٧] وقد أشبع فى نفسه هذه النزعة عن طريق الرحلة إلى المناطق النائية فى صحارى، الشام والعراق والمغرب وأوطان البجة وتوفى بالحيرة وحمل فى مركب إلى الفسطاط ودفن فى مقابر أهل المعافر سنة ٢٤٦هـ[١٢٨].

ويبدو تحول مسيحى النوبة إلى الإسلام فيما ذكره ابن الجوزى[١٢٩] عن صوفية عاشت فى مصر فى القرن الرابع للهجرة، تدعى تحية النوبية قال: «روى أبو عبدالرحمن محمد بن الحسين السلمى قال: سمعت المالينى الصوفى يقول: دخلت على تحية زائرا، فسمعتها من داخل البيت وهى تناجى وتقول فى مناجاتها: يا من يحبنى وأحبه، فدخلت إليها، وسلمت عليها وقلت: يا تحية هبى أنك تحبين الله تعالى، فمن أين تعلمين أنه يحبك؟ فقالت: نعم إنى كنت فى بلد النوبة، وأبواى كانا نصرانيين، وكانت أمى تحملنى إلى الكنيسة وتجىء بى عند الصليب وتقول: قبلى الصليب، فإذا هممت بذلك أرى كفًا تخرج فترد وجهى حتى لاأقبله، فعلمت أن عنايته بى قديمة».

وليس من المستبعد أن يكون للعناصر النوبية التى ذكرنا ـ فضلا عما قامت به فى مصر ـ أثر واضح فى نشر الإسلام والعروبة بين أهليهم فى بلاد النوبة ذاتها حين يعاودهم الحنين لزيارتهم كما هى عادتهم حتى الوقت الحاضر.

هوامش الفصل الخامس

(١) محمد عوض محمد: السودان ووادى النيل ص٢٨.

(٢) MacMichael, H. A.: A History of the Arabs in the Sudan, I. PP. 3 - 4.

اتخذ هؤلاء التجار هذه المراكز كنقط ارتكاز تبدأ منها قوافلهم إلى مراكز التجار الأساسية على النيل النوبى والنيل الأعظم. وكان لهؤلاء التجار وكلاء تجاريون فى كل المراكز التجارية حيث يستقبلون القوافل التى ترد إليها من دارفور وليبيا وقلب إفريقية.

(3)Mac Michael, H. A.: Cit. P. 4

(4)Hamilton. J. A., ed: The Anglo Egyptian Sudan From Within p. 42.

(٥) ابن خلدون: العبر، جـ١، ص١٧٦. تشير هذه الروايات إلى حملة قادها أبرهة ذو المنار بن ذى القرنين الحميرى على السودان وبلاد النوبة والمغرب حوالى أوائل القرن الأول قبل الميلاد، ثم إلى حملة أخرى قادها ابنه أفريقش إلى شمال إفريقيا. واستقرت فى بلاد النوبة جماعات حميرية، ولعل وجود العمامة ذات القرنين التى كانت شارة من شارات السلطة عند epaech نوباديا ينسر هذا الأثر الحميرى بدليل أن أبرهة عرف بالصعب ذى القرنين. انظر: MacMichael: op. cit. pp. 7 - 8 ويشير دى برسفال إلى حملة قادها أبو مالك بن شمر يرعش الحميرى إلى معادن الزمرد فى أرض البجة ومن المحتمل أن يكون لقى حتفه ومعظم رجال جيشه قرابة منتصف القرن الأول الميلادى/

Causin de Perseval, Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, I. P. 82.

هذا ويدعى سلالة ملوك البرنو الانتساب إلى سيف بن ذى يزن الحميرى انظر القلقشندى، جـ١، ص١١٧.

(6)Reid, j. A.: "some Notes on the Tribes of the Whit Nile Tribes, "SNR, XIII, part. II., 1930, P. 150

(7)Paul, A.: AHistory of the Beja Tribes of the Sudan. PP. 64 - 67

ويضيف بول أن هؤلاء الحضارمة عرفوا عند العرب الحدارية الذين استقروا فى إقليم العتباى فى الشمال، ثم اضطروا إلى الانتقال جنوبًا فى القرن الخامس عشر الميلاده : حيث أسسوا مملكة البلو (مملكة بنى عامر) فى إقليم طوكر . انظر المقريزى، المواعظ والاعتبار جـ١، ص١٩٥.

(8)MacMichael, H.A.: op. Cit. I. P.9

يقول ماكمايكل إن عبادة الشمس ظلت قائمة فى تالمس (كلابشة) حتى قرابة منتصف القرن السادس الميلادى؛ وهى العبارة التى كانت منتشرة فى جنوب بلاد العرب والمستعمرات الحميرية فى شمال الحبشة. أما عن الفن فيبدو أنه كان للسبئيين فيه بعض الأثر كما يبدو فى الطابق العلوى من كنيسة دنقلة. فهو يشبه الطراز الحبشى المتأثر بالفن السبئى هذا فضلا عن العمامة ذات القرنين كما سبق أوضحنا.

(9)Breasted, J. H.: A History of Egypt from the earliest times to ths Persian Conquest, pp. 25 - 26, 214 - 219. 388.

(10)Ibid,: op. cit. pp. 25 - 26.

(١١) بتلر: فتح العرب لمصر: تعريب محمد فريد أبو حديد، ص٢٢٥.

(١٢) خلف عمرو بن العاص على ولاية مصر ٨٣ واليًا منهم ٢٢ واليًا فى عهد الأمويين الذى انتهى سنة ٧٥١م ، ومن هؤلاء سبعة من قريش ومثلهم من قيس عيلان وواحد من جهينة واثنان من الأزد وثلاثة من حمير وواحد من لخم وواحد لم تعرف قبيلته. أما فى عهد العباسيين (٧٥٠ - ٨٥٦م) فإن ٣٢ واليًا من قرابة ٦١ عرفت قبائلهم، منهم ١٥ واليًا من العباسيين أنفسهم و٣ من تميم و٥ من الأزد و٢ من طيء وواحد من لخم و٢ من مذحج و٢ من بجيلة و٢ من حمير وأرمنى واحد.

MacMichael, H. A,: op. Cit. pp. 159 - 160.

(١٣) عباس عمار: وحدة وادى النيل - أسسها الجغرافية ومظاهرها فى التاريخ، ص٧٧

(١٤) انظر ملحق رقم ٨.

(١٥) عباس عمار: المرجع نفسه، ص٦٨.

(16)MacMichael, H.A. :op. Cit. p. 160

(١٧) المسعودى: مروج الذهب، جـ٢، ص٣٨ ، ٣٩.

(١٨) ابن عبدالحكم : كتاب فتوح مصر وأخبارها، ص١٦٩.

(١٩) البلاذرى: فتوح البلدان، ص٢٣٦.

(٢٠) بلتر. فتح العرب لمصر، ص٢٢٨ - انظر ملحق رقم٥.

(21)Lane - poole (s.): A History of Egypt in the Middle Ages, p. 21.

(٢٢) البقط ما كان يؤخذ من النوبة فى كل عام فى قرية القصر على بعد خمسة أميال جنوبى مدينة أسوان، ولفظ البقط - حسب اجتهاد بعض الباحثين - لفظ مشتق من أحد أصليين الأول: لاتينى يونانى الأصل وهو pactum.v ومعناه الاتفاق أو الموادعة، والثانى: مصرى قديم وهو باق ومعناه الضريبة التى تدفع عينًا. انظر ملحق رقم ٦، ٧

Trimingham. J. S.: op. Cit. P. 62 Note 3.

ويذكر Becker: Ency. Isl. II, ARt. Bakt أن البقط ربما يدل على لفظ مصرى قديم معناه العبد.
اما المقريزى فى المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٩ فيذكر أن: «البقط ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم، ومعناه بعض ما فى أيدى النوبة» انظر ملحق رقم ٧.

(٢٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٩

(24)Becker, C. H.: Emcy. Isl. I., p. 6982. MacMichael. H.A.: op. Cit. p.158.

(٢٥) سنرى فيما بعد أن القبائل العربية سوف لاتتقيد بهذا الشرط.

(٢٦) البلاذرى: فتوح البلدان، ص٣٣٦، أخذ البلاذرى هذه المعلومات عن يزيد بن أبى حبيب أحد سبى النوبة وكان يعيش فى مصر. وحفظ هذه الرواية شيوخ ممن اهتموا بأمر النوبة، ومنهم، ابن أبى لهيعة وعبدالله بن صالح.

(٢٧) استمر العمل بهذه المعاهدة حتى قيام الدولة المملوكية الأولى فى مصر، وعندما تأخذ العلاقات بين المسلمين والنوبيين شكلاً آخر سنتعرض لذكره فيما بعد، وهو الدور الذى سيؤدى إلى سقوط المملكة المسيحية الشمالية (مقرة) نهائيًا ونشر الإسلام والثقافة العربية فى البلاد.

(٢٨) أطلق المؤلفون العرب هذا الاسم على الشعوب الحامية التى تسكن الصحراء الشرقية ما بين النيل والبحر الأحمر، وتمتد أوطانهم من جنوبى مصر فى الشمال إلى حدود الحبشة فى الجنوب، وهم ما يعرفون الآن باسم البشاريين والهدندوة والأمرار وبنى عامر. وآثرنا أن نتعرض للحديث عنهم هنا لارتباط تاريخهم بتاريخ جيرانهم النوبيين ، وأن التسرب العربى جنوبى مصر لم يشمل النوبة فقط بل أرض البجة كذلك، وأن انتقال العرب باستمرار بين وطنيهما كان امرًا مألوفًا فى العصور الوسطى. وتحدث اليعقوبى عنهم وعما سماه ممالكهم فى كتابه: تاريخ اليعقوبى، جـ ١، ص٢١٧ ـ ٢١٩.

(٢٩) ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٨٩.

(٣٠) المصدر السابق، الصفحة نفسه.

(٣١) المقريزى المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٥.

(٣٢) سبق أن اشرنا أن البجه وثنيون باستثناء جماعات قليلة منهم اعتنقت المسيحية انظر الفصل الثالث.

(٣٣) ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ص٥٠ ـ ٥٩.

(34)Paul, A: A Hist. of the Beja Tribes of the Sudan, P. 73.

(٣٥) المسعودى: كتاب التنبيه والأشراف ص٣٠٢، ويرى بلوس انه عثر على مقابر هؤلاء الأمويين على طول الطريق الذى سلكوه. Bloss, J. F. E.: The Story of Suakin, "SNR,, XIX., II., 1936., p. 279

(36)Crawford, O. C. S.: The stone Tombes of the N. E. Sudan, Kush. No. 2, 1954. P. 86. "Combe, E. T.:AFour Arabic Inscriptions From The Red Sea" SNR, XIII. PP. 288 - 291.

(37)Bloss, J. F. E.: op. Cit. P. 278.

(٣٨) ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ص٥٢.

(٣٩) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٦.

(٤٠) البلاذرى: فتوح البلدان، ص٣٦٦.

(٤١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٢٠١.

(٤٢) المقريزى: المصدر نفسه، جـ١، ص٢٠١.

(٤٣) ليس من المعروف تمامًا تاريخ هذا الاتفاق، ولكن المقريزى ذكر انه كان فى عهد المعتصم (٨٣٣ ـ ٨٤٣م) وورد أيضًا فى كتاب «تاريخ بطاركة الكنيسة المصرة لساويرس بن المقفع فى حديثه عن حياة البطريق يوساب (٨٣١ ـ ٨٥٠م) انظر MacMichael, H. A.: AHist. of the Arabs in the sudan, I. d. 164. Note3

(٤٤) المقريزى: المصدر نفسه، جـ١، ص٢٠١.

(٤٥) البلاذرى: فتوح البلدان، ص٢٣٩.

(٤٦) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٥٣، يدل هذا العدد الذى اشترك فى حملة القمى من ربيعة ومضر واليمن على اتساع أعمال المسلمين فى إقليم المناجم وكثرة عددهم.

(٤٧) البلاذرى. المصدر نفسه، ص٢٣٩.

(٤٨) يبدو من اسم هذا الملك أنه ينسب إلى أصل عربى اللهم إلا إذا كان لفظ على بابا تحريفًا لاسم أو لباب البجاوى Sanders, G. E.R.: "the Bisharin," SNR., XVI., part II. 1933. P. 124.

(٤٩) البلاذرى: المصدر نفسه، ص٢٣٩.

(٥٠) البلاذرى: المصدر نفسه، ص٢٣٩.

(٥١) كان لوجود معدنى الذهب والزمرد أثر كبير فى اجتذاب القبائل العربية المختلفة إلى أرض البجه. والاختلاط بهم. ووصف كثير من المؤرخين العرب هذه المعادن وأماكنها فى الصحراء الشرقية وطرق استخراجها.

(٥٢) ابن حوقل. كتاب صورة الأرض، ص٥٤.

(٥٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٤.

(٥٤) المقريزى: المصدر نفسه، جـ١، ص١٩٦.

(٥٥) زاد الإقبال على هذه المعادن وبخاصة الذهب والزمرد بسبب ما طرأ على أحوال الدولة الإسلامية العامة من تحول من حياة البساطة إلى حياة الترف والرفاهية. فظهر البلاط الخليفى بمظهر العظمة. وبنى الخلفاء قصورًا فخمة أثثوها بأفخم الرياش. وشاركهم فى هذا الولاة والأمراء وبعض ذوى اليسار من المسلمين. وإن ثروة الفاطميين وكنوزهم وبخاصة ما ظهر منها فى عهد المستنصر بالله الفاطمى لدليل واضح على مدى ما علقته الدولة من أهمية لاستخراج هذه المعادن لتزيين بلاطهم وقصورهم.

(٥٦) المقريزى: المصدر نفسه، جـ١، ص٩٤.

(٥٧) ابن تغرى بردى. النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٢٢٣.

(58) Lane - poole S.: op. Cit. P. 42.

(٥٩) المقريزى. نفس المصدر والصفحة. يقول المقريزى «فانقرضت دولة دولة العرب فى مصر وصار جندها العجم الموالى من عهد المعتصم إلى أن ولى الأمير العباس أحمد بن طولون فاستكثر من العبيد».

(60) Lane - poole, S.: op. Cit. P. 42.

(61) MacMichael, H. A.: A Hist. of the Arbs in the Sudan. I. P. 166

(٦٢) إن شخصية العمرى الفذة وقوة شكيمته كانت من أعظم العوامل التى أدت إلى تحويل أنظار العرب إلى جهة الجنوب فى النوبة وأرض البجة حيث استقرت أعداد كبيرة منهم. ويعتبر العمرى أحد رواد الثقافة الإسلامية الأول الذين يدين لهم النوبة والبجة بالإسلام. ولد العمرى فى المدينة المنورة. وترعرع فيها، ثم رحل إلى مدينة الفساط حيث اشتغل بتدريس الحديث، ثم اتجه بعد ذلك إلى مدينة القيروان، ثم عاد إلى مصر. وهناك وصلته أنباء مناجم الذهب بالنوبة والعلاقى فسال لعابه. وهكذا تحول رجل الدين إلى مغامر كبير. واجتمع إليه كثير من طلاب المعدن، وسار على رأسهم نحو بلاد النوبة وأرض البجه. انظر المقريزى: المقفى. مخطوط، المجلد الرابع، ص١٦٤ ب. - Quatremere, E. T.: Memoires geog. hist. sur. l'Egyote..., II. pp. 59 - 80.

(٦٣) المقريزى. المقفى، المصدر نفسه والصفحة.

(٦٤) ابن خلدون. العبر، جـ٤، ص٣٠٢.

(65) MacMichael, H. A.:op. cit. p. 166.

(٦٦) وفى موضع آخر يقول ماكمايكل إن هدفهم البحث عن المعادن والتخلص من الضرائب الثقيلة التى فرضت عليهم.

(٦٧) منطقة شنقير هى منطقة أبى حمد. وهى المنطقة التى تقع بين بربر ومروى الجديدة انظر

Craw Ford,O. G. S.: Fung Kingdom of sennar p. 26.

(٦٨) المقريزى : المواعظ والاعتبار، حـ١ ، ص١٩١. يقول ابن سليم : «والنيل ينعطف من هذه النواحى (دنقلة) إلى مطلع الشمس وإلى مغربها مسيرة أيام حتى يصير المصعد كالمنحدر وهى الناحية التى تبلغ العطوف من النيل إلى المعدن المعروف بالشلة. وهو بلد يعرف بشنقير. ومنه خرج العمرى وتغلب على هذه الناحية إلى أن كان أمره ما كان.

(٦٩) انتهز العمرى فرصة النزاع داخل البيت الملكى النوبى بسبب وراثة العرش وحصل من نيوتى الثائر. على هذا الحق - انظر الفصل الرابع

(٧٠) المقريزى. المقفى. المجلد الرابع، ص١٦٦ ب. يرى دى فيار أن هذا المنجم هو منجم أم جاريات. انظر

De Villard: op. cit. p. 113

(٧١) المقريزى: المقفى. المجلد الرابع، ص١٦٧ أ.

(٧٢) المقريزى المقفى: المجلد الرابع، ص١٦٦ ب. لانعرف سبب تردد العمرى فى التقدم شمالا إلى الفسطاط رغم أن الطريق كان مفتوحًا أمامه. وربما أحس بقرب وقوع خلاف بين رجاله وبينه فآثر العودة إلى مركز أعماله، وقد تحقق ظنه فخرجت عليه ربيعة وهزمها.

(٧٣) المصدر السابق، ص١٦٨ أ.

(٧٤) يبدو من قول ابن سليم أن ربيعة تحايلت على كهان البجه للدعوة بطاعة ربيعة والانضواء تحت لوائها لتتخذ منهم أعوانًا ضد مخالفيها من العرب للانفراد بحكم هذه الجهات وإقامة إمارة إسلامية فيها.
انظر المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٦، ١٩٧.

(٧٥) اليعقوبى: كتاب البلدان، ص٣٣٤ - ٣٣٥. ذكر اليعقوبى مواضع كثيرة بأرض البجه ليس من اليسير تحقيقها. غير أن موضع الأهمية فيما ذكره هو إشارته إلى جماعات عربية إسلامية كثيرة فى مواضع مختلفة بأرض البجه.

(٧٦) المسعودى: مروج الذهب، جـ٢، ص٣٢ - ٣٤.

(٧٧) الحدارية . فى رأى بول بول Paul, A:A Hist. of the Beja Tribes P. 64 هم الحضارمة من حضر موت جاءوا من بلاد العرب فى القرن السادس الميلادى، وكانوا وثنيين ثم اعتنقوا المسيحية تشبهاً ببعض البجه، وها هم يعتنقون الإسلام فى القرن العاشر. ويرى بول أن الحدارية هم البليون الذين أشار إليهم الإدريسى ومعناها فى لغة البجا العربى Paul, A: Op. cit. 64 ويقول أحد أفراد قبيلة الأمرار: إن البليين جاءوا أصلا من الحجاز crawford: op. cit. p. 110 ويقول بول: إنه مما يويد صحة نسبهم العربى استعمالهم الحصان الذى يكرهه البجه، ويضيف إنهم اضطروا للهجرة جنوبًا ووضعوا أساس مملكة البلو. ويرى كروفورد crawford: op. p. 110 أن البليين ربما يرجعون إلى قبيلة بلى التى هاجرت بعض جماعاتها إلى إقليم البجه قبل الإسلام.

(٧٨) المقريزى: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ص ٤٨.

(٧٩) نقل المقريزى هذا النص عن المسعودى، المقريزى جـ ١، ص ١٩٧.

(٨٠) المسعودى مروج الذهب ، جـ ٢، ص ٤١. انظر ملحق رقم ١١.

(٨١) أثيرت هذه المشكلة مرة فى عهد الخليفة المأمون ومرة أخرى فى عهد المعتصم ، وموضع الأهمية هنا أن النوبيين لم يقروا لملكهم بالعبودية فى كلتا المرتين.

(٨٢) لم يسمع عن مثل هذه الحالة فى تاريخ العلاقات بين الدولة الإسلامية ورعاياها وبين الممالك المسيحية أو غيرها من الممالك التى تجاور أرض الدولة الإسلامية.

(٨٣) نلاحظ أن هذه الحالة التى نشأت عن ابتياع العرب المسلمين أراضى فى النوبة تخالف ما جاء فى عقد عبدالله بن سعد لملك النوبة سنة ٦٥٢ م «وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه». غير أن هذه المنطقة المتاخمة لمصر جنوبًا لم تقو على الصمود فى وجه القبائل العربية التى ازدحم بها إقليم أسوان فبدءوا بالأنسياب جنوبًا.

(٨٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار ، جـ ١، ص ١٩٠.

(85) De Villard: op cit. p. 118.

(86) ibid: op. cit.. 115.

(87) Land poole: op. cit. p. 89 (٨٧)

(٨٨) المقريزى: المواعظ والاعتبار ، جـ ١، ص ١٩٨.

(٨٩) المقريزى: المصدر نفسه، ص ٢٢٩ انظر: Land poole: op.cit. p. 88.

(٩٠) يحيى بن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، ص ٧٤. Quatremere: op. cit. p. 81.

(٩١) المقريزى: المقفى. المجلد الرابع، ص ٢٢٧ أ. Lane poole: op. cit. p. 185.

(٩٢) المقريزى: المواعظ والاعتبا، جـ ١ ص ١٩٠.

(٩٣) المصدر السابق، ص ١٩٠، ويقول ابن سليم : «وفيها (مريس) جماعة من المسلمين قاطنون لا يفصح أحدهم بالعربية، وهؤلاء بطبيعة الحال من النوبيين الذين اعتنقوا الإسلام، وظلوا محافظين على لغتهم العربية التى لا تزال حية إلى اليوم. إلى اليوم. المراجع أن اعتناقهم الإسلام سبق تعلمهم للغة العربية.

(٩٤) يرى الأستاذ محمد عوض: السودان ووادى النيل، أن الجماعات السودانية اعتنقت الإسلام واتصلت بالنسب العربى، ولكنها احتفظت بلغتها الأصلية بعد أن دخلتها ألفاظ ومفردات وتراكيب عربية كثيرة.، وهؤلاء هم النوبة البجه وسكان الجبال فى دار فور. وقد كان من سياسة بعض العرب حبًا فى سهولة نشر الإسلام أن تعلموا لغة البجه مثلا حتى يخالطوا السكان بسرعة ويؤثروا فيهم.

(٩٥) يدل استعمال التاريخين، ثم التاريخ الهجرى فى وثائق باللغة القبطية على مدى تأثر النوبيين بالثقافة الإسلامية وعثر على عظم هذه الكتابات فى مقبرة ساكينيا بالنوبة السفلى. ونشر دى فيار نتائج أبحاثة فى مقال خاص عن مقبرة ساكينيا وأشار إليها فى كتابه تاريخ النوبة المسيحية.

انظر: De Villars, : op. cit. p. 119

(٩٦) المقريزى: المواعظ جـ ١، س ١٩٣، يقول ابن سليم: «.. وهذه الحكاية (عادات. أهل علوة وتقاليدهم) صحيحة معروفة مشهورة عند جميع النوبة والعلوة وكل من يطرق ذلك من تجار المسلمين لا يشكون فيه...»

وفى موضع آخر: «... ولها (سويه) رباط فيه جماعة من المسلمين...» وربما كان هذا الرباط بمثابة دار ضيافة يلجأ إليها المسلمون عند مرورهم بمدينة سويا، أو لوكلائهم التجاريين المستقرين فيها، انظر أيضًا:
MacMichael, H. A.: op . cit. p. 171. note 6.

ويقول اليعقوبى: البلدان ص ٣٣٥ - ٣٣٦: «.. ثم مدينة علوة العظمى التس تسمى سويا وبها ينزل ملك علوة. والمسلمون يختلفون إليها...» وسنتعرض فى شىء من التفصيل عن النفوذ العربى فى علوة فى الفصل السابع.

(٩٧) هاجرت ربيعة إلى مصر قرابة منتصف القرن التاسع الميلادى، وانتشروا فى جهات القطر المختلفة، فاستقر فريق منهم حول أسوان ، وفريق آخر فى العلاقى وعيذاب، وثالث قرابة بلبيس.. ونجح فريق العلاقى فى وضع نواة إمارة عربية إسلامية فى العلاقى رئيسها أبومروان بشر بن إسحق.

(٩٨) أبو ركوة هو الوليد بن هشام بن عبدالملك من بنى أمية وسمى أبو ركوة؛ لأنه كان يحمل ركوة لوضوئه على عادة الصوفية، ولجأ إلى القيروان ثم اتجه نحو مصر ونزل على بنى قرة فى برقة ودعا للثورة ضد الحاكم لظلمه فتبعه بنو قرة وبايعوه وهزموا والى برقة من قبل الحاكم وملكوها... وانضم إلى أبى ركوة جماعة من كتامة وانتصر على جيوش الحاكم، ووصل إلى أهرام الجيزة، غير أنه هزم فى الفيوم لتخلى بنى قرة عنه وفر إلى النوبة. فبعث الحاكم فى طلبه : انظر ابن خلدون : المصدر نفسه، جـ ٤، ص ٥٨ - ٥٩.

(٩٩) ابن الأثير: الكامل، جـ ٩، ص ٧٠.

(١٠٠) عمدت الدولة الفاطمية إلى الألقاب الضخمة تنعم بها على الناس من باب المكافأة والاعتراف بالخدمات وتلك عادة نشأت فى بعض الدول الإسلامية بشكل واضح منذ أيام البويهيين فى بغداد . انظر المقريزى، البيان والإعراب، ص ٥٠؛ وانظر ابن خلدون ، المصدر نفسه، جـ ٥، ٢٨٨. انظر كذلك.
MacMichael, H. A. op. cit. p. 150.

(١٠١) بنو كنز هم الكنوز الحاليون الذين يمتد وطنهم من أسوان فى الشمال إلى كرسكو فى الجنوب..

(١٠٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ١، ص ١٩٨.

(103) lane poole: Op, cit. p. 192.

(١٠٤) يزعم ابن خلدون، المصدر نفسه، جـ ٥، ص ٢٨٨ - أن بنى كنز شيعة للفاطميين، وربما فسر ابن خلدون قيام علاقات طيبة بينهم وبين الفاطميين منذ عهد الحاكم الذى منحهم الألقاب الضخمة أنهم شيعة للفاطميين. غير أن استعداد بنى كنز للتعاون مع صلاح الدين أوائل عهده لا يؤيد ما ذهب إليه ابن خلدون، وأن خروجهم عليه فيما بعد لم يكن بسبب تشيعهم للفاطميين، بل لرغبتهم فى الاحتفاظ بنفوذهم فى إقليم أسوان. ذلك النفوذ الذى أراد صلاح الدين الانتقاص منه.

(١٠٥) ابن خلدون : المصدر نفسه، ص ٢٨٦، العمرى : مسالك الأبصار مخطوط، جـ ٢، ورقة ٤٩٢.

(106) Lane Poole' cit. p. 197.

(١٠٧) ابن خلدون المصدر نفسه، جـ ٥، ص ٢٨٨.

(١٠٨) المقريزى: البيان والإعراب ، ص ٥٠.

(109) MacMichael H.A.: op.cit. p. 177.

(١١٠) المقريزى: المواعظ والاعتبار ، جـ ١، ص ١٩٨.

(١١١) سترى فيما بعد كيف أصبحت هذه الإمارة الإسلامية قوة ذات خطر فى بلاد النوبة ابتداء من منتصف القرن الثالث عشر الميلادى انظر الفصل السادس.

(١١٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ١، ص ٩٤.

(١١٣) المصدر السابق، ص ٣١٥: «... ثم قطعت القطائع وسميت كل قطيعة باسم من يسكنها فكانت للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم.

(١١٤) المصدر السابق ص ٣١٥.

(١١٥) المصدر السابق الصفحة نفسها .

(116) "Walkely, c. E.j. Thq story of K hartom " SNR Xiii. part. ii. p. 224.

(١١٧) لم يكن التبادل هنا عملية مقصودة ومرتبة، بل هو محض الصدفة. ثم إن الأثر الإسلامى كان هو الغالب على هذا التبادل، سواء فى النوبة ذاتها أو مصر. ولم يتأثر المسلمون بالنوبيين إلا قليلا فيما سنشير إليه من تسرب بعض العادات القديمة إلى المسلمين بعد أن يتم تحويل النوبيين جميعًا إلى الإسلام.

(١١٨) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ١، ص ٣٢٠، يقول المقريزى: « وشكا أهل مصر إلى ابن طولون ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بجنده وسودانه، فأمر ببناء المسجد الجامع بجبل يشكر.

(١١٩) المصدر السابق، ص٩٤.

(١٢٠) المصدر السابق؛ الصفحة نفسها.

(١٢١) المصدر السابق ، ص ٢٦٤. ومن هذه الطوائف الريحانية وسكن فريق منهم حارة بهاء الدين (داخل باب الفتوح) وفريق آخر بالحسينية، وطائفة المنصورة وسكنت حارة تعرف بهذا الاسم (قرب بركة الفيل، خارج باب زويلة) وطائفة الفرجية والوزيرية وغيره. وقد اتسعت أحوالها جميعًا.

(122) Land poole: op . cit. p. 132.

(١٢٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار ، جـ ١، ص ٣٢٥.

انظر: Land poole: op. cit.. p. 145.

(١٢٤) المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٧ ، ١٨. انظر: Land poole; op. cit. p. 168.

(١٢٥) المصدر السابق : جـ ٢، ص ١١٦.

(١٢٦) عبدالمجيد عابدين: الهجرات بين السودان والبلاد العربية ، ص ٥٧.

(١٢٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢٨٠ - ٢٨٣.

(١٢٨) ابن الجوزى: صفة الصفوة، جـ ٤، ص ٢٩٢.

(١٢٩) ابن الجوزى: المصدر نفسه ، جـ ٤، ص ٣٠٢.

الفصل السادس

سقوط مملكة مقرة المسيحية

انتشار الإسلام والعروبة فيها

ازدياد النفوذ المملوكى على ساحل البحر الأحمر الإفريقى - الحملات المملوكية على النوبة، حملتا بيبرس، أسبابهما ونتائجهما - النزاع بين أفراد البيت الملكى النوبى - حملات قلاوون على النوبة؛ أسبابها - النزاع بين ملوك مقرة وملوك علوة أول ملك نوبى مسلم - ظهور بنى كنز وازدياد نفوذهم - انتشار الإسلام وأثر العرب فيه - سقوط مملكة النوبة المسيحية الشمالية - بعض الآراء فى عوامل سقوطها، مناقشة رأى ابن خلدون - أحوال بلاد النوبة الداخلية بعد سقوط المملكة المسيحية.

* * *

لاشك أن استقرار بعض الجماعات العربية فى إقليم العتباى، واستغلال مناجم الذهب بالعلاقى، بعث نوعًا من النشاط التجارى فى هذه المنطقة. ويشير بعض جغرافى القرن العاشر الميلادى ومنهم ابن حوقل إلى أن عيذاب كانت ميناء للذهب (١). وذاعت شهرة عيذاب منذ القرن الثانى عشر الميلادى، بعد تحول قوافل الحجاج من مصر وبلاد المغرب، عن طريق سيناء إلى الصعيد الأعلى (قوص) فعيذاب، بسبب الحركات الصليبية على سواحل الشام وفلسطين، وقيام الإمارات الصليبية بها. وبلغت عيذاب ذروة مجدها وشهرتها حينما وصلتها كذلك

سفن من اليمن والهند حاملة الأخشاب والتوابل. وبهذا أضحت صحراء عيذاب «عامرة آهلة بما يصدر أو يرد من قوافل الحجاج والتجار» (٢). وغدت عيذاب ميناء مصر الرئيسى على البحر الأحمر منذ أواخر الدولة الفاطمية إلى أوائل دولة المماليك الثانية (٣) . وبلغ من أهميتها أن أشرفت عليها إدارة مصرية، فعينت الدولة المملوكية - إلى جانب واليها الحدربى - واليًا مصريًا وقاضيًا مصريًا كذلك(٤).

لفتت شهرة عيذاب أنظار الصليبين، فحاولوا توجيه الضربات إليها ، لقطع الطريق على الحجاج المسلمين من ناحية، والقضاء على مركزها التجارى من ناحية أخرى. وعلى الرغم من فشل الحملة الصليبية بقيادة أرناط ضد الأماكن المقدسة الإسلامية فى الحجاز سنة ١١٨٢، فإن سفن هذه الحملة حطمت ست عشرة سفينة للمسلمين فى عيذاب (٥) . غير أن هذا الهجوم الصليبى لفت الأنظار إلى أهمية عيذاب، فازداد اهتمام سلاطين الأيوبيين والمماليك بها كلما ازدادت التجارة المصرية فى البحر الأحمر.

ويتضح اهتمام سلاطين المماليك بتجارة البحر الأحمر وساحله الإفريقى من علاقات الدولة المملوكية بميناء سواكن المطل على ممالك النوبة المسيحية. ففى سنة ٦٦٢هـ (١٢٦٤م) احتج السلطان بيبرس إلى كل من صاحب سواكن وصاحب جزر دهلك (٦) ، لتعرضهما لأموال المتوفين من التجار المصريين (٧) . والراجح أن متملك سواكن لم يستجب للاحتجاج المملوكى، ولم يكد يمضى عام وبعض عام، حتى بعث والى قوص - تنفيذًا لأمر السلطان بيبرس - حملة حربية لتأديب صاحب سواكن سنة ٦٦٤هـ (١٢٦٥م). ومن نتائج هذه الحملة ، انهيار نفوذ صاحب سواكن وفراره واستقرار حامية مملوكية بسواكن نفسها (٨)، فضلا عن فرض أموال الزكاة على سكانها لحساب الدولة المملوكية (٩) وهى الأموال التى أشرف على جمعها والى عيذاب وقاضيها.

ويرى البعض أنه كان لسقوط سواكن فى يد مصر، مغزى سياسى بعيد الأثر على ممالك النوبة المسيحية؛ لأنه أدى إلى إحكام الرقابة والسيطرة الإسلامية

على الساحل الإفريقى للبحر الأحمر، مع التهديد المباشر لمعاقل المسيحية فى النوبة (١٠).

ويبدو أن هذه السيطرة المملوكية الجديدة على المنفذ البحرى لممالك النوبة المسيحية، أدت إلى قلق حكامها، فبدءوا يحسون بما نزل بمصالحهم الاقتصادية من أضرار، فضلا عن عزلهم عن العالم الخارجى، ولاسيما الأراضى المقدسة بفلسطين (١١). وربما كان هذا هو الدافع للنوبيين للإغارة على أطراف مصر الجنوبية سنة ٦٧١هـ (١٢٧٢م) فى السنة العاشرة من عهد بيبرس.

ذلك أن داود ملك النوبة أغار على ثغر عيذاب ونهب متاجرها وقتل عدداً كبيراً من أهلها، من بينهم الوالى والقاضى، ثم أغار داود على مدينة أسوان، وخرب عدداً من السواقى، وأسر كثيراً من الأسوانيين وسخرهم فى بناء كنيسة سوس (المسيح) بدنقلة (١٢).

غير أنه قد يفهم من حركة داود العدائية أنه كان يرمى إلى غرض آخر غير التخلص من السيطرة المملوكية على سواكن وهو خدمة المصالح الصليبية عامة، ولاسيما بعد أن استولى السلطان بيبرس على كثير من البلاد الصليبية، وهدم إمارة أنطاكية الوريثة للزعامة الصليبية بعد ذهاب بيت المقدس على يد صلاح الدين.

وإذا كانت المراجع لا تشير صراحة إلى هذا الإحساس الصليبى فى مملكة النوبة المسيحية، فمن الشواهد ما يدل على هذا الاستنتاج ذلك أنه ورد فى بعض المراجع، أن مسيحيى النوبة كانوا يحجون إلى بيت المقدس، وظلوا يترددون على هذه المدينة المقدسة منذ القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر الميلادى على الأقل. وبلغ من كثرة ترددهم على بيت المقدس، أن أحد الأماكن المقدسة بها عرف باسمهم ، وظل يحمل اسمهم حتى القرن الخامس عشر الميلادى (١٣)، وقد تشير الأبحاث الأثرية فى النوبة، إلى أن بعض الكنائس بها بنى على طراز يشبه الطراز الذى استخدمه الصليبيون بسوريا وفلسطين. وفى هذا تعليل لوجود علاقة بين مقرة والصليبين فى الشام، وربما استخدم النوبيون بعض المهندسين الصليبين فى

تصميم كنائسهم، أو تشير إلى أن بعض البنائين النوبيين وفدوا إلى بلاد الشام لينقلوا إلى بلادهم شيئًا من الفن المعمارى الصليبى فى هذه الجهات (١٤).

وثمة رأى آخر (١٥) فى أسباب حركة الملك داود ضد عيذاب وأسوان، وهو أن النوبيين تأثروا بما أصاب الأقباط فى مصر من بعض حوادث اضطهاد. ولو صح هذا فإن الأقباط تعرضوا لموجة من الاضطهاد على عهد السلطان بيبرس، لاتهامهم بحرق بعض أحياء القاهرة سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٤م) (١٦). ولايبعد أن يكون هذا أحد الأسباب التى أدت إلى حركة داود ضد عيذاب وأسوان وسكانهما.

وكيفما كان الأمر فإن السلطان بيبرس أرسل حملة بقيادة والى قوص سنة ٦٧١ (١٢٧٣ - ١٢٧٢م) لغزو النوبة. ووصلت الحملة المملوكية فى تقدمها جنوبًا إلى دنقلة. غير أنها لم تستطع الظفر بداود، فعادت بعدد من الأسرى إلى القاهرة ومن بينهم صاحب الجبل (١٧).

غير أن هذه الحملة كانت ضئيلة. ويبدو أن بيبرس أرسلها وفى نيته أن يجهز غيرها. وسنحت الفرصة حين أقبل أحد المطالبين بعرش مقرة ويدعى شكندة إلى القاهرة متظلمًا من خاله داود لانتزاعه الملك منه «وكان له دونه» (١٨)، فصادفت تلك الاستغاثة هوى فى نفس بيبرس، الذى كان موتورًا من داود. فجرد السلطان معه جيشًا سنة ٦٧٤هـ (١١٧٦م) بقيادة الأميرين آقسنقر الفارقانى الاستادار وأيبك الأفرم أمير جاندار (١٩). واشتملت الحملة على ثلاثمائة مائة فارس وأجناد الولايات وعدد من الرماة ورجال الحراريق والزردخاناة. واشترك فيها عربان الوجه القبلى (٢٠). وأوغل الجيش المملوكى فى بلاد النوبة. وخرج النوبيون إلى لقائه فى ملابس سود يطلقون عليها اسم الدكاديك (٢١)، وقاتلوا الجيش المملوكى قتالا عنيفا انتهى بهزيمة النوبيين وفرارهم. واستولى الأفرم على قلعة الدو (الدر) وزحف الفارقانى برًا وبحرًا لاستئصال ما تبقى من شأفة عناصر المقاومة النوبية، حتى وصل إلى جزائر ميكائيل، قرب الشلال الثانى، وتمكن من اختراق الجنادل بمراكبه. ففر النوبيون إلى الجزر وتسلم شكنده هذه الفتوحات. وحاول صاحب الجبل واسمه قمر الدولة أن يفرّ من وجه المماليك. غير أنه قبض عليه ثم أخلى سبيله على أن يستمر فى تبعيته لشكندة. وكُتب له أمان بعد أن حلف

لشكندة بالطاعة [٢٢] ثم أوغلت الحملة فى بلاد النوبة، حتى إذا اقتربت من دنقلة، خرج الملك داود للقائها فى جيشه ومعه أخوته وبنو عمه [٢٣] واشتبك الفريقان فى معركة انتهت بفرار داود، وقتل عدد من النوبيين وأسر عدد آخر من بينهم أخ لداود ويدعى سُنْكُوَا [٢٤]، ثم عادت الحملة المملوكية إلى دنقلة بعد أن تم إخضاع النوبيين. وتقرر تعيين شكندة ملكا للنوبة بدلا من داود. وتم تتويجه فى دنقلة فى نفسه العام نفسه [٢٥].

ومما يدعو إلى الالتفات هنا، أن هذه الحملة تختلف فى طابعها العام عما سبقها من حملات ضد النوبة. فهى - على قول ابن الفرات - تعتبر فتحًا حقيقيًا للنوبة [٢٦]. لأنها وضعت أسسًا جديدة للعلاقات بين البلدين، بدليل الشروط الجديد التى قطعها الملك شكندة على نفسه للسلطنة المملوكية [٢٧] ، ومن هذه الشروط:

١ - أن الملك شكندة أصبح تابعًا للسلطان المملوكى ، ونائبًا عنه فى حكم بلاد النوبة.

٢ - أن يرسل ملك النوبة نصف حصيلة ما يجمعه من بلاد النوبة خالصًا للسلطان، فضلا عن عدد من الهدايا، تشتمل على عدد من الفيلة والزرافات إلخ.

٣ - أن يدفع كل فرد من العقلاء البالغين دينارًا عينًا للسلطان ما بقوا على النصرانية.

٤ - أن تكون بلاد العلى وبلاد الجبل ملكًا خاصًا للسلطان.

٥ - أن يسلم ملك النوبة ما كان لسلفه داود، وأخيه سنكوا وأقاربه، ومن قتل من عساكره، من المتاع والعقار إلى السلطان.

٦ - ألا يترك فى شكندة أحدا من العريان فى بلاد النوبة، ومن وجده أرسله للسلطان.

٧ - أن يطلع ملك النوبة السلطان بكل ما يصل إليه من أخبار.

وتأكدت هذه الشروط جميعًا بيمين حلف شكندة. [٢٨]

وموضع الأهمية هنا أن مقرة أضحت جزءًا من السلطنة المملوكية ، وأن السلطان المملوكى أصبح بيده عزل ملوك النوبة وتعيينهم. ثم إن حصيلة البلاد النوبية أصبحت مناصفة بين السلطان والملك النوبى. ولايعنى عدم الإشارة إلى البقط هنا، أن النوبيين توقفوا عن دفعه، بل الراجح أن عملية إرسال الرقيق النوبى إلى مصر استمرت بدليل قول المقريزى «والتزم (شكندة) أن يحمل جميع ما لداود ولكل من قتل وأسر من مال وداوب إلى السلطان مع البقط القديم [٢٩]». ثم إن السلطنة المملوكية طبقت على النوبيين لأول مرة الأسس الإسلامية الخاصة بمعاملة أهل البلاد التى تفتح عنوة. فعرضت الإسلام أو القتال أو الجزية. واختار الملك النوبى دفع الجزية. [٣٠]. وأصبح النوبيون أهل ذمة. ولهذا أنشأ السلطان بيبرس فى مصر ديوانًا سماه ديوان النوبة. ومهمته مراقبة جمع الجزية والخراج. وتعيين العمال لذلك [٣١]، ثم إن بلاد العلى وبلاد الجبل [٣٢]، أضحت تابعة تبعية يحتمل أن تكون إقطاعية أو استغلالية مطلقة للسلطان، وهى حسبما ورد فى المراجع تقدر بربع بلاد النوبة [٣٣].

ثم رأى الأميران آقسنقر الفارقانى وأيبك الأفرم، ضرورة تأكيد هذه اليمين التى حلف عليها شكندة بيمين أخرى تتضمن ولاءه للسلطان . وجاء فى هذه اليمين الثانية «متى ورد علىّ مرسوم السلطان فى ليل أو نهار يطلبه (أى شكندة) إلى الأبواب الشريفة يحضر لوقته وساعته، ولايتأخر بوجه من الوجوه إلا بمقدار ما يدبر ما يحتاج إليه من أمور السفر[٣٤]».

وكما هى العادة فى العصور الوسطى ، فإن نسخة ثالثة لتلك اليمين حلف عليها أهل النوبة، تعهدوا فيها بالطاعة لملك النوبة، بشرط ولائه للسلطان، صاحب السلطة العليا فى البلاد. ولاطاعة له عليهم إذا خرج على السلطان. وأن يطالعوا السلطان إذا علموا على نائبه (الملك) أمرًا يخالف المصلحة. والتعهد للملك بدفع دينار عينًا كجزية لإرسالها إلى القاهرة [٣٥].

وعلى هذا أتمت الحملة مهمتها، بعد أن أطلقت أسرى عيذاب وأسوان. ويقال إن الحملة خربت كنيسة سوس (المسيح) بدنقلة [٣٦] . وأخذت مافيها من أدوات ذهبية ونفيسة [٣٧] ثم غادرت دنقلة فى ذى الحجة من العام نفسه ٦٧٤هـ

(١٢٧٦م) إلى القاهرة مصطحبة معها عشرين أميرًا نوبيًا لضمان وفاء النوبيين بالتزاماتهم إزاء السلطنة المملوكية.

ومما يسترعى الانتباه هنا، ما يتردد فى بعض المراجع بشأن الرقيق الذين غنمهم المماليك، فيقال إنه بلغ من كثرتهم أن بيع الرأس بثلاثة دراهم. ويقول المقريزى إنه «فضل بعد القتل، والبيع عشرة آلاف نفس.» (٣٨) ولو صح هذا، فإن هذا العدد يدل على مدى ما تعرضت له بلاد النوبة من نقص فى الرجال والأموال نتيجة لهذه الحملة.

لم تقتصر أهمية هذه الحملة على مقرة فقط، بل ترددت أصداؤها جنوبًا، إذ أنها أثارت مخاوف ملك الأبواب وأقنعته بقوة المماليك وخطرهم على بلاده كذلك. يوضح هذا ما تذكره بعض المراجع (٣٩) من أن الملك داود لجأ إلى مملكة الأبواب هربًا من وجه المماليك. غير أن ملكها لم يوافقه، بل قاتله وقبض عليه وأرسله مقيدًا إلى القاهرة حيث اعتقل بالقلعة إلى أن مات (٤٠).

وعلى الرغم من المواثيق والعهود التى حصل عليها بيبرس، فإنه ـ فيما يبدو ـ لم يكن مطمئنا تماما إلى إخلاص شكندة له. فيقول صاحب مخطوطة تاريخ قلاوون، إن السلطان بيبرس عهد إلى أحد الإسماعيلية الفدائيين ويدعى سلامة، بالتردد على بلاد النوبة لمراقبة أعمال ملكها. ويقال إن سلامة اصطحب معه فى إحدى رحلاته إلى النوبة شابًا آخر إسماعيليًا. وظل الاثنان يعملان عيونًا للسلطان بيبرس مدة طويلة (٤١).

وكيفما كان الأمر، فالواضح أن السلطان بيبرس وطد للسيادة المملوكية فى النوبة توطيدًا تامًا، بدليل أن التقاسيم الإدارية المصرية لم تشتمل على شىء من بلاد النوبة إلا منذ عهد السلطان بيبرس (٤٢) . ومن ضمن هذه التنظيمات إنشاء طريق للبريد يبدأ من قوص، ثم يتشعب شعبتين، إحداهما: إلى أسوان والنوبة، والأخرى: إلى عيذاب. هذا فضلا عما ورد فى شأن أخذ البيعة للملك السعيد ابن السلطان بيبرس، وتحليف الناس له بالطاعة. «ولم يتخلف أحد عن اليمين من دنقلة إلى الفرات (٤٣)»..

ثم مات شكندة قتيلا سنه ١٢٧٧م، وهى السنة التى توفى فيها السلطان بيبرس. ووثب على عرش النوبة أمير يدعى بِرك. غيرأن الطريقة التى وصل بها إلى الحكم عقب قتل شكندة جعلت السلطان قلاوون - الذى اعتلى عرش السلطنة المملوكية سنة ١٢٧٩م - لايطمئن إليه. ولايبعد أن يكون هذا الملك حاول التخلص من السيادة المملوكية . وربما كان هذا هو السبب الذى حرك السلطان قلاوون ضده. فيشير صاحب مخطوطة تاريخ قلاوون، أن حملة مملوكية - لايذكر تاريخها - قادها الأمير سنجر المسرورى المعروف بالخياط، إلى بلاد النوبة. وانتهت هذه الحملة بالقبض على الملك بِرك وقتله. ثم خلفه على عرش النوبة أمير يدعى سَمامون (٤٤) . ويفسر لنا هذا، أن تعيين ملك للنوبة لابد أن يتم بموافقة السلطان المملوكى.

وبلغ النفوذ المملوكى فى النوبة حدًا أقنع ملوك علوة بقوة السلطنة المملوكية، فتقربوا إليها بالهدايا. وبعثوا إلى السلطان قلاوون سفراءهم ليعلنوا له ولاءهم وحكموه فيما ينشب بينهم وبين ملك دنقلة من نزاع. ومن ذلك ما ذكره صاحب مخطوطة تاريخ قلاوون (٤٥). أن نزاعًا نشب بين أدور ملك الأبواب، وملك دنقلة. و أرسل أدور سفراءه إلى السلطان قلاون سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٧م)، حاملين إليه هدايا، فيها فيلة وزرافة. وأكد أدور فى رسالته إلى السلطان ولاءه وخضوعه التام، وشكا إليه سوء المعاملة التى يلقاها ملك الأبواب من ملك دنقلة. وعلم سمامون ملك دنقلة بذهاب سفارة ملك الأبواب إلى مصر فبادر هو أيضًا بإرسال سفارة من قبله، لتدافع عن وجهة نظره، ولتشرح أسباب النزاع. ويقال إن هذه السفارة حملت معها إلى السلطان هدية مقدارها مائة وتسعون رأسًا من الرقيق، ومائتا بقرة. ولاشك أن اهتمام الملك سمامون بإرسال سفرائه إلى السلطان قلاوون مما يدل على السلطة التى صارت للدولة المملوكية على بلاد النوبة.

استمع السلطان قلاوون إلى حجج كل من الطرفين. ويبدو أنه لم يقتنع بما أدلى به كل منهما، فأرسل من القاهرة رسولا إلى كل من المملكتين ليحقق مواضع الخلاف فى جوها. فاختار سنجر المقدمى رسولاً إلى ملك الأبواب . وملوك بارة، والتاكه، وكدروا، ودنقوا، وآرى، وبفال، والأنج، وكرسه، وهى الممالك التى تتألف

منها مملكة علوة وعاصمتها سوبا (٤٦) . ويقال إن الأمير سنجر صحب معه سفراء ملك الأبواب، وأنه سلك معهم جميعًا طريق البحر الأحمر وعيذاب خشية أن يتعرض لهم رجال ملك دنقلة، إذا هم ذهبوا جنوبًا بطريق النيل. واختار السلطان قلاوون علم الدين الحصنى رسولا إلى ملك دنقلة.

ويبدو أن الرسول الأول، أتم مهمته وعاد إلى مصر. أما الحصنى فلا يعرف عن مصيره شيء. ويبدو أنه أنهى مهمته، وأنه عاد إلى القاهرة حيث أقنع السلطان بأن سمامون هو الجانب المعتدى. ويؤيد هذا ما ورد فى مخطوطة تاريخ قلاوون أيضًا، أنه على الرغم من محاولة الأمير سنجر المقدمى تجنب طريق دنقلة، وهو فى طريق عودته إلى مصر فقد قبض عليه جواسيس الملك سمامون، وأراد الملك قتله. غير أن رجال حاشيته ورعاياه ثاروا عليه خوفًا من بطش السلطان. وقالوا: «أتريد أن تكون سببًا فى خراب ديارنا، وإحلال المصائب بنا»(٤٧).

وربما كان هذا وحده كفيلا بإقناع السلطان قلاوون بسوء نية الملك سمامون نحوه، ورغبته فى الخروج عليه كذلك ، والراجح أن سمامون نكث بالعهود التى ارتبط بها شكندة من التبعية وإرسال الجزية والبقط.

وكيفما كان الأمر، فقد أعد السلطان قلاوون سنة ٦٨٥ - (١٢٨٧م) حملة حربية كبيرة لغزو النوبة بقيادة الأمير سنجر المسرورى المعروف بالخياط متولى القاهرة، والأمير عز الدين الكورانى. وغادرت هذه الحملة القاهرة فى العام نفسه وكتب السلطان إلى الأمير عز الدين أيدمر السيفى السلاح دار متولى قوص بأن يشترك فى هذه الحملة بمن تحت يده من المماليك السلطانية، وأجناد مركز قوص، والعربان القاطنين فى هذا الإقليم (٤٨)، وهم حسبما جاء فى المراجع (٤٩): أولاد أبى بكر، وأولاد عمر، وأولاد شريف، وأولاد شيبان، وأولاد الكنز، وبنو هلال، فضلا عن طائفة من أجناد الولايات بالوجه القبلى، والقراغلية. ووضع قادة الحملة خطة الزحف على النوبة. فانقسمت إلى قسمين، سار أحدهما بقيادة الأمير علم الدين سنجر الخياط متتبعًا البر الغربى من النيل، وسار القسم الآخر

بقيادة عز الدين أيدمر فى البر الشرقى، حيث توجد المدن المهمة. غير أن سمامون ـ وهو رجل تصفه المراجع بالمكر والدهاء وسعة الحيلة [٥٠] ـ قرر ألا يلتحم بالجيش المملوكى فى معركة حاسمة، إلا قرب عاصمته دنقلة، بعد أن يكون الجيش المملوكى قد حلت به نتائج السفر البعيد. ولهذا كتب سمامون إلى نائبه جُرَيس صاحب الجبل بِمَقَرِّه بجزائر ميكائيل والدو (الدر)، يأمره بإخلاء البلاد التى تحت يده أمام الجيش الزاحف. ثم بلغ الجيش المملوكى بقيادة أيدمر دنقلة، حيث برز إليه سمامون، ودارت بينهما معركة انتهت بهزيمة النوبيين وفرار سمامون، بعد أن قتل كثير ممن معه. واستشهد عدد من المسلمين [٥١]. وتتبع أيدمر حركات سمامون خمسة عشر يومًا جنوبى دنقلة دون أن يظفر به، ولم يقع فى أسره سوى جُرَيْس صاحب الجبل وابن خالة الملك كذلك.

ثم عاد أيدمر إلى دنقلة، حيث تم تعيين ابن أخت سمامون ملكا على النوبة، وأفرج عن جُرَيس وأعيد إلى منصبه [٥٢] ، بعد أن أعلن ولاءه للملك الجديد والسلطنة الملوكية . وتعهد الملك الجديد بدفع البقط القديم والجزية السنوية وسائر الحقوق السلطانية، بدليل ما ذكره القلقشندى [٥٣] أن نسخة يمين أخذت على ملك النوبة الجديد عند استقراره نائبًا عن السلطان قلاوون فى حكم بلاد النوبة. وهى لاتخرج عما سبق أن أعطاه شكندة من تعهدات والتزامات للسلطان بيبرس.

وفى سنة ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) وردت كتب الأمير علم الدين سنجر الخياط إلى السلطان قلاون تنبئ بما تم . وقرر السلطان أن يبقى الأمير أيدمر، وهو صاحب الفضل فيما ناله الجيش المملوكى من انتصارات، ليكون أميرًا مملوكيًا مقيمًا، إلى جانب الملك النوبى الجديد. وتسهيلا لمهمته فى بلاد النوبة بعث إليه السلطان قلاوون من القاهرة أميرًا نوبيا يدعى سعد الدين ابن أخت داود «ليكون مع الأمير أيدمر لخبرته بالبلاد وأهلها [٥٤]». هذا وتقرر أيضا أن تعسكر حامية مملوكية بدنقلة تحت قيادة أيدمر وعاد الأمير علم الدين ببقية الحملة المملوكية إلى القاهرة يصحبه عدد من ملوك النوبة ونسائهم فضلا عن عدد كبير من الأسرى[٥٥].

غير أنه لم تكد الحملة المملوكية تغادر البلاد حتى ظهر سمامون مرة أخرى، وأخذ يعد العدة لاسترداد ملكه، وانتهى الأمر بفرار ملك النوبة الجديد، وكذلك جريس صاحب الجبل إلى القاهرة. ثم لم يلبث السلطان قلاوون، أن أعد حملة ضخمة لإخضاع سمامون، وبلغت عدتها أربعين ألفًا، واشترك فيها عربان الوجهين القبلى والبحرى. وامتازت هذه الحملة بوفرة عدد الحراريق التى بلغت عدتها خمسمائة، لحمل الزاد والسلاح والأثقال.

غادرت هذه الحملة القاهرة فى سنة ٦٨٨هـ (١٢٨٩م) بقيادة عز الدين أيبك الأفرم. واشترك معه عدة من الأمراء من بينهم قبجاق المنصورى، وبكتمر الجوكندار، وأيدمر والى قوص، وصحبهم ملك النوبة الجديد وجريس. ثم مات هذا الملك فى الطريق إلى أسوان فدفن بها، فعين السلطان قلاوون بدله أحد أمراء النوبة الموجودين بالقاهرة، وهو ابن أخت الملك داود [٥٦]، وألحقه بالحملة قبل أن تغادر أسوان. وتبع الجيش الخطة نفسها التى سار عليها جيش الحملة السابقة، فانقسم إلى قسمين. فسار أيدمر والى قوص فى نصف العسكر فى البر الشرقى، وهو الطريق الذى سلكه فى الحملة السابقة، على حين سار الأفرم على رأس النصف الآخر فى البر الغربى، وتعاون بنو كنز تعاونًا صادقًا مع الحملة المملوكية، فتقدموا الجيش بصحبة جريس، لتأمين أهل البلاد وتجهيز الإقامات. وبدا هذا التعاون واضحًا فى منطقة مريس حتى جزائر ميكائيل، حيث خرج المشايخ والأعيان للقاء الحملة، وإعلان ولائهم للسلطان . أما فى المنطقة التى ليس لجريس ولاية عليها ، وهى الواقعة جنوبى الشلال الثانى حتى دنقلة، فإن أهلها هجروها إطاعة لسمامون، الذى اعتصم هذه المرة بجزيرة فى النيل ، لاتذكر المراجع عنها شيئًا سوى أنها تبعد خمسة عشر يومًا عن دنقلة. وبعث أيدمر إلى سمامون رسالة يطلب منه المفاوضة للدخول فى الطاعة، ووعده بالأمان. غير أن سمامون لم يقبل المفاوضة، وفر من الجزيرة جنوبًا إلى جهة الأبواب، خوفًا من وصول المراكب المملوكية للقبض عليه [٥٧].

ومما تجدر الإشارة إليه هنا، أن سمامون لم يكن فى حال تشبه الحالة الأولى من حيث وفرة الملتفين حوله. بل إن حاشيته وأتباعه من السواكرة، انفضوا من

حوله، كما فارقه الأسقف والقسوس وطلبوا الأمان من أيدمر، وعادوا جميعًا فى صحبة الجيش المملوكى إلى دنقلة، بعد تطهير البلاد من مظاهر العصيان (٥٨).

واحتفل أمراء المماليك بهذا النصر فى دنقلة، وألبسوا الملك النوبى الجديد تاج الملك، بعد أن حلف هو وكبار رجال دولته على الولاء للسلطان ودفع الالتزامات المقررة من قبل. وعسكرت بدنقلة طائفة من العسكر السلطانى، وعلى رأسها بيبرس العزى مملوك الأمير عز الدين والى قوص (٥٩). ثم عادت الحملة إلى القاهرة بعد أن وطدت للسيادة المملوكية فى بلاد النوبة مرة أخرى.

أما سمامون، فلم يكد يعلم بخروج الحملة المملوكية من النوبة حتى عاد إلى دنقلة متخفيا، واستمال إليه السواكرة، ولم يلبث أن قبض على الأمير المملوكى المقيم فى دنقلة، وهو بيبرس العزى، وأرسله هو ورجاله إلى القاهرة. أما الملك الجديد الذى عينه السلطان قلاوون، وكذلك جريس، فإنه قبض عليهما وقتلهما (٦٠). ثم أعقب سمامون ذلك برسالة إلى السلطان يسأله العفو ويتعهد بحسن السير والسلوك ودفع الالتزامات المقررة. ولكى يثبت للسلطان حسن نواياه، فإنه على قول المقريزى «بعث رقيقا وغيره تقدمة فقبل منه» (٦١).

ورضى السلطان قلاوون بتأكيدات سمامون وتعهداته وأقره على ما بيده فى بلاد النوبة (٦٢) . وربما كانت مشاغله الداخلية والخارجية هى التى حملته على هذا الرضا (٦٣). ذلك أن قلاوون، كان قد عزم على مهاجمة عكا بعد أن استطاع أن يقضى على الإمارة الصليبية بجهات طرابلس وأعمالها. ولم يبق من الولايات الصليبية سوى عكا مركز مملكة بيت المقدس الرمزية.

غير أن سمامون لم يكن عند العهد الذى قطعه على نفسه بصدد علاقاته بالسلطنة المملوكية. فلم يكد يسمع بوفاة قلاوون، حتى امتنع عن إرسال البقط والجزية سنة ١٢٩١وبعث إلى السلطان خليل بن قلاوون فى تلك السنة يعتذر له عن تأخير البقط إلى السنة التالية متعللا بما أصاب بلاده من التخريب بسبب إغارات ملك الأبواب «التى زادت البلاد خرابًا إلى خرابها وذهابًا إلى ذهابها وسوادًا إلى سوادها وفسادًا إلى فسادها». وذكر سمامون فى تلك الرسالة أن

دخول العسكر الإسلامية إليها فى الحملات السابقة لم يساعد على نهضة البلاد، بل كلفها غاليا.

بيد أن السلطان خليل لم يقبل هذه الأعذار، فأوفد إليه الرسل تنذره بعواقب تأخير البقط، وأسرع سمامون فسأل الأمان ووعد بإرسال البقط سريعًا. فقبل السلطان خليل هذا الوعد، كما قبل والده سمامون وبقية أهله رهائن فى دار الضيافة بالقاهرة. وبعد ذلك بقليل أرسل سمامون أخاه جريس ـ وهو غير جريس الذى تقدمت الإشارة إليه ـ برسالة استعطاف يطلب إرسال والدته إليه. ومما جاء فى رسالته «أن ملوك النوبة ما يدبرهم غير النساء» كما أرسل الشكوى من ملك الأبواب. ولم يفته أن يبعث بهدايا من الجمال والتمر والشب والسنباذج (٦٤).

غير أن هذه المراوغة، أثارت السلطان خليل إلى استخدام القوة لعزل سمامون وتعيين ملك آخر للنوبة، والمرجع الوحيد الذى يدل على هذا الاتجاه هو مخطوطة تاريخ قلاوون (٦٥) إذ تخبر أن حملة حربية ـ لم تذكر تاريخها (٦٦). قامت لغزو النوبة، بقيادة عز الدين الأفرم (٦٧) وتدل حوادث هذه الحملة وما قامت به من أعمال، أن الغرض منها هو عزل الملك سمامون، والقبض على أمير نوبى آخر يدعى آنى (٦٨)، لخروجه على السلطان. ويقال إن الأفرم تقدم بقواته جنوبى دنقلة مسيرة ثلاثة وثلاثين يومًا (٦٩). غير أنه لم يظفر بالأمير الثائر آنى لهروبه إلى بلاد الأنج (٧٠). قبل وصول الجيش المملوكى بيومين، وعلى هذا عاد الأفرم إلى دنقلة بعد أسر كثير من النوبيين ونهب متاعهم. أما سمامون، فليس يعرف عنه شىء. ويغلب على الظن أنه هرب إلى مكان مجهول ، لم يرجع منه، أو أنه مات قتيلا، وأن الأمير آنى خلفه فى مملكة النوبة وفى عدائه للسلطان خليل.

ولهذا أرسل السلطان خليل من القاهرة أميرًا نوبيًا يدعى بُدمّه لمحاربة الأمير آنى، وعقد الأمير الأفرم اجتماعا كبيرًا بحضور أمراء النوبة وأعيانها فى كنيسة سوس بدنقلة، وتم فى هذا الاجتماع تعيين بُدِمّه ملكًا حسبما تقضى به التقاليد النوبية. فألبس التاج بعد أن أقسم يمين الولاء والإخلاص للسلطان وتبعه جريس ولعله كان أخًا لسمامون ـ فأقسم يمين الولاء والطاعة. ويبدو أن جريس هذا كان نائبًا لبدِمّه. ثم تلا ذلك صيغة يمين أخرى حلف عليها الاثنان بأنه لو ثار أحدهما

ضد السلطان، جرد الآخر ضده السلاح للمحافظة على حقوق السلطان. ثم تبعهما الأمراء ورجال الدين (٧١). وكما هى العادة، فإن صيغة يمين أخرى حلف عليها النوبيون بالولاء للملك الجديد بشرط ولائه للسلطان المملوكى. ومن جملة ما قالوه: «لولا مولانا السلطان ما أطعناك، ومتى تغيرت أمسكناك، ونحن نرضى أن يُقيم مولانا السلطان ملكًا فلاحًا أو جبليًا. فإن بلاد النوبة ما لها ملك إلا مولانا السلطان، ونحن رعيته» (٧٢).

ويمكن الحكم على أثر هذه الحملة فى بلاد النوبة، على ضوء ما قامت به من أعمال، وما حصلت عليه من نتائج. فهى فضلا عما قامت به من تطهير البلاد من عناصر الثورة، وتثبيت السيادة المملوكية عليها، فإنها عادت بعدد كبير من الأسرى والغنائم . والواضح مما ذكره صاحب مخطوطة تاريخ قلاوون، أن كثيرًا من النوبيين هجروا بلادهم بعد تخريب دورهم، وأن هذه الحملة ألقت الرعب والخوف فى قلوب جيرانهم، فأعلن ملك الأبواب ولاءه وخضوعه للسطان. ذلك أنه بعد مغادرة عز الدين الأفرم دنقلة إلى القاهرة بخمسة أيام ـ فيما يرويه صاحب مخطوطة تاريخ قلاوون ـ وصلت رسالة إلى قائد الحملة من الملك بُدمَّه يستأذنه فى السماح للهاربين النوبيين بالعودة إلى بلادهم وإصلاح دورهم (٧٣).

وثمة رسالة أخرى وصلته من ملك الأبواب يعتذر له فيها عن عدم لقائه، لأنه كان مشغولا هو الآخر بمطاردة الأمير الثائر آنى ، وأضاف ملك الأبواب فى رسالته، أن بلاد الأنج تعرضت لغزو أجنبى، ولكنه سوف يبذل جهده لتخليصها من هذا الغزو. وإذا تم له ذلك، فإن جميع بلاد السودان ستخضع إلى السلطان المملوكى. وعلق صاحب هذه المخطوطة، على هذه الغزوة المملوكية بعد توغلها إلى أقصى الجنوب بقوله: «ودخل فى قلوب أهل البلاد من عساكر مولانا السلطان رُعْب عظيم، لأنها وصلت إلى أمكنة ما وصلها جيش قط إلا إن كان جيش الإسكندر ذى القرنين» (٧٤).

ومما لاشك فيه أن اختلاف الطامعين من أفراد الأسرة المالكة النوبية، واستمرار التجائهم إلى السلطنة المملوكية كان ضمينًا ببقاء هذه السيادة على بلاد النوبة، حتى فى الحالات التى لم يكن للدولة المملوكية قوة كافية أو وقت كاف

لليقظة والمراقبة فى بلاد النوبة، وليس أدل على ذلك من استمرار السيادة المملوكية فى السنوات الأولى من عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون. إذ المعروف أن هذا السلطان كان طفلا، وأن أمور الدولة كانت بيد فئة من المماليك الراغبين فى عرشها لأنفسهم. ومع هذا ظلت مملكة النوبة المسيحية على حالها من التبعية للسلطنة المملوكية. ومن الأدلة على ذلك قدوم أماى متملك النوبة إلى القاهرة [٧٥] سنة ٧٠٤هـ بهدية إلى السلطان الناصر وطلب مساعدته ضد أعدائه. فأنزله السلطان الناصر بدار الضيافة وأمر بإعداد حملة حربية تلبية لطلبه بقيادة سيف الدين طقصبا والى قوص، واشترك فيها جماعة من العربان. وغادرت الحملة قوص فى نفس هذا العام. وبعد أن أتمت مهمتها بالقضاء على عناصر الثورة النوبية، عادت إلى القاهرة. ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن هذه الحملة أمضت مدة تسعة عشر شهرًا خلال سنتى ٧٠٦ - ٧٠٧هـ (١٣٠٦ - ١٣٠٧م)، وهى أطول مدة قضتها حملة مملوكية فى بلاد النوبة. وربما يكون بعض السبب فى هذا، هو شدة المقاومة النوبية وتعرض الحملة لمصاعب الطريق وقلة الزاد [٧٦].

ظل الأمر على هذه الحال الدالة على ضعف المملكة النوبية وقنوعها بتبعيتها للسلطنة المملوكية، غير أن بعض العناصر النوبية الثائرة ظلت تسعى للفتنة بدليل ما تذكره بعض المراجع من أن أماى مات قتيلا سنة ٧١١هـ (١٢١١م) وأن أخاه كرنبس [٧٧] خلفه على العرش. ويبدو أن الملك الجديد كان لايزال فى حاجة إلى تأييد السلطنة المملوكية ضد هذه العناصر الثورية. ولهذا أعلن ولاءه للسلطان محمد الناصر، وقدم إلى القاهرة حاملا الجزية والضرائب المقررة على بلاده [٧٨].

غير أنه يبدو أن الملك كرنبس نجح فى تثبيت نفوذه فى الداخل بعد أن تخلص من منافسيه على عرش النوبة ، وأنه لهذا اتجه إلى التخلص من التبعية للسلطنة المملوكية، فأظهر عداء واضحًا نحوها وامتنع عن أداء الجزية سنة ٧١٥هـ (١٣١٥م) [٧٩] . غير أن حركته وافقت استقرار الأمر فى الدولة المملوكية ببلوغ الناصر سنا مؤهلاً للسلطنة واستطاعته التغلب على جميع عناصر الفتنة. وهذا هو سر إرسال الحملة الناصرية الأولى سنة ٧١٥هـ (١٣١٥م) إلى بلاد النوبه [٨٠].

بيد أن هذه الحملة لم تظفر بكرنبس لهروبه إلى مملكة الأبواب [٨١] ولا تشير المراجع ـ كما هى العادة ـ إلى عودة هذا الحملة إلى مصر، ولعلها بقيت فى دنقلة إلى أجل غير مسمى لتقوم على تنفيذ أوامر السلطان، فيما يتعلق بتنصيب ملك جديد لبلاد النوبة.

وهنا تبدو ظاهرة جديدة هى فى الواقع نقطة التحول فى تاريخ بلاد النوبة . ذلك أنه كان من الأسرى النوبيين الذين أتت بهم الحملات الحربية السابقة على بلاد النوبة، عدد كبير من الأمراء، وأفراد البيت المالك وبعض المطالبين بالعرش النوبى، وأن هؤلاء وأولئك أودعوا سجن القلعة. واتجهت سياسة السلطنة المملوكية إلى استمالة أولئك الأمراء، فأعادت بعضهم إلى النوبة بصحبة الجيوش المملوكية لتعيينهم ملوكًا عليها [٨٢] . ولاسيما بعض الذين أسلموا منهم. ومن أمثلة هؤلاء أمير تطلق عليه بعض المراجع سيف الدين عبدالله برشمبو النوبى وهو ابن أخت داود ملك النوبة [٨٣] . ويقول عنه النويرى إنه تربى «فى البيت السلطانى من جملة المماليك السلطانية [٨٤]. ويذكر القلقشندى أن عبداللّه برشمبو هذا أسلم وحسن إسلامه وأقام بمصر بالأبواب السلطانية وأجرى عليه السلطان محمد بن قلاوون رزقًا [٨٥].

غير أن سياسة تعيين ملك مسلم حكم بلاد النوبة نقطة تحول خطيرة فى تاريخ هذه البلاد، وهى أحد العوامل الحاسمة فى سقوط مملكة النوبة المسيحية. ذلك أن اختيار السلطان الناصر لعبداللّه برشمبو سنة ٧١٦هـ (١٣١٦م) لكى يكون ملكا على النوبة، أدى إلى ظهور بنى كنز بصورة واضحة على مسرح الحوادث فى بلاد النوبة، بعد أن أصهروا إلى البيت المالك النوبى، وتزوجوا من بنات ملوكها. إذ ادعى أميرهم كنز الدولة بحقه فى مملكة النوبة، فهو فضلا عن أنه أمير مسلم، فإن الملك ينتقل إليه بعد خاله الملك كرنبس حسبما يقضى به نظام الوراثة المعروف عند النوبيين. بدليل ما ذكره النويرى [٨٦] ، أن الملك كرنبس لما علم برغبة السلطان فى اختيار ملك مسلم لبلاد النوبة « أرسل ابن أخته كنز الدولة ابن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز إلى لأبواب السلطانية، وسأل شموله بالإنعام السلطانى فى توليته الملك». ومما جاء فى رسالته للسلطان

الناصر قوله: «إذا كان يقصد مولانا السلطان بأن يولى البلاد لمسلم فهذا مسلم وهو ابن أختى والملك ينتقل إليه بعدى». (٧٨)

وإذا كان الملك كرنبس أدرك الاتجاه الجديد للسلطنة المملوكية بصدد تعيين ملك مسلم بدلا من ملك مسيحى، فرشح ابن أخته كنز الدولة، إلا أن هذا العرض لم يجد قبولا لدى السلطان الناصر. بدليل ما تذكره المراجع من أن السلطان قبض على كنز الدولة، ومنعه من العودة إلى بلاد النوبة، كما أعد حملة مملوكية سنة ٧١٦هـ (١٣١٦م) بقيادة الأمير أيبك جهاركى عبدالملك، لتأييد الأمير عبدالله برشمبو وتعيينه ملكًا على بلاد النوبة (٨٨) . أما كرنبس فيقال إن ملك الأبواب قبض عليه وعلى أخيه أبرام واحترز عليهما فى جزيرة وبعث إلى قائد الحملة المملوكية يطلب إليه إرسال من يتسلمهما. فسار إليه جماعة من رجال الحلقة فتسلموهما وأحضرا إلى الأبواب السلطانية فى حراسة شديدة. وعادت الحملة إلى القاهرة فى جمادى الآخر سنة ٧١٧هـ (١٣١٧م) (٨٩). وهكذا استقر عبدالله برشمبو ـ وهو أول ملك نوبى مسلم ـ فى حكم بلاد النوبة.

غير أن الأمر لم يستتب للملك عبدالله برشمبو فى بلاد النوبة، فخرج عليه النوبيون، ولم يعترفوا به ملكًا عليهم. ويعض السبب فى ذلك ـ حسبما ورد فى النويرى ـ «أنه غير قواعد البلاد وتعاطى نوعًا من الكبر لم تجر عليه عادة ملك النوبة بمثله، وعامل أهل البلاد بغلظة وشدة فكرهوا ولايته» (٩٠).

والراجح أن بنى كنز ومن انحاز إليهم من القبائل العربية فى بلاد النوبة وغيرهم من النوبيين هم الذين ثاروا عليه، إذ لم يكد يصل كنز الدولة إلى بلده الدو (الدر) (٩١) سنة ٧١٧هـ (١٣١٧م) ـ بعد الإفراج عنه (٩٢) ـ حتى التف حوله النوبيون، وأعلنوا ولاءهم له ونادوا به ملكًا بدليل قول النويرى: «إنهم حيوه تحية الملك وهى قولهم موشاى موشاى . فهذه لفظة لايخاطب بها غير الملوك» (٩٣).

وأكبر الظن أن احتفال النوبيين بكنز الدولة شجعه على محاولة الوصول إلى العرش مرة أخرى، فتقدم وحارب برشمبو وهزمه بعد أن خذلته جماعته. وقتل برشمبو وتولى كنز الدولة عرش النوبة. ويقال إن كنز الدولة «لم يضع تاج الملك على رأسه رعاية لحق أخواله وتعظيما لهم وحفظًا لحرمتهم». (٩٤)

غير أن السلطان الناصر رفض الاعتراف باعتلاء كنز الدولة عرش النوبة، لسبب واضح وهو أن تولية ملك عربى حكم النوبة، يؤدى إلى زوال نفوذ السلطنة المملوكية. ولهذا أطلق السلطان سراح أبرام أخى كرنبس، وطلب إليه أن يحتال فى القبض على ابن أخته كنز الدولة. ووعده بإطلاق سراح أخيه كرنبس وإعادته إلى عرش النوبة (٩٥). ولما وصل أبرام إلى دنقلة، خرج إليه كنز الدولة طائعًا (٩٦). ويقال إنه «سلم إليه المُلْك وصار فى خدمته» (٩٧)، ثم سار معه شمالا ليحث النوبيين على طاعة خاله أبرام. غير أن أبرام لم يرع العهد، فقبض على ابن أخته كنز الدولة ليرسله مقيدًا إلى القاهرة. ولم ينقذه من هذا المصير سوى موت أبرام بعد ذلك بثلاثة أيام (٩٨).

وهنا يلتف النوبيون حول كنز الدولة للمرة الثانية، ويصرون على أن يملكوه البلاد. ولم يسع كنز الدولة - بعد أن غدر به خاله - إلا أن يلبس تاج الملك ويمارس حقوقه الملكية سنة ٧١٧هـ (١٣١٧م) (٩٩).

وكيفما كان الأمر، فإن الدور الذى قام به الكنوز لم يرق فى نظر سلطان مصر. ومن الطبيعى أن تعمل السلطنة المملوكية على الحد من سلطانهم. وهذا هو سر الحملة التى بعث بها السلطان الناصر محمد إلى النوبة سنة ٧٢٣هـ (١٣٢٠م) بقيادة الأمير علاء الدين بن على قراسنقر، لخلع كنز الدولة وإعادة كرنبس إلى العرش. وأتمت الحملة عملها بإجلاس كرنبس على العرش بعد هروب كنز الدولة من دنقلة (١٠٠).

وهنا تبدأ عملية المراوحة التقليدية المشابهة لما حدث فى النوبة منذ أيام بيبرس، وهى أنه لم تكد الحملة تنسحب شمالا حتى ظهر كنز الدولة من جديد وحارب كرنبس «وملك منه البلاد» (١٠١). على أن موضع الأهمية هنا هو انتقال ملك النوبة من أيدى ملوكها المسيحيين إلى أيدى بنى كنز ٨٢٣هـ (١٣٢٣م) (١٠٢). ولكن هل يكفى انتقال الملك من أسرة إلى غيرها للدلالة على سقوط هذه المملكة؟ الواضح أن بنى كنز لم يكونوا يمثلون العنصر النوبى الأصيل، فهم من عرب ربيعة، وإذا كانوا اختلطوا بالنوبيين وتزاوجوا ببناتهم وتعلموا لغتهم فإن هذا لم يؤثر فى

عروبتهم. إذ أنهم احتفظوا بلغتهم العربية إلى جانب النوبية. ثم إن نسبهم العربى واضح من اسم أول ملك تولى حكم النوبة منهم سنة ١٣٢٣م «كنز الدولة بن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز» (١٠٣). ومعنى هذا أن ركنًا مهمًا من الأركان التى يعتمد عليها نظام الحكم فى المملكة النوبية المسيحية قد انهار من أساسه. فالمعروف أن حكم النوبة انحصر فى أسرة أو أسر ملكية نوبية، ومارس ملوكها سلطات سياسية ودينية مطلقة على رعاياهم، ولاسيما فيما يلى منطقة مريس جنوبًا (١٠٤). بيد أن هذه السلطة المطلقة تضاءلت منذ أن تدخلت السلطنة المملوكية فى شئون النوبة الداخلية وأضحى ولاء النوبيين قسمة بين ملوك النوبة والسلطنة المملوكية، بدليل كثرة الأيمان التى حلفوا عليها لسلاطين المماليك (١٠٥)، وظل مبدأ سيادة الملك على رعاياه باعتبارهم «عبيد الملك» معمولا به فيما وراء الشلال الثانى جنوبًا على الأقل فى عهد السيطرة المملوكية على بلاد النوبة، بدليل الاستمرار فى دفع البقط من ناحية، وكثرة الهدايا من الرقيق إلى سلاطين المماليك من ناحية أخرى (١٠٦). ولاشك أن بقاء هذا النظام فى النوبة يعنى استمرار أحد الأسس التى قامت عليها الملكية المسيحية حتى سنة ١٣٠٣م، وهو تاريخ انتقال الملك إلى بنى كنز. وكان من الطبيعى أن يقضى على هذا المبدأ وأن تتغير نظرة ملوك النوبة العرب إلى رعاياهم كذلك (١٠٧).

إن بلاد النوبة منذ الربع الأول من القرن الرابع عشر، لم تعد وطن النوبيين فحسب، بل شاركهم فيها قبائل عربية كثيرة من غير بنى كنز، ولم يعد الشلال الثانى ـ كما كان من قبل ـ حاجزًا يمنع تدفقهم على ما يليه جنوبًا. بل الواضح أن كثيرًا من الجماعات العربية التى تعيش فى مصر، اشتركت فى الحملات المملوكية على بلاد النوبة مدة نصف قرن (١٠٨) من عام ١٢٧٦ إلى عام ١٣٢٣م. ولابد أن كثيرًا من هذه الجماعات فضلت البقاء فى بلاد النوبة عقب كل انسحاب للقوات المملوكية إلى مصر، ومن هذه الجماعات، بنى بكر وبنى عمر وبنى شيبان وبنى هلال وغيرهم كثير. وربما كان الدافع لهم على البقاء فى بلاد النوبة، شدة الضغط المملوكى عليهم فى مصر (١٠٩).

والواضح أن كنز الدولة استعان بالعرب المقيمين ببلاد النوبة للوصول إلى العرش، إذ يقول النويرى: «فاجتمع أهل النوبة على كنز الدولة وملّكوه عليهم، فملك البلاد حينئذ ولبس تاج الملك واستقل بالمملكة وضم إليه العرب واستعان بهم على من ناوأه» (١١٠) ، والواضح كذلك من هذا النص أن العرب كانوا من القوة والكثرة العددية بحيث تمكنوا من التغلب على بقايا بيوت الإمارة النوبية القديمة، فضلا عن تحدى السلطان المملوكى، وإعلان الاستقلال عنه، وما كان يفيد كنز الدولة فى كثير أو قليل حقه المشروع فى ملك النوبة ـ عن طريق وراثة الأم ـ لولا ما اجتمعت إليه من قوة العرب المهاجرين والنوبيين المتوطنين الذين تأثروا بهم وامتزجت دماؤهم بدمائهم.

وإذا اقتصر دور العرب الذين استقروا فى بلاد النوبه.. على القضاء على أحد مظاهر الملكية النوبية المسيحية، بإزالة البيت الملكى النوبى القديم وإحلال العنصر العربى محله، لكان دورهم فى سقوط الدولة وزوالها ضئيلا بالقياس إلى ما هنالك من مظاهر أخرى اتصفت بها الملكية النوبية المسيحية ومنها الديانة المسيحية، دين البلاد الرسمى، إذ لايكفى لسقوط الدولة أن يحل ملك مسلم محل ملك مسيحى فى ظل النظم القديمة (١١١).

المعروف أن العرب اختلطوا بالنوبيين واعتنق كثير من هؤلاء الدين الإسلامى، منذ القرن التاسع الميلادى فى أرض مريس، ثم فيما يليها جنوبًا منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى على الأقل. ويذكر بعض المؤلفين العرب أن الإسلام انتشر فى بلاد النوبة ولاسيما بعد أن أضحى ملوك النوبة من المسلمين فيقول ابن خلدون. «ويحثوا عن كربيس (كرنبس) ببلد الأبواب فألفوه بمصر، ووصل الخبر إلى السلطان فبعثه إلى النوبة فملكها. وانقطعت الجزية بإسلامهم» (١١٢).

ويتضح من هذا النص، أن النوبيين أعفوا من دفع الجزية للسلطنة المملوكية لاعتناقهم الإسلام. غير أن القلقشندى، (١١٣) يقول «فبعث السلطان كرنبس إليهم فملكهم وانقطعت الجزية عنهم من حين أسلم ملوكهم». فهل يفهم من هذا النص أن كرنبس اعتنق الإسلام فانقطعت الجزية بإسلامه؟ لم يرد نص صريح فى مؤلفات السابقين كالنويرى والمقريزى عن اعتناق كرنبس الإسلام. ومع هذا فإن

اعتناق الملك النوبى الإسلام لايعفى رعاياه المسيحيين من دفع الجزية للسلطنة المملوكية. فإن انقطاع الجزية كان نتيجة عاملين: أولهما: انتقال الملك إلى كنز الدولة الذى يقول عنه النويرى: «إنه استقل بالمملكة» (١١٤). والثانى: اعتناق النوبيين الإسلام حسبما ذكره ابن خلدون (١١٥).

غير أن ابن فضل الله العمرى (١٣٤٥م) يحدثنا عن علاقة ملك النوبة بالسلطنة المملوكية فيقول: «إنه رعية من رعايا صاحب مصر، وعليه حمل مقرر يقدمه فى كل سنة. ويخطب فى بلاده لخليفة العصر وصاحب مصر (١١٦)». والظاهر أن هذا التعريف الذى وضعه العمرى لبلاد النوبة يرجع إلى تاريخ سابق قليلا لوضع مؤلفه. أى إلى عهد السلطان الناصر، وقبل أن يستقل بها كنز الدولة ١٣٠٢م، بدليل قول: القلقشندى «هذا (ما يقوله العمرى) كان فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون». وهذه الأتاوة كانت مقررة عليهم من زمن الفتح... وهى (أى النوبة) الآن (أى نهاية القرن الخامس عشر) مملكة مستقلة بذاتها»(١١٧).

لكن هل يعنى هذا أن المسيحية قضى عليها تمامًا فى بلاد النوبة؟ الراجح أنه حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل، كانت لاتزال فى بلاد النوبة بقايا من الديانة المسيحية، لأسباب ترجيحية من بينها: أن بعض النوبيين ظلوا على المسيحية، أو أن بعض من أسلم ظل محتفظًا بقليل أو كثير من العقائد المسيحية، لقرب عهدهم بالإسلام (١١٨).

ولاتذكر المراجع اسم ملك مسيحى لبلاد النوبة بعد كنز الدولة والراجح أن خلفاءه جميعًا، إما أنهم كانوا عربًا أو نوبيين مستعربين. أما ما ذكره ابن فضل الله العمرى(١١٩). بصدد رسم المكاتبة بين السلطنة المملوكية وملوك النوبة، والذى فرق فيه بين نوعين من المكاتبة، أحدهما إذا كان الملك مسلمًا، والآخر إذا لم يكن كذلك، فإنه يغلب على الظن أن رسم المكاتبة الذى أورده العمرى فى مؤلفه، وضع أيضا فى عهد السلطان الناصر حين تعاقب على حكمها ملكان أحدهما مسلم والآخر مسيحى (١٢٠)، ثم نقلها العمرى كما هى عن ديوان الإنشاء.

والخلاصة أنه لم يكد ينتصف القرن الرابع عشر الميلادى حتى كان النوبيون قد اعتنقوا الإسلام باستثناء أقلية نوبية ظلت على المسيحية، حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى حيث ظلت تحج إلى بيت المقدس (١٢١).

وثمة عوامل أخرى مباشرة عجلت بسقوط مملكة النوبة المسيحية ومن بينها، ما ذكره ابن خلدون (١٢٢) ، بصدد هجرة عرب جهينة من مصر إلى بلاد النوبة حيث يقول: «إن الجزية انقطعت بإسلامهم ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة فى بلادهم. واستوطنوها، وملكوها. وملئوها عبثًا وفسادًا. وذهب ملوك النوبة إلى مدافعتهم. فعجزوا ثم ساروا إلى مصانعتهم بالمصاهرة، فافترق ملكهم، وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم على عادة الأعاجم فى تمليك الأخت وابن الأخت فتمزق ملكهم، واستولى أعراب جهينة على بلادهم، وليس فى طريقه شىء من السياسة الملوكية للآفة التى تمنع انقياد بعضهم إلى بعض. فصاروا شيعًا لهذا العهد. ولم يبق لبلادهم رسم للملك ، وإنما هم رحالة بادية يتبعون مواقع القطر شأن بوادى الأعراب. ولم يبق لبلادهم رسم للملك، لما أحالته صبغة البداوة العربية من صبغتهم بالخلطة والالتحام».

ومعنى هذا أن عرب جهينة هاجروا إلى بلاد النوبة أوائل القرن الرابع عشر الميلادى، بعد أن قطعت الجزية عن النوبيين لإسلامهم، وأن هجرتهم بدأت إما بعد انتقال ملك النوبة مباشرة إلى بنى كنز، أو قبله بقليل. ويعنى هذا أن دورهم فى إسقاط البيت الملكى النوبى غير أكيد. بل إنه كان من عمل بنى كنز، وغيرهم ممن سبقت الإشارة إليهم. وإذا كان المقصود بملوك النوبة ـ فى قول ابن خلدون ـ هم بنو كنز فإن هذا يجعل رأيه غير مقبول. والراجح كما يقول كروفوت (١٢٣) ، أنه قد ينسب إلى عرب جهينة ضياع كثير من المظاهر التى امتازت بها الملكية النوبية. ومنها أن اللغة النوبية، لم تعد لغة الكتابة، بل ظلت تمثل لغة التفاهم بين النوبيين. وينسب إلى عرب جهينة كذلك تخريب كثير من الكنائس النوبية. فضلا عن زوال المبانى التى امتاز بها الفن المعمارى المسيحى النوبى.

أما ما يقوله ابن خلدون بأن عرب جهينة صبغوا النوبيين بصبغة البداوة فأصبحوا رحالة يتبعون مواقع الغيث، فهذا لايتفق وما هو معروف عن جو بلاد

النوبة الجاف. والراجح أن عرب جهينة بعد أن استقروا فى بلاد النوبة مدة تقرب من قرن، اندفعوا جنوبًا إلى الحبشة وغربًا إلى جهات كردفان ودارفور. وصحبوا معهم بعض النوبيين أو النوبيين المستعربين إلى هذه الجهات حيث عاشوا جميعًا عيشة البداوة متتبعين مواقع الغيث فيها (١٢٤).

ثم إن غلبة العنصر العربى فى بلاد النوبة مدة استقرار عرب جهينة بها أدى إلى زيادة الاختلاط بالنوبيين وتحويل الأقلية المسيحية إلى الإسلام.

ويرجع بعض الباحثين سقوط مملكة النوبة المسيحية إلى عوامل منها، أن الكنيسة النوبية كانت دائما فى حاجة لأن تتصل بمنبعها وهى كنيسة الإسكندرية، للحصول على الأساقفة. غير أن هذه الصلة الدينية قطعت نهائيا منذ عهد البطريق سيريل سنة ١٢٣٥م (١٢٥)، فتركت الكنيسة النوبية دون عون خارجى، فتضعضع مركزها وجاءت نهايتها قرابة سنة ١٣٥٠م (١٢٦). ومنها أن دور رجال الدين النوبيين كان سلبيًا. فكثيرًا ما تخلوا عن ملوك النوبة وانضموا إلى الغزاة (١٢٧).

ثم إن سوء حال الكنيسة المصرية، وما تعرض له الأقباط فى مصر منذ سنة ١٣٣٢م على يد السلطنة المملوكية، كان له أثره فى النوبة كذلك. ويقال إن هذا الاضطهاد، امتد إلى بلاد النوبة كذلك، على يد القبائل العربية. فخربت كنائس النوبيين، وحول الكثير منها إلى مساجد، من بينها كنيسة دنقلة التى حول طابقها العلوى إلى مسجد (١٢٨).

ومن الملحوظ أن مملكة النوبة المسيحية ظلت تقاوم وحدها الضغط العربى والمملوكى، دون عون خارجى، فلم يتعاون معها أى من الممالك المسيحية المجاورة. فمثلا كان ملوك علوة حربًا عليها، ولاشك أن النزاع الذى نشب بين ملوك النوبة وملوك علوة كان من أهم العوامل التى عجلت بسقوط مملكة النوبة المسيحية (١٢٩). ثم إن ملوك الأبواب، تعاونوا مع السلطنة المملوكية ضد ملوك النوبة، ورفضوا إيواء الهاربين منهم. وكثيرًا ما حاربوهم وسلموا الفارين منهم إلى سلاطين المماليك.

أما ملوك الحبشة من البيت الزغوى فلم يمدوا يد المساعدة لملوك النوبة ضد السلطنة المملوكية أو القبائل العربية التى ملكت ديارهم (١٣٠).

* * *

أما عن أحوال بلاد النوبة الداخلية بعد سقوط المملكة المسيحية بها سنة ١٣٢٣م فلم يصلنا عنها شيء حتى عام ٧٦٧هـ ١٣٦٦(١٣١). وكل ما يمكن استخلاصه من رواية المقريزى (١٣٢). أن المنطقة ما بين عيذاب شرقًا والواحات غربا، فضلا عن بلاد النوبة نفسها، أضحت مسرحًا للاضطرابات التى كانت من عمل الكنوز وغيرهم من القبائل العربية التى استقرت فى بلاد النوبة مثل بنى جعد وبنى عكِّرِمة.

وليس لهذه الاضطرابات أهمية سوى ما تدل عليه من تكاثر القبائل العربية جنوبًا بسبب اضطراب الأحوال فى السلطنة المملوكية نفسها فى المرحلة الأخيرة من أيام الدولة المملوكية الأولى. وثمة أهمية أخرى توجب الالتفات، وهى أن هذه القبائل العربية كانت تنقسم على نفسها لأسباب قد يكون من بينها التنافس على السلطة فى بلاد النوبة. ومن أمثلة ذلك ما ذكره المقريزى (١٣٣)، من أن سفارة نوبية مؤلفة من ركن الدن كرنبس (١٣٤)، أحد قواد جيش النوبة، وياقوت أحد التراجمة بها، وياقوت فارس الدين، وصلت إلى القاهرة سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٦)، تخبر أن ثمة نزاعًا نشب بين ملك النوبة وبين ابن أخيه (١٣٥). فقدم الأمير الثائر يعاونه عرب بنى جعد إلى دنقلة، حيث دارت معركة قتل فيها الملك ولاذ جيشه بالفرار. غير أن بعض الموالين للملك، أقاموا أخاه ملكًا فى مدينة الدو تاركين دنقلة تحت رحمة الأمير الثائر وبنى جعد. غير أن هذا الأمير، دبر مكيدة تخلص بها من زعماء بنى جعد. ويقال إنه انتقل شمالا إلى الدو، حيث تم الصلح بينه وبين عمه، على أن يكون الأمير الثائر نائبًا للملك . وطلب الأميران معاونة السلطان الأشرف ضد العرب لاسترداد مُلْك بلادهما على أن يدفعا له جزية سنوية (١٣٦).

أرسل السلطان حملة مملوكية بقيادة الأمير عبدالغنى إلى بلاد النوبة ويقول ماكمايكل (١٣٧)، إن هدف هذه الحملة هو تأييد الملك الشرعى، وتأديب بنى كنز وبنى عكرمة، فضلا عن إعادة النفوذ المملوكى على هذه البلاد، ويقال إن زعماء بنى كنز أعلنوا ولاءهم للحملة المملوكية، بعد أن منحهم قائدها الأمان. وتقدمت الحملة جنوبًا فى أرض النوبة قاصدة الدو، لإنقاذ ملك النوبة من الحصار الذى فرضه عليه بنو عكرمة. وعند مدينة إبريم قبض قائد الحملة على زعماء بنى كنز وبنى عكرمة، ثم قصدت فرقة مملوكية إلى جزائر ميكائيل، حيث يعسكر بنو عكرمة، ودارت موقعة قتل فيها كثير من بنى عكرمة وفر الباقون إلى الجبال (١٣٨).

وتدل أنباء هذه الحملة وما قامت به من أعمال فى بلاد النوبة، أنها لم تحرز نصرا حاسمًا، وأن نجاحها كان جزئيًا (١٣٩). بدليل أنه تقرر اتخاذ مدينة الدو مقرا للملك بدلا من دنقلة، لسببين واضحين هما هجر سكانها لها كما يقول المقريزى (١٤٠) ، وحتى لايقع فى أيدى بنى عكرمة، الذين كانوا يسيطرون عليها فيما يظهر.

أتمت الحملة مهمتها فى بلاد النوبة على هذا النحو بعد أن أجلست الملك على العرش ولبس الحلة الملكية (١٤١)، ثم عادت إلى مصر فى نفس العام، يصحبها أسرى بنى كنز وبنى عكرمة الذين أودعوا السجن. ويقال إن الملك بعث بهدية قيمة إلى السلطان. أما ابن أخيه فإنه أقام فى قصر إبريم (١٤٢).

ويبدو أن السلطنة المملوكية كانت موتورة من بنى كنز وبنى عكرمة، فبُعث بأسراهم إلى أسوان حيث قتلهم جميعًا واليها المعروف بالدم الأسود سنة ١٣٦٦م. غير أن هذا الحادث أثار بنى كنز وبنى عكرمة كذلك، فساروا فى قوة كبيرة نحو أسوان واشتبكوا فى معركة ضد القوات المملوكية قتل فيها الدم الأسود، وانتهى الأمر بتخريب أسوان ونهبها وقتل عدد كبير من سكانها (١٤٣).

وظلت الأمور فى هذه المنطقة على حال من الفوضى حتى إذا كان عام ٧٨٠هـ (١٣٧٩م) عاد النفوذ المملوكى مرة أخرى إلى هذه المنطقة، وتمكن حاكم أسوان من

القبض على أحد عشر زعيمًا من زعماء بنى كنز وقتلهم وبعث برءوسهم إلى القاهرة حيث علقت على باب زويلة، كما أُرسل مائتان من أبناء هذه القبيلة مكبلين بالحديد إلى القاهرة (١٤٤).

ويقول المقريزى إن سياسة العنف والقسوة التى اتبعتها السلطنة المملوكية نحو بنى كنز وغيرهم أدت إلى إضعاف نفوذها فى هذه المنطقة فأضحت تحت رحمة بنى كنز الذين خربوا بعض جهاتها ولم تتمكن السلطنة المملوكية أن تبسط سلطانها على هذا الإقليم بصفة دائمة (١٤٥)، وظل يتجاذبها بنوكنز حينا وسلاطين المماليك حينا آخر. ويشير المقريزى إلى إغارات قام بها بنو كنز على ثغر أسوان كان يقابلها سلاطين المماليك بتجريد الحملات عليهم (١٤٦). وظلت عملية المراوحة التقليدية فى هذه المنطقة هى العملية الوحيدة التى تسترعى الانتباه.

ووجدت السلطنة المملوكية فرصتها فى استعادة إقليم أسوان وبسط نفوذها القديم على النوبة حينما لجأ نصر الدين ملك النوبة عام ٨٠٠هـ (١٣٨٩م) إلى القاهرة مستنجدًا بالسلطان المملوكى برقوق ضد ابن عمه (١٤٧). ويبدو أن هذا الملك النوبى الهارب كان من أبناء بنى كنز، ويقال إن السلطان عين على أسوان واليا يدعى إبراهيم الشهابى ، وأمره بتقديم المساعدة إلى نصر الدين ، غير أننا لانعرف عن أمر هذه المساعدة شيئًا. وكل ما يمكن استنتاجه هو أن السلطنة المملوكية استعادت نفوذها على أسوان مؤقتًا، «إلى أن كانت المحن من سنة ست وثمانمائة (١٤٠٤م) وخرب إقليم الصعيد، فارتفعت يد السلطنة عن ثغر أسوان. ولم يبق للسلطان فى مدينة أسوان والٍ واتضع حاله عدة سنين (١٤٧) ». وفى سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢م) هاجمت قبيلة هوارة - التى كانت تعيش فى صعيد مصر - ثغر أسوان وهزمت بنى كنز (١٤٨). والظاهر أن هذه القبيلة تقدمت جنوبا كذلك فى أرض النوبة.

والواضح أن الاضطرابات التى شملت جهات مصر الجنوبية وبلاد النوبة منذ قرابة منتصف القرن الرابع عشر الميلادى، وارتفاع يد السلطنة المملوكية عنها، وما صارت إليه الأحوال فى مصر نفسها، شجعت القبائل العربية فى مصر

على الهجرة جنوبًا إلى بلاد النوبة ليعيشوا كيفما يطيب لهم العيش بعيدًا عن ضغط المماليك، لاسيما وأن بلاد النوبة فى ذلك الحين كانت تفتقر إلى حكومة قوية تكبح جماحهم (١٤٩). ومن هذه الهجرات هجرة جهينة وفزارة الذين اندفعوا جنوبا وغربًا تاركين وراءهم بنى كنز وبنى عكرمة والهوارة وغيرهم فى بلاد النوبة (١٥٠).

وفى هذا القرن (أى الخامس عشر الميلادى)، تم اختلاط هؤلاء وأولئك جميعًا بالنوبيين من أسوان حتى دنقلة. وانتشر الإسلام وزال ما بقى للمسيحية من نفوذ. وفى هذا القرن تكونت كذلك المجموعات النوبية المستعربة، والتى لاتختلف فى صفاتها الطبيعية وملامحها عن النوبيين الحاليين، وهم الكنوز والفديجة والسكوت والمحس والدناقلة (١٥١).

وظل بنوكنز يمثلون أقوى العناصر النوبية المستعربة فى بلاد النوبة، حتى نهاية الدولة المملوكية الثانية فى مصر والشام سنة ١٥١٧م على يد السلطان سليم.

***

هوامش الفصل السادس

(1) Murray, G. W: "Aidhab," GJ. p. 235.

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٢٠٢.

(٣) المقريزى: نفس المصدر، ص٢٠٢، يقول المقريزى عن عيذاب: «فلم تزل مسلكًا للحجاج فى ذهابهم زيادة على مائتى سنة، من أعوام بضع وخمسين وأربعمائة إلى أعوام بضع وستين وستمائة، وذلك منذ كانت الشدة العظمى أيام الخليفة المستنصر بالله أبى تميم بن الظاهر وانقطاع الحج فى البر، إلى أن كسا السلطان الملك الظاهر ركن الدن بيبرس البندقدارى الكعبة وعمل لها مفتاحًا، ثم أخرج قافلة الحجاج من البر فى سنة ست وستين وستمائة، فقل سلوك الحجاج لهذه الصحراء، واستمرت بضائع التجار تحمل من عيذاب إلى قوص حتى بطل ذلك سنة ست وستين وسبعمائة». أى أنها ظلت ميناء للتجارة وطريقًا للحجاج كذلك منذ قرابة ١٠٥٨م إلى ١٣٠٠م - ثم أضحت فى خدمة التجارة حتى خربها السلطان برسباى سنة ١٤٢١م انظر: Leo Africanus: The Hist. and Desc. of Africa III, p. 837.

(4) Bloss, J. F . E: "The Story of Swakin. " S NR.II., P. 280 وانظر

paul, a : "aidhab: amedieval sea port" snr., xxxvi, part, i, 1955. p. 66.

(5) newbold, d.: "the crusades in the red sea and the sudan", snr, xxviii,. part i, p. 220 - 6.

(٦) أكبر الجزر المعروفة بأرخبيل دهلك بالبحر الأحمر، وموقعها قبالة مصوع - انظر المقريزى كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة)، جـ١، القسم الثانى، ص٥٠٦، حاشية رقم ١.

(٧) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(٨) السابق: ص٥٥٠

(٩) المصدر السابق: ص٥٥٨. ويتضح من هذا أن المسلمين كثر عددهم فى سواكن إلى درجة أوجبت على السلطان استخراج الزكاة منهم.

(١٠) صلاح الدين الشامى - التوجيه البحرى للسودان وأثره فى طرق التجارة والمواصلات، ص١٢٦. رسالة لم تنشر.

(11) Crowfoot, J. W. : Christian Nubia, J. E. A.:XIII., PP. 148 - 149.
Kraus: op. Cit, P. I.
(12) Quatremère, Et: "Memoires Geographiques et Historiquea sur l'Egypte et sur Quelques Contrees Vosines II., PP. 96. 149.
(13) Crowfoot, J. W.:op. Cit. pp. 148 - 149.
(14) Arkell, A. J. : Hist. of the sudan. op. cit. p. 194.
ويرى آركل أن بعض الكنائس فى ساى والخندق وبخيت ومروى شرق، بنيت على شكل قلاع مستطيلة من الحجر يعلوها أبراج. وهى تشبه ذلك الطراز الأوروبى المعاصر، والذى استخدمه الصليبيون فى سوريا وفلسطين
Ibid: op. Cit. P. 194.

(15) Beckett, H. W.: ASN., II., Report 1907 - 8. p. 253.
(١٦) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ٢، ص٨.
(١٧) المصدر السابق: جـ١، ص٢٠٢. أطلق المقريزى على هذا الأسير اسم صاحب الخيل. غير أن كترمير فى ترجمته لهذا النص ذكره باسم صاحب الجبل:

Quatremère: op. Cit:p.96.
(١٨) المقريزى: السلوك، جـ١، القسم الثانى، ص٦٢٤. يطلق المقريزى على هذا المدعى اسم مشكد على حين أن مفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد، جـ٢، ص٢٩٨ يطلق عليه اسم شكندة، وقال: إنه ابن عم الملك داود. ويطلق عليه ابن خلدون، العبر ، جـ٥، ص٤٠٠، اسم من تشكيل ويقول إنه ابن أخى داود. أما القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٥، ص٢٧٧ يطلق عليه اسم مرقشنكز ويقول إنه عم داود. «واستنجده على ابن أخيه (داود).»
(١٩) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٢٠٢. ومفضل، المصدر نفسه، جـ٢، ص٢٩٨.
(٢٠) المقريزى ـ المواعظ والاعتبار جـ١، ص٢٠٢.
(٢١) المصدر السابق: الصفحة نفسها، ومفضل، المصدر نفسه، ص٣٩٩.
(٢٢) المقريزى: نفس المصدر والصفحة. وابن خلدون. المصدر نفسه جـ٥، ص٤٠٠.
(٢٣) مفضل: المصدر نفسه ص٣٩٩.
(٢٤) النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، مخطوطة ، جـ٢٨، ورقة ١٠٩، والمقريزى، السلوك ، جـ١، القسم الثانى، ص٦٢٢.
(٢٥) المقريزى : السلوك، المصدر نفسه، ص١٢٢.
(٢٦) ابن الفرات: جـ٧، ص٤٥.
(٢٧) النويرى: نفس المصدر، جـ٢٨، ص٢٥٩. المقريزى. نفس المصدر، القسم الثالث، ملحق رقم ٥، مفضل، نفس المصدر، ص٣٩٩.
(٢٨) النويرى : نفس المصدر والصفحة، المقريزى نفس المصدر والصفحة . مفضل: المصدر نفسه، ص٤٠٥.
(٢٩) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١، ص٢٠٢.
(٣٠) النويرى: المصدر نفسه، ص٢٥٩ب.
(٣١) المقريزى: السلوك، جـ١، القسم الثانى، ص٦٢٣.
(٣٢) بلاد الجبل هى الجنادل الأولى والعلا هى التى تليها جنوبًا حتى جنوبى المحرقة تقريبا (انظر الفصل الرابع)، وهى التى أطلق عليها فى العصر الرومانى اسم Dodekaschoinos، ويعنى ذلك إعادة الحقوق

القديمة لمصر فى هذه المنطقة والتى ضاعت منها عقب انسحاب القوات الرومانية منها على عهد دقلديانوس.

انظر: MacMichael, H. A. : A Hist. of the Arabs in the Sudan, I. P. 182

(٣٣) يرى ماكمايكل Ibid,: op. Cit. P. 181، وكذلك Arkell: op.Cit. p.195. أن المقصود بالنوبة هنا هو النوبة الأصلية Nobatia (مويس).

(٣٤) مفضل: المصدرنفسه ، ص٤٠٣.

(٣٥) النويرى: المصدر نفسه، جـ ٢٨، ص٢٥٩ ب.

(٣٦) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٢٠٢.

(٣٧) المقريزى: السلوك، جـ١، القسم الثانى، ص٦٢٣.

(٣٨) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(٣٩) ابن خلدون: المصدر نفسه، جـ٥، ص٤٠٠. والقلقشندى، المصدر نفسه، جـ٥، ص٢٧٧.

(٤٠) ابن خلدون: نفس المصدر السابق والصفحة.

(٤١) مخطوطة تاريخ قلاوون، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور، جـ٢، ص٢٠٩، ٢١٠ب. ويقال إن سلامة من مواليد الأبواب. أى أنه نوبى وربما جاء اختيار السلطان بيبرس له لخبرته بأحوال البلاد.

(٤٢) Stanley Lane - Poole: op. cit. p. 272.

(٤٣) مفضل: نفس المصدر، ص٤٥٤.

(٤٤) مخطوطة تاريخ قلاوون: جـ٢، ص٢١٠أ.

(٤٥) المصدر السابق، ص٢٩٠ب.

انظر كذلك .Quatremère: op. cit. pp. 100 - 101

(٤٦) انظر الفصل الرابع.

(٤٧) ورد فى هذه المخطوطة أن رعايا الملك خلعوه وعينوا بدله ملكا آخر. غير أن هذه الرواية بنصها لاتتفق وما تلا ذلك من أحداث اشترك فيها سمامون نفسه. ويبدو أنهم وقفوا على خلعه وتعيين ملك غيره عقب الحملة التى بعث بها قلاوون للقبض عليه سنة ١٢٨٧م وهى حملة قلاون الثانية. Quatremère: op. cit .p. 101

(٤٨) المقريزى: السلوك، جـ١، القسم الثالث، ص٧٣٦ ـ ٧٣٧.

(٤٩) المصدر السابق، الصفحة نفسها، وابن خلدون، المصدر نفسه، جـ٥، ص٤٠٠.

(٥٠) المقريزى المصدر نفسه ، جـ١، القسم الثالث، ص٧٣٧.

(٥١) المقريزى: المصدر نفسه، جـ١، القسم الثالث، ص٧٣٧.

(٥٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٥٣) القلقشندى: المصدر نفسه، جـ١٣، ص٢٩٠، ٢٩١. على الرغم من انفراد القلقشندى بذكر هذه اليمين، فإن هذا لايعنى الشك فى صحتها لتمسك سلاطين المماليك بحقوقهم فى بلاد النوبة، ولاسيما بعد النصر العظيم، الذى أحرزته الحملة القلاونية على ملك النوبة.

(٥٤) المقريزى: السلوك، المصدر نفسه، ص٤٧٣.

(٥٥) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٥٦) المصدر السابق: ص٧٤٩. يقول ابن خلدون، المصدر نفسه، جـ٥، ص٤٠٠، إنه داود ابن أخى مرتشكين (شكندة).

(٥٧) المقريزى: السلوك، نفس المصدر، ص٧٤٩ ـ ٧٥١.

Quatremère: op. cit. pp. 105 - 106.

(٥٨) المقريزى: المصدر نفسه، ص٧٥٢.

Quatremère: op. cit. p.107.

(٥٩) المقريزى: نفس المصدر والصفحة.

(٦٠) المقريزى: المصدر نفسه، ص ٧٥٣.

(٦١) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(٦٢) ابن خلدون: المصدر نفسه، جـ٥، ص٤٠٠.

(٦٣) النويرى: المصدر نفسه، جـ٢٩، ص٢٧٤أ.

(٦٤) ابن عبدالظاهر: الألطاف الخفية، ص٣٩-٤٠.

(٦٥) مخطوطة تاريخ قلاوون: جـ٢، ص٣١٠أ.

(٦٦) يرى ماكمايكل أن هذه الحملة ربما أرسلت إلى بلاد النوبة ما بين ١٢٩٠ ـ ١٢٩٣م

MacMichael: op. cit. p.185.

(٦٧) كان عز الدين الأفرم أحد قواد الحملة التى جردها السلطان بيبرس سنة ١٢٧٦م، فهو إذًا صاحب خبرة ببلاد النوبة وأحوالها.

(٦٨) يطلق عليه صاحب مخطوطة تاريخ قلاون اسم الملك آنى. ويبدو أنه كان ملكا تابعًا للملك الكبير سمامون. وربما كان هذا الأمير حاكمًا على المنطقة المجاورة لمملكة الأبواب Quatremère: op. cit. p.112. وربما يكون هذا الأمير هو الذى خلف سمامون على العرش بعد ثورة النوبيين ضده غير انه ظل على عدائه للسلطان:

De Villard: op. Cit. P. 218.

(٦٩) يرى ماكمايكل أن الأمير عز الدين الأفرم ربما توغل جنوبًا حتى منطقة الأبواب (كبوشية)

MacMichael: op. cit. p.185.

(٧٠) Quatremère: op. cit. p.109. يرى ما كمايكل أن آنى هرب إلى جبل حرزا بشمال كردفان. ويتفق هذا مع جاء فى تاريخ قلاوون، إذ يشير مؤلفه إلى أن الملك آنى، هرب إلى بلاد الأنج، ولم يمنع المسلمين من المسير خلفه إلا قلة الماء؛ لأن الطريق الذى كان عليهم أن يسلكوه عبارة عن صحراء تلجأ إليها الفيلة والقردة والخنازير والغزلان والنعام. MacMichael: op. cit. p.185، ويرى آركل..Arkell: op. cit. p.197 أن اسم الأنج يطلق على سكان شمال كردفان الذين قطنوا هذا الإقليم قبل مجىء العرب إليه وربما أطلق على المرويين. وهى فى لغة الطوارق telanag أى ناس الشرق لأنهم أتوا من النيل.

(٧١) مخطوطة تاريخ قلاوون: جـ١، ص٣١١أ

Quatremère: op. cit. pp. 105 - 106.

(٧٢) مخطوطة تاريخ قلاوون: ص٣٠٨ب ـ ٣٠٩أ.

(٧٣) المصدر السابق: ص٣١١أ.

(٧٤) المصدر السابق:

لم يسمع عن مثل هذه الغزوة التى ينسبها المؤلف إلى الإسكندر. وربما كان هذا من باب التشبيه بقوة الحملة ومدى ما وصلت إليه من أقاليم غير مطروقة.

(٧٥) المقريزى: السلوك، جـ٢، القسم الأول، ص٧، أطلق المقريزى على هذا الملك اسم أياى على حين أن ابن خلدون، المرجع، نفسه جـ٥، ص ٤٢٩ يطلق عليه اسم آى. ويقول القلقشندى جـ٥، ص٢٧٧ إن اسمه أمّى. أما كترمير فيقول: إن اسمه أماى (Amai). op. cit. p. 114

(٧٦) المقريزى: المصدر نفسه، جـ٢، القسم الأول، ص٧.

(٧٧) المصدر السابق: ص ١٠٧؛ وذكر ابن خلدون جـ٥ ص٤٢٩ أن اسم هذا الملك كربيس، وذكر أنه خلف أخاه آى (أماى) الذى توفى سنة ٧١٦هـ (١٣١٦م)، ويوافقه القلقشندى، جـ٥، ص٢٧٧، أن وفاته كانت سنة ٧١٦هـ.

(٧٨) المقريزى: نفس المصدر والصفحة.

(٧٩) ذكر القلقشندى: جـ٥، ص٢٧٧، وابن خلدون، جـ٥، ص٤٢٩: أن تاريخ امتناع كرنبس عن إرسال الجزية كان سنة ٧١٦هـ. غير أن المقريزى، المصدر نفسه يشير إلى حملة مملوكية فى عهد السلطان الناصر سنة ٧١٥هـ. ويعنى هذا أن حركة كرنبس هذه إما أن تكون سابقة لهذا التاريخ الأخير أو على الأقل معاصرة لها. ولعل ما ذكره كل من ابن خلدون والقلقشندى كان خاصًا بحملة ثانية تاريخها ٧١٦هـ.

(٨٠) المقريزى: المصدر نفسه، ص ١٤٥، ١٤٦.

(٨١) ابن خلدون: المصدر نفسه ، جـ٥، ص٤٢٩. انظر كذلك القلقشندى، المصدر نفسه، جـ٥، ص٢٧٧.

(٨٢) أرسل السلطان قلاوون واحدًا بعد آخر من أولئك الأمراء لتعيينه ملكًا على النوبة بدلا من سمامون. انظر ص١٥٦، ١٥٨ من هذا الفصل.

(٨٣) النويرى: المصدر نفسه، جـ٣، ورقة ٩٥. وجاء فى إحدى النسخ الخطية لكتاب السلوك، جـ٢ القسم الأول، ص١٦١ ، حاشية رقم٤: أن اسم هذا الأمير برشنبوا وفى نسخة أخرى سنبوا، والأخيرة هى التى نقلها كترمير فى كتابه op. cit. p. 115 على حين أن النويرى ذكر اسمه سيف الدين عبدالله برشنبو النوبى. أما ابن خلدون، جـ٥، ص٤٢٩، وكذلك القلقشندى جـ٥، ص٢٧٧ ذكر أن اسمه عبدالله نشلى.

(٨٤) النويرى: المصدر نفس والصفحة.

(٨٥) القلقشندى : المصدر نفسه، جـ٥ ص٢٧٧.

(٨٦) النويرى: المصدر نفسه.

(٨٧) يبدو أن ماكمايكل MacMichael: op. cit. p.186. لم يطلع على النص الذى انفرد بذكره النويرى، بصدد اعتلاء كنز الدولة عرش النوبة، وصلة هذا الأمير بآخر ملك نوبى مسيحى وهو كرنبس. والراجح أنه استعان بترجمة كترمير لما أورده المقريزى فى كتابه السلوك من إشارة عابرة لصلة كبير الدولة بكرنبس. ومع أن المقريزى ذكر أن كرنبس بعث بابن أخته كنز الدولة إلى السلطان يسألة فى أمره إلا أنه لم يتنبه لهذه العلاقة بدليل قول ماكمايكل «وسواء أكان كنز الدولة يتصل بالعائلة المالكة النوبية بصلة النسب أو أنه لم يكن له من الأمر شىء سوى اعتماده على القوة فهذا ما نجهله».

(٨٨) النويرى: المصدر نفسه، جـ٣٠، ورقة ٩٦.

(٨٩) المصدر السابق.

(٩٠) المصدر السابق.

(٩١) المصدر السابق.

(٩٢) المقريزى: السلوك، المصدر نفسه، ص١٦١.

(٩٣) النويرى: المصدر نفسه، جـ٣٠، ورقة ٩٦.

(٩٤) المصدر السابق: الصفحة. نفسها تظاهر كنز الدولة بحفظ كرامة أخواله فامتنع عن لبس التاج. والراجع أنه لم يفعل ذلك إلا لأن التاج يحمل علامة الصليب. الأمر الذى لايتفق وعقيدته الإسلامية.

(٩٥) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(٩٦) المقريزى: السلوك، جـ٢، القسم الأول، ص١٦١.

(٩٧) النويرى: المصدر نفسه، جـ٣٠، ورقة ٩٦.

(٩٨) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(٩٩) المقريزى: المصدر نفسه، ص١١٦.

(١٠٠) المصدر السابق: ص٢٥٠.

(١٠١) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(١٠٢) يرى البعض أن انتقال الملك إلى بنى كنز يعد نهاية المملكة النوبية المسيحية سنة ١٣٢٣م، وبداية لمرحلة جديدة فى تاريخ هذه البلاد.

MacMichael: op. cit. p.186.

Arkell, A. J.: Fung Origins, SNR, XV, part. II. p. 204.

(١٠٣) النويرى: المصدر نفسه، جـ١، ورقة ٩٥ ـ المقريزى، المصدر نفسه، ص١٦١.

(١٠٤) سبق أن أشرنا فى الفصل الخامس من هذا البحث إلى تقلص نفوذ ملوك النوبة عن منقطة مريس؛ لأن سكانها لم يعترفوا لملوك النوبة بالسيادة المطلقة عليهم، ولم يقروا لهم بالتبعية بعد أن اختلطوا بالعرب وبخاصة من بنى كنز وغيرهم مثل قريش.

(١٠٥) راجع ص١٤٧ ـ ١٥٠ من هذا الفصل.

(١٠٦) راجع ص١٤٩ ـ ١٥٧ من هذا الفصل.

(١٠٧) سبق أن أشرنا إلى أثر العرب فى منطقة مريس فى الفصل الخامس.

(١٠٨) راجع الحملات المملوكية على عهد بيبرس وقلاوون والناصر محمد وغيرهم، والتى اشترك العربان فى كل حملة منها على بلاد النوبة.

(١٠٩) قد يكون من بين الأسباب التى دفعت السلطنة المملوكية إلى أخذ المواثيق على الملك شكندة وخلفائه بتسليم العربان فى النوبة إلى السلطنة المملوكية، هو خروج أولئك العربان على السلطنة والانفصال عن بقية الجيوش المملوكية عند انسحابها. ومع هذا فإننا نلاحظ اشتراك العربان فى كل حملة مملوكية على النوبة. والراجح أن السلطنة المملوكية لم تكن تمنع مثل هذا الاتجاه من جانب بعض العربان إلا من تخشى ثورتهم عليها.

(١١٠) النويرى: الصفحة نفسها.

(١١١) إذا لم يستتبع انتقال الملك من يد ملوك النوبة المسيحيين إلى ملوك مسلمين اعتناق النوبيين الإسلام، فلا يحق لنا القول بسقوط المملكة النوبية المسيحية، بل مجرد تغيير الأسرة المالكة.

(١١٢) ابن خلدون: المصدر نفسه، جـ٥، ص٤٢٩.

(١١٣) القلقشندى: المصدر نفسه، جـ٥، ص٢٧٧.

(١١٤) النويرى: المصدر نفسه، جـ٣٠، ورقة ٩٦.

(١١٥) ابن خلدون: المصدر نفسه، جـ٥، ص٤٢٩.

(١١٦) ابن فضل الله العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٢٩. يبدو أن العمرى أخذ هذه المعلومات عن سجلات ديوان الإنشاء أو غيره من الدواوين. وقد وضعت هذه السجلات فى عهد السلطان الناصر محمد عندما تولى عبدالله بن برشمبو وكرنبس مرة ثانية حكم النوبة، ثم انقطع إرسال الجزية للسلطنة المملوكية بعد تولية كنز الدولة حكم النوبة سنة ١٣٢٣م باعتباره زعيماً عامًا للمسلمين، وربما كانت عبارة العمرى

«رعية من رعايا صاحب مصر» ـ استمرار لادعاء السلطنة المملوكية حقوقًا فى النوبة. ولابد أن الجامع الذى أشار إليه المقريزى، المواعظ، جـ١، ص١٩٢، وقال إن كنز الدولة بناه فى دنقلة، قد كان أول جامع تقام فيه الصلاة الجامعة فى بلاد النوبة. والراجح أن كنز الدولة حول الطابق الثانى لكنيسة دنقلة إلى جامع، وظل الطابق الأرضى يمثل دار ضيافة بدليل قول المقريزى إنه كان يأوى إليه الغرباء، ولم يذكر تاريخ إنشاء هذا الجامع غير أنه يقال أنه أنشئ قرابة سنة ١٣١٨، وهو فى حكم كنز الدولة الأول للنوبة ـ نعوم شقير، جـ٢، ص٥٥، انظر الشكل رقم٦.

(١١٧) القلقشندى: المصدر نفسه، جـ٨، ص٦٠.

(118) Trimingham, J. S.: Islam in the sudan, p. 71. Note 3.

(١١٩) ابن فضل الله العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٣٠، أورد العمرى رسم المكاتبة بين السلطنة المملوكية وملوك فيما يلى: «صارت هذه المكاتبة إلى المجلس الجليل الكبير الفارس المجاهد المؤيد الأوحد العضد مجد الإسلام زين الأنام... هذا إذا كان مسلمًا وإن لم يكن مسلمًا فمكاتبة صاحب سيس ولايعلم له السلطان بخطه».

(١٢٠) كان عبدالله برشمبو أول ملك نوبى مسلم، ثم خلفه الملك كرنبس. وكان لايزال مسيحيًا.

(121) Crowfoot, J. W.: op, cit. p. 149 .

(١٢٢) ابن خلدون: المصدر نفسه، جـ٥، ص٤٢٩.

(123) Crowfoot, J. W.:op. cit. p. 148.

(124) Ibid. :op. cit. p. 148.

Kirwan, L. P. : Oxford Univ. Exc, at Firka, p. 45.

(125) Budge, E.A. W: The Egyptian Sudan, II.p. 130.

Beckett. H. W.: ASN., II.. 1907 - 8p. 353.

(126) Budge, E. A. W.: Nubian Texts p.4

(127) Budge, E. A. W.: A Hist. of Ethiopia, I, P. 11

(128) Budge, E. A. W.: The Egyptian Sudan, op. cit, II, P. 130.

ويرى أن تحويل هذه الكنيسة إلى مسجد كان قرابة سنة ١٣١٨ على يد كنز الدولة، وربما كان هذا هو الجامع الذى أشار إليه المقريزى. انظر حاشية رقم ١١٦ من هذا الفصل.

(129) Budge, E. A. W.: The Egyptian Sudan. op. cit. p. 139.

(130) Henderson, K. D. D.: "Fung Origins"SNR. XVII. part I. 1935 p. 150.

(131) MacMichael, H. A.: op. cit. I.P. 187.

(١٣٢) المقريزى: السلوك، مخطوط، المجلد السابع، ص١٤٨.

وانظر، Quatremère: op. cit. p. 116.

(١٣٣) المقريزى: السلوك، مخطوط، المجلد السابع، ص١٤٨أ.
(١٣٤) المصدر السابق.
(١٣٥) لم يذكر المقريزى اسم الملك ولا اسم ابن أخيه. غير أننا نستنتج من اعتماد الأمير الثائر على بنى جعد أنه من إحدى القبائل العربية وربما كان من فرع بنى كنز.
(١٣٦) المصدر السابق: ص١٤٩. وانظر:

Quatremère: op. cit. p. 118.

(137) MacMichael, H. A. : Op. Cit. P. 187.

(١٣٨) المصدر السابق: ص١٤٩، وانظر:

Quatremère: op. cit. p. 119 -- 120.

(139) MacMichael, H. A. : Op. Cit. P. 188.

(١٤٠) المقريزى: السلوك، مخطوط، المجلد السابع، ص١٩٤، وانظر:

Quatremère: op. cit. p. 120.

(١٤١) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(١٤٢) المصدر السابق.

(١٤٣) المصدر السابق: ص٢٥ب، وانظر:

Quatremère: op. cit. pp. 120 - 126.

(١٤٤) المصدر السابق: المجلد الثامن، ص١١٥أ. وانظر:

Quatremère: op. cit. p.120 - 122.

(١٤٥) المصدر السابق: ص١١٩أ.
(١٤٦) المصدر السابق: ص١٥٢أ ، ١٥٢ب.
(١٤٧) المصدر السابق: المجلد العاشر، ص١٢٦٠أ.
(١٤٨) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٨٩.
(١٤٩) المصدر السابق، ص١٩٩.

(150) MacMichael : Op. Cit. P. 188.

Arkell, A. J. : op. cit. p. 199.
(151) MacMichael , H. A. : Op. Cit.I. P. 187.

Arkell, A. J. : op. cit. p. 199.

الفصل السابع

سقوط مملكة عَلْوة المسيحية

انتشار الإسلام والثقافة العربية فيها

عوامل سقوط مملكة علوة، النزاع بينها وبين جيرانها ـ أثر الرق ـ قطع العلاقات الدينية بينها وبين كنيسة الإسكندرية ـ الهجرات العربية إلى حوض النيل الأوسط وأثرها ـ الحلف السنارى وقيام مملكة الفونج ـ جهود العلماء ورجال الصوفية فى نشر الثقافة العربية فى مملكة الفونج حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادى.

* * *

اكتنف تاريخ مملكة علوة المسيحية كثير من الغموض بالقياس إلى تاريخ مملكة مقرة، وذلك لضياع معظم آثار علوة من جهة بفعل عوامل التعرية الجغرافية، ومن جهة أخرى بسبب بعدها عن مصر(١).

غير أن هذا لايعنى أن مملكة علوة كانت فى عزلة عن مصر تمامًا، فكنيسة علوة ظلت تابعة للكنيسة المصرية منذ نشأتها فضلا عن وجود علاقات تجارية قديمة بين البلدين، بدليل تمسك السلطنة المملوكية بمدينة سواكن للإشراف منها على حقوق مصر التجارية فى جهات حوض النيل الأوسط. ثم إن رغبة ملوك علوة فى استمرار العلاقات بينهم وبين السلطنة المملوكية تبدو واضحة من شكوى أدور ملك الأبواب للسلطان قلاوون من تعرض ملك مقرة لرسله المسافرين إلى مصر(٢).

وكيفما كان الأمر، فالواضح أن مملكة علوة المسيحية تعرضت لما سبق أن تعرضت له جارتها مقرة فى الشمال، من عوامل أدت إلى تفككها وانحلالها وزوال الأسس التى قامت عليها الملكية المسيحية فيها، ثم صبغ هذه الملكية بصبغة عربية إسلامية. غير أن ثمة عوامل أخرى خارجية أدت إلى سقوطها ومن هذه العوامل، أن مملكة علوة تعرضت لإغارات مملكة الزغاوة منذ القرن الثانى عشر الميلادى على طرق القوافل التجارية ما بين بحيرة تشاد غربًا إلى النيل شرقًا (٣) . وظلت مملكة علوة موضع تهديد الزغاوة حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى (٤). وقد سبقت الإشارة إلى أن الملك أدور ملك الأبواب شكا من تعرض بلاد الأنَج لغزو أمير أجنبى، ولايبعد أن يكون هذا الأمير هو أمير الزغاوة (٥). ثم إن طمع جيران مملكة علوة فى الحصول على الرقيق منها، أدى إلى نزاع مستمر بين ملوك علوة وأولئك الجيران فى الشمال أو الغرب. فالمعروف أن ملوك مقرة لجئوا إلى شن الإغارات على جيرانهم للحصول على الرقيق لدفع البقط، إذا لم يتوافر لديهم منه عدد كاف (٦)، فضلا عن الاتجار كذلك (٧) ، ولعل استمرار حاجة السلطنة المملوكية إلى الرقيق هى التى أدت إلى استمرار هذا النزاع الذى بدا واضحًا فى القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الميلادى(٨).

أما فى الغرب فإن أعراب جذام وغيرهم المهاجرين من مصر جنوبًا اجتاحوا مملكة الزغاوة حتى سيطروا على منطقة دارفور(٩). واتخذ أولئك الأعراب من هذه المنطقة قاعدة لشن إغاراتهم على ما جاورها من أقاليم حتى مملكة برنو فى الغرب، بدليل ما جاء فى شكوى سلطان برنو إلى السلطان الملك الظاهر أبى سعيد برقوق سنة ٧٩٤هـ (١٣٩٢م) ضد أولئك الأعراب (١٠) ، جاء فيها «... فإن الأعراب الذين يسمون جذاما وغيرهم قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وضعفاء الرجال وقرابتنا وغيرهم من المسلمين... وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها فى بلد برنو كافة حتى الآن وسبوا أحرارنا وقرابتنا من المسلمين ويبيعونهم لجلاب مصر والشام وغيرهم ويختدمون ببعضهم...».

وليس من المستبعد ـ بعد أن اقترب أولئك الأعراب من أطراف علوة ـ أن يكونوا شنوا عليها حربًا لهذا الغرض كذلك.

وكان لقطع العلاقات الدينية بين الكنيسة المصرية وكنائس علوة، وتوقف إرسال الأساقفة المصريين إلى بلاد النوبة منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى أثر خطير فى حياة النوبيين الدينية، فأهملت الطقوس الدينية وهجرت الكنائس النوبية وخرب معظمها. وقد حفظ قسيس برتغالى يدعى الفارز الذى زار الحبشة بين سنتى ١٥٢٠ ـ ١٥٢٧م ـ صورة عن أحوال النوبيين (أهل علوة) الدينية أوائل القرن السادس عشر الميلادى بقوله «... إن أولئك النوبيين يجهلون دينهم فلا هم بالمسيحيين ولاهم بالمسلمين أو اليهود. ويقال إنهم كانوا على النصرانية، غير أنهم فقدوا دينهم، ولم تبق لهم عقيدة ويأملون أن يكونوا مسيحيين». (١١) ويظهر من قول الفارز أن النوبيين فشلوا فى الحصول على قساوسة من كنيسة الإسكندرية (١٢)، فبعثوا إلى نجاشى الحبشة سنة ١٥٢٢م ليرسل إليهم من يرشدهم فى دينهم، غير أن النجاشى اعتذر عن تلبية هذه الرغبة «إذ أنه يعتمد على البطريرك فى بلاد المسلمين فى إرسال «أبونا» فكيف يعطيهم من يتفضل بهم عليه غيره» (١٣) . ومما زاد فى عزلتهم سقوط مملكة مقرة فى الشمال واعتناق أهلها الإسلام. وذكر الفارز نقلا عن بعض الأحباش أنه منذ وفاة أسقف النوبة (علوة) منذ أمد بعيد لم يخلفه غيره بسبب الحروب بين القبائل العربية فى بلاد النوبة الشمالية، فتركت كنائسهم دون رعاية رجال الدين، فنسوا كل شىء عن المسيحية (١٤). وثمة دليل على هجر النوبيين كنائسهم وتخريب معظمها، ما ذكره الفارز كذلك نقلا عن حنا السورى الذى زار علوة قبل ذلك بقليل حيث يقول «إنه كان بها ١٥٠ كنيسة قديمة تحمل جدرانها صور السيد المسيح والعذراء» (١٥) . وهذا عدد قليل بالقياس إلى ما عرف عن عدد كنائس علوة قرابة منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، والتى بلغ عددها على قول أبى صالح، قرابة ٤٠٠ كنيسة (١٦).

أما الروايات التاريخية الوطنية فأجمعت على أن نهاية مملكة علوة وسقوطها أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) تم على يد جماعة من العرب والفونج. ويعنى هذا أن العرب وحلفاءهم استطاعو إسقاط هذه المملكة بفضل كثرتهم العددية، أو أن أحوال هذه المملكة كانت اضمحلالية بحيث لم تقو

على مواجهة هذه القبائل (١٧). وإذا سلمنا بصحة هذه الروايات التاريخية فيما يتعلق بدور العرب وحلفائهم ضد هذه المملكة المسيحية، فإن هذا يدعونا إلى الاعتقاد بأنه سبق سقوطها وصول جماعات عربية فى أعداد وفيرة حتى تسنى لها طبع هذه البلاد وسكانها المسيحيين بطابع مخالف هو الطابع العربى الإسلامى.

وإذ أشار المؤلفون المسلمون إلى هجرة بعض الجماعات العربية من مصر إلى بلاد النوبة الشمالية (مقرة) وأوطان البجة، فإن أحدًا من أولئك المؤلفين لم يشر إلى مثل هذه الهجرات العربية إلى بلاد علوة، بل إن أخبار هذه الهجرات واستقرار الجماعات العربية المختلفة فيها جاء من مصادر سودانية، وهى عبارة عن أوراق النسبة التى تحتفظ بها كثير من الأسرات السودانية فى الوقت الحاضر (١٨).

يضاف إلى ذلك هنا ما سبقت الإشارة إليه من هجرة بعض الجماعات العربية من الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر، سواء أكان هذا قبل الإسلام أو بعده على أثر وقوع أحداث مهمة فى بلاد العرب (١٩). فالمعروف أن عددًا من المهاجر العربية استقرت فى جهات متفرقة فى النيل الأزرق والأتبرا والحبشة (٢٠) . وإذا كانت هذه الهجرات العربية السابقة للإسلام قليلة العدد محدودة الأثر فلا شك فى أن أعدادها زادت زيادة واضحة عقب الفتح العربى لمصر حتى سمح للعرب - المهاجرين أو المترددين على علوة للتجارة وغيرها - ببناء مسجد فى سوبا (٢١).

وموضع الأهمية هنا هل ظلت الجزيرة العربية هى المصدر الوحيد لتلك الهجرات العربية الإسلامية إلى حوض النيل الأوسط عبر البحر الأحمر مباشرة، أو كانت هناك مصادر أخرى شاركت، أو انفردت بتعريب هذا الجزء من حوض النيل ؟ أن ثمة رأيًا يقول «هناك ثلاثة أبواب دخلت منها الدماء العربية ومعها الثقافة العربية إلى السودان: فالباب الشرقى من السودان كان واحدًا من هذا الأبواب ... والباب الثانى هو الباب الشمالى فى وسط السودان الذى يفضى إلى مجرى النيل... أما الباب الثالث فهو الطريق الشمالى الغربى أو الطريق الليبى... ولعل هذا الباب لم يكن مصدرًا للثقافة العربية إلا بعد الإسلام (٢٢). ويعنى هذا

أن كلا من الجزيرة العربية ومصر كانا مصدرًا للهجرات العربية التى حملت الثقافة الإسلامية إلى حوض النيل الأوسط. ومع تسليم الأستاذ عوض بأهمية مصر كمصدر للثقافة العربية فى وادى النيل الأوسط إلا أنه لم يقلل من أهمية الجزيرة العربية كمصدر مباشر للهجرات العربية التى قامت بنصيبها فى نشر العروبة فى هذا الإقليم.

غير أن هنالك من يرى أن الجزيرة العربية ـ كمصدر مباشر للهجرات العربية إلى حوض النيل الأوسط عبر البحر الأحمر مباشرة، وبالتالى كمصدر للثقافة الإسلامية فيه ـ كانت قليلة الأهمية ضعيفة الأثر بالقياس إلى المصدر الشمالى وهو مصر. فيقول الأستاذ عمار «إذا نحن استثنينا تلك الجماعات العربية القليلة التى وصلت إلى السودان رأسًا عبر البحر الأحمر، سواء أكان ذلك قبل الإسلام أم زمن التوسع الإسلامى، أم كانت هجرات حديثة كالتى أوصلت قبائل الرشايدة إلى حيث ينزلون الآن فى الشمال الشرقى للسودان. فإن تعريب السودان فى الواقع إنما تم عن طريق مصر إذ لايسجل التاريخ ـ فى أى عهد من عهود ـ وصول موجات مهمة أو هجرات عنيفة إلى السودان عن طريق غير طريق مجرى النيل من الشمال إلى الجنوب» (٢٣). ونجد للرأى الأخير تأييدًا فيما ذكره ماكمايكل إذ يقول: «إن بعض القبائل العربية فى السودان تدعى أن أجدادها وصلوا من جزيرة العرب مباشرة إلى السودان عبر البحر الأحمر لتأييد دعواهم فى الانتساب إلى أصل شريف أموى أو عباسى أو أنهم سلالة بعض صحابة رسول الله ﷺ. ومع التسليم بوصول بعض الأسر العربية من حين إلى آخر عبر هذا الطريق إلى السودان إما للتجارة أو اتخاذه مكان هجرة أو بحثًا عن المراعى كما فعلت قبيلة الرشايدة حديثًا فإن التاريخ لم يسجل وصول هجرات واسعة عبر هذا الطريق مثلما سجل عن هجرة هذه القبائل العربية إلى مصر(٢٤).

وكيفما كان الأمر فالمعروف أن كثيرًا من الجماعات العربية انتقلت من مصر جنوبًا؛ حيث استقرت فى بلاد النوبة الشمالية وأرض البجه عقب الفتح العربى لمصر، واختلطت الجماعات بعضها ببعض اختلاطًا كان يغذيه وصول القبائل وسكناها بين النوبيين والبجه حينا بعد حين، ولاسيما بعد منتصف القرن التاسع

الميلادى. وزادت جموع العرب المهاجرين من مصر جنوبًا زيادة واضحة عقب قيام السلطنة المملوكية فى مصر فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، ثم سقوط مملكة مقرة المسيحية بعد ذلك فى يد العرب أوائل القرن الرابع عشر الميلادى. ومرجع ذلك فى الغالب على قول ماكمايكل، أن أولئك العرب لم يطب لهم المقام فى مصر ولاسيما بعد أن فقدوا ميزاتهم القديمة وأصبح ينظر إليهم كعنصر غير مرغوب فى بقائه، فاستبدلوا بقوات حربية نظامية مدربة؛ لأنهم لايجيدون سوى شن الإغارات للحصول على الغنائم فضلا عن مماطلتهم فى دفع الضرائب وإثارة القلاقل. وفى القرن الرابع عشر أصبح ينظر إليهم على أنهم خارجون على القانون. ثم إن رغبة العرب ـ فى العيش عيشة البداوة والحرية التى تعودوها فى بيئتهم الأصلية والبحث عن مراعٍ واسعة تناسب حياة الإبل والأغنام والتى لايتوفر وجودها فى مصر ـ دفعت بالعرب إلى الهجرة جنوبًا؛ حيث البيئة الرعوية التى تشبه بعض جهاتها البيئة الأصلية فى الجزيرة العربية. هذا فضلا عن رغبتهم فى الحصول على الرقيق (٢٥). ثم إن السلطنة المملوكية سمحت لأولئك العرب بالرحيل من مصر وأكثر من هذا أنها أمعنت فى مطاردتهم جنوبى مقرة ذاتها بدليل ما ذكره النويرى أن حملة مملوكية جردها السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٦هـ (١٣١٧م) ضد العرب الذين يسكنون حول عيذاب لاعتدائهم على بعثة أرسلها ملك اليمن بهدية إلى السلطان المملوكى. وأوغلت هذه الحملة جنوبا حتى سواكن ، واتجهت غربا إلى التاكة، وإلى جهة الأبواب ثم عادت إلى مصر عن طريق دنقلة (٢٦).

والواضح تمامًا أن سقوط مملكة مقرة المسيحية أوائل القرن الرابع عشر الميلادى، أدى إلى ازدياد موجة الهجرات العربية، ولاسيما بعد أن بات السابقون من العرب فى شغل بمنازعاتهم الداخلية عن المهاجرين الجدد، وربما كان أشد هذه الهجرات الجديدة عنفًا ، هجرة جهينة التى أشار إليها ابن خلدون، وهى واحدة من خليط هائل من القبائل العدنانية والقحطانية وبطونها المختلفة التى تجمعت فى أنحاء النوبة الشمالية، على حين تجمع خليط آخر منها عقب سقوط دنقلة فى أرض البطانة والجزيرة ونشأت على إثر ذلك بعض المهاجر العربية قرب

سنار الحالية [٢٧]. والراجح أن معاينة هذه الجماعات للمراعى الغنية ترامت أخبارها إلى ذويهم فى الشمال فاندفعت جموعهم جنوبًا ولاسيما أولئك الذين حافظوا على بداوتهم [٢٨]، بعد أن ضاقت بهم مهاجرهم فى النوبة الشمالية. بسبب فقر بيئتها وندرة مراعيها [٢٩].

لكن كيف شق أولئك المهاجرون طريقهم نحو الجنوب؟ هل اضطروا إلى شن الإغارات على الوطنيين والدخول فى حرب ضد مملكة علوة المسيحية؛ يقول ابن خلدون : «وانتشروا (أى جهينة) ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة وكاثروا هنالك سائر الأمم وغلبوا على بلاد النوبة، وفرقوا كلمتهم وأزالوا ملكهم وحاربوا الحبشة فأرهقوهم إلى هذا العهد[٣٠]. والمفهوم من هذا أنه بعد سقوط دنقلة فى يد العرب أضحت المنطقة الممتدة من حلفا الحالية إلى شمال غربى الحبشة مسرحًا لأعمال النهب والتخريب مدة لاتقل عن ثلاثمائة عام [٣١] ، وأن العرب فى تقدمهم جنوبًا قتلوا كثيرًا من النوبيين وأسروا بعضهم حتى اضطر كثير من النوبيين إلى الهجرة غربا إلى تلال نوبا فى جنوب كردفان، وجبل حوزا وكاجا وغيرها فى شمال كردفان [٣٢]. غير أنه يبدو أن العرب لم يقابلوا فى تقدمهم جنوبا إلى جهات علوة وغيرها مقاومة عنيفة لعجز ملوكها عن دفعهم . وإذا كانوا اضطروا أحيانًا إلى استخدام العنف، فإن الطابع العام لهذه الهجرات كان طابعًا سلميًا، ونجحوا فى تحقيق مآربهم لابحد السيف بل بالاختلاط والتزاوج من بنات النوبيين وملوكهم. ويقول ماكمايكل: «إن كل الدلائل تشير إلى أن النصر - باستثناء أقاليم معينة كإقليم جبال النوبا، حيث لايزال العرب يمتلكون السهول، على حين يسكن الزنوج التلال - قد تم غالبا بالاتفاق والتزواج أكثر مما أكتسب بقوة السلاح. ويمكن القول إن الظاهرة الأساسية فى التاريخ الجنسى لشمال السودان ووسطه منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادى كانت ظاهرة الاندماج التدريجى بين العرب والسود» [٣٣].

لاشك أن لهذا الرأى وجاهته فهو يتفق وما ذكره ابن خلدون فى صدد هجرة جهينة إلى بلاد النوبة (علوة) [٣٤]. أما عن اضطراب الأمن فى بلاد النوبة وأوطان البجه حتى الحدود الحبشية، فكان بسبب النزاع بين القبائل العربية ذاتها لسبب

أو لآخر. وتشير بعض الروايات التاريخية إلى وجود مثل هذا النزاع بين قبيلتى جهينة ورفاعة أواخر القرن الثالث عشر الميلادى قرب عيذاب (٣٥). ولعل فى إشارة ابن خلدون إلى انقسام، العرب على أنفسهم ما يزيد فهمنا لما صار إليه هذا الجزء من حوض النيل أوائل القرن الخامس عشر الميلادى. إذ يقول «واستولى أعراب جهينة على بلادهم (أى النوبيين فى علوة)، وليس فى طريقه شىء من السياسة الملوكية للآفة تمنع انقياد بعضهم إلى بعض فصاروا شيعًا لهذا العهد» (٣٦). أما ما ذكره بعض المؤرخين عن التجاء بعض العناصر النوبية إلى جبال جنوب ووسط كردفان ودارفور هربًا أمام مذابح العرب، فليس هنالك ما يؤيده. والراجح كما يقول ماكمايكل ، أن أولئك المهاجرين من بلاد النوبة عقب سقوط دنقلة، إلى جهات كردفان ودارفور لم يكونوا نوبيين خلصا، بل كانوا يمثلون خليطًا من العرب والنوبيين (النوبيين المستعربين) ومن هؤلاء سكان جبل ميدوب فى شمال دارفور والتنجور والبرقد كذلك (٣٧).

أما عن الطرق والمسالك التى سلكتها الجماعات العربية المختلفة، إلى حوض النيل الأوسط، فمن بينها الطريق الذى يتجه جنوبًا بشرق من أسوان وكرسكو عبر أوطان البجه، الموازية للبحر الأحمر. غير أن أهمية هذا الطريق محدودة بالقياس إلى الطرق الأخرى لقلة الماء وفقر المرعى. والغالبية العظمى من العرب المهاجرين من مصر إلى حوض النيل الأوسط سلكت الطريق الذى يتبع مجرى النهر إلى منطقة دنقلة. وإذا كانت بعض القبائل آثرت أن تستقر على جوانب النهر، فإن منها من انتقل غربًا بطريق وادى القعب، ونزل الأراضى المحيطة به، وسلك الآخرون الطريق الذى يبدأ من كورتى على طول وادى مقدم وعبر الدبة على طول وادى الملك إلى كردفان، حيث تتفرع الهجرات على شكل المروحة، فمنها ما يتحرك إلى دارفور وما يليها غربًا وجنوبًا، ومنها ما يسير على جوانب النيل الأعظم وعبر صحراء بيوضه وأعلا الأتبرا والنيل الأزرق فى اتجاه جنوبى شرقى إلى حدود الحبشة (٣٨).

وثمة رأى آخر يقول إن الجماعات العربية التى هاجرت من مصر جنوبًا إلى السودان بطريق النيل، لم تلازم النهر فى كل جزء منه، بل سلكت طريقًا يتابع

النهر من جنوب أسوان إلى كورسكو أو قبلها ثم يخترق صحراء العتمور مباشرة إلى (أبو حمد) حيث يتابع النهر مرة أخرى ويلازمه نحو الجنوب [٣٩] . غير أن هذا الطريق إذا صح وسلكته بعض الجماعات العربية فلابد وأن يكون هذا حدث قبل سقوط دنقلة أوائل القرن الرابع عشر الميلادى، لمنع العرب أو غيرهم من غير النوبيين التقدم جنوبى الشلال الثانى إلا للتجارة [٤٠] وبسقوط دنقلة انفتح الباب أمام الجماعات العربية المختلفة للانسياب جنوبًا على طول النهر، الذى كان دائمًا الطريق الطبيعى للهجرات منذ فجر التاريخ، وذلك لإحاطته بصحراء قاحلة جرداء، على حين أن واديه الضيق يسمح بمرور القطعان حيث الماء والعشب كذلك[٤١] .

اشتملت الجماعات العربية التى هاجرت إلى حوض النيل الأوسط على المجموعتين العربيتين، وهما مجموعتا العدنانيين والقحطانيين. ويمثل العدنانيين فى الوقت الحاضر الكواهلة والمجموعة الجعلية وبعض القبائل الصغيرة الأخرى كالرشايدة. ويمثل القحطانيين، المجموعة الجهنية. إذًا متى دخلت هذه الجماعات العربية حوض النيل الأوسط؟ وكيف تم انتشارها على هذه الصورة؟ إن أول إشارة إلى بنى كاهل وردت فى رحله ابن بطوطة إلى عيذاب وسواكن فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى (١٣٥٣) [٤٢]، فذكر أن أولاد كاهل يسكنون المنطقة الممتدة من عيذاب إلى سواكن ، وهم مختلطون بالبجة عارفون بلسانهم [٤٣].

وليس من المعروف تمامًا متى استقر أولاد كاهل بين البجة والراجح أن هجرتهم إلى هذا الإقليم سابقة لهذا التاريخ (منتصف القرن الرابع عشر الميلادى) بدليل معرفتهم لغة البجة.

ويقال إن الكواهلة ينتسبون إلى كاهل بن أسد بن خزيمة، وأنهم جاءوا إلى السودان من جزيرة العرب مباشرة عبر البحر الأحمر واستقروا فى الإقليم الساحلى بين سواكن وعيذاب [٤٤]. غير أنه لايوجد من الدلائل ما يؤيد هذه الصلة المباشرة بالجزيرة العربية [٤٥]. والأرجح أن هجرة أولاد كاهل كانت عن طريق مصر. إذ تقول روايات العبايدة [٤٦] ، إنهم ينتسبون إلى عباد من نسل الزبير بن العوام، وأن جدهم عبادا قدم من جزيرة العرب إلى مصر فى القرن

الثالث عشر الميلادى، ثم مات ودفن فى وادى عباد قرب أدفو، وأن عبادًا هذا جد كاهل (٤٧) ، ومن ذريته أولاد كاهل الذين أشار إليهم ابن بطوطة. واختلط أولاد كاهل بالبجة عن طريق المصاهرة ونالوا مركز الزعامة فيهم. وعلى الرغم من أن كثيرا من الجماعات العربية اختلطت بالبجة وتصاهرت معهم منذ القرن التاسع الميلادى حتى اعتنق كثير منهم الإسلام، فإن البشاريين والأمرار وبنى عامر (٤٨) ينتسبون كذلك إلى كاهل، مما يدعونا إلى الاعتقاد أنه كان لبنى كاهل الأثر الأكبر فى نشر الإسلام والثقافة العربية فيهم (٤٩).

ومن المؤكد أن أولاد كاهل عاشوا زمنًا فى الأقاليم الساحلية الشرقية والمناطق التى تليها ، واشتغلوا بالتجارة وتنظيم القوافل بين النيل والبحر الأحمر، ثم انتشروا انتشارًا تدريجيًا نحو الغرب؛ وعرف هؤلاء جميعًا باسم الكواهلة. ويمكن تقسيم هذه الحركة كلها إلى مراحل تمثل الأولى منها نزولهم فى الساحل واستقرارهم فيه فى القرن الثالث عشر الميلادى حيث رآهم ابن بطوطة مختلطين بالبجة فى منتصف القرن الرابع عشر (٥٠). وتمثل المرحلة الثانية انتقال شعب منهم إلى جهات أتبرا والنيل الأزرق فى القرن الخامس عشر الميلادى واحتشدوا فيه. وتمثل المرحلة الثالثة انتقال جماعات منهم آتية من الشرق ونزحت إلى جهات النيل الأبيض ثم إلى كردفان فى أزمنة متعاقبة (٥١) . وبهذا أضحى للكواهلة أوطان ثلاثة (٥٢)، والواضح أن معظم هذه الأوطان التى استقروا فيها منذ القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل كانت جزء من مملكة علوة المسيحية وعاصمتها سوبا. غير أنه لم يصلنا شىء عن تاريخ هذه المرحلة من تاريخهم، ومع هذا فإن القليل الذى عرف عن رواياتهم وقصصهم فى وقت متأخر (القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين)، ولاسيما شعبة النيل الأبيض يدل على أنهم استعملوا الحيلة أحيانًا والحرب أحيانًا أخرى لتوطيد أقدامهم. وتدل الأمثلة السائرة عند بعض شعبهم (٥٣)، أنهم اتبعوا سياسة يبدو أنها متأصلة فى بنى كاهل وهى أن ينزلوا غرباء ويدفعوا لأصحاب البلاد أجرًا عن الأرض التى يحتلونها، حتى إذا كثر عددهم، ادعوا الحق فيها، والتجأوا إلى القوة لإثبات حقهم.

أما المجموعة الجعلية فتركزت على النيل الأعظم من جنوب الخرطوم الحالية حتى دنقلة. وتمثل هذه الشقة من النهر المركز الرئيسى، الذى انتشرت منه فى شعب وفروع نحو البطانة والنيل الأزرق والنيل الأبيض جنوب الخرطوم ونحو الغرب إلى كردفان، وفى الشمال حيث يعيش بعضهم مثل الجوابرة والركابية وسط الجماعات النوبية (٥٥).

وليس من المعروف تمامًا متى بدأت هجرة هذه الجماعات إلى حوض النيل الأوسط. ومن الجائز استنادًا على بعض الروايات الوطنية أن تكون بدأت هجرتها من مصر إلى هذا الإقليم ، منذ قرابة أواخر القرن العاشر الميلادى (٥٦)، سالكة طريق العتمور لتجنب مملكة مقرة المسيحية. ثم لحق بها عدد كبير فى العهد المملوكى ولاسيما بعد سقوط دنقلة (٥٧)، سالكين طريق النيل من الشمال إلى الجنوب، حيث استقروا فى أوطانهم الحالية على النيل الأعظم (٥٨).

ويقال إن الجعليين ينتسبون إلى إبراهيم الملقب بجعل ، من نسل العباس عم النبى ﷺ. وترجع سبب هذه التسمية إلى أن إبراهيم هذا كان جوادًا مضيافا، وأنه كان يقول للوطنيين وغيرهم من العرب «إنا جعلناكم منا» أى أصبحتم منا (٥٩) . وتدل هذه العبارة وكثرة ترديدها أن التوغل العربى فى هذه المنطقة كان توغلا سلميًا مبنيًا على التودد إلى السكان الوطنيين (٦٠) . ويقول ماكمايكل إن انضواء كثير من الجماعات العربية وغيرها من الوطنيين تحت لوائه، جعل ذريتهم من هذا الخليط يدعون جميعًا النسب إلى العباس (٦١).

والراجح أن الجعليين لم يكونوا أول الأمر قبيلة واحدة، بل مجموعة قبائل ذات نسب متقارب، وهاجرت على دفعات وعلى مدى قرون وبسطت نفوذها على هذه الجهات قطرًا بعد قطر إلى أن نشأت بينهم أسرة قوية تولت الزعامة ووحدت القبيلة، فضلا عن إدماج المجموعة كلها بعضها فى بعض وإدماج السكان الأصليين فى المجموعة العربية (٦٢).

وتشتمل المجموعة الجعلية على عدد كبير من القبائل منها الجعليون الأصليون الذين ليس لهم اسم آخر، وتمتد مواطنهم من خانق سبلوقة إلى الأتبرا والميرفاب

إلى شمال الأتبرا حول بربر ـ والرياطاب من بربر إلى أبى حمد ـ والمناصير من أبى حمد إلى آخر الشلال الرابع ـ والشايقية من الشلال الرابع إلى إقليم الدبة ـ والجوابرة (بنى جابر) بين الدناقلة والمحس ـ والركابية ويشك فى نسبتهم إلى الجعليين وهم من العرب الشماليين ومواطنهم وسط بلاد المحس ـ والجموعية وأتباعهم شمال وجنوب أم درمان إلى حدود الكواهلة ـ والجمع قرب النيل الأبيض إلى الجنوب من بلاد الكواهلة ـ والبديرية، بعضهم فى بلاد النوبة والبعض فى كردفان. هذا فضلا عن قبائل أخرى مبعثرة بين كردفان والنيل الأبيض والبطانة (٦٣).

وثمة ظاهرة توجب الالتفات، وهى أن الإقليم الذى تحتله المجموعة الجعلية على النيل من جنوب الخرطوم حتى دنقلة، غلبت عليه الصبغة العربية والثقافة العربية، مما يدل على أن هذه الجماعات التى هاجرت إلى هذا الإقليم على مدى القرون كانت قوية كثيرة العدد، حضرية لا تميل إلى حياة البداوة، ولهذا فضلت الاستقرار فى مدن على طول النيل (٦٤)، على حين أن غيرها من الجماعات التى حافظت على بداوتها انتشرت غربًا وشرقًا وجنوبًا فى طلب حاجات الرعى.

والمجموعة العربية الثانية ـ فى حوض النيل الأوسط بعد الجعليين من حيث عدد القبائل والبطون ـ هى المجموعة الجهنية التى تدعى الانتساب إلى عبدالله الجهنى (٦٥). وإذا كان يشك فى صحة هذه النسبة، فإن جميع الشواهد تدل على نسبتها إلى قبيلة جهينة القحطانية التى عاشت حول ينبع من قرابة ١٢٠٠ سنة، ومن هذا المركز توالت هجراتها إلى مصر (٦٦)، ثم توالت هجراتها جنوبًا إلى بلاد النوبة وأوطان البجة منذ منتصف القرن التاسع الميلادى (٦٧). وانتشرت جماعات من جهينة فى أوطان البجة حتى وصلت سواكن فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى، بدليل ما أشار إليه المقريزى من نشوب نزاع بينها وبين رفاعة سنة ٦٨١هـ (١٢٨١م) قرب سواكن (٦٨)، ثم انتشروا جنوبًا إلى أرض الحبشة. ولابد أنها كانت من القوة بحيث يقول عنها ابن خلدون إنها حاربت الحبشة وأرهقتها حتى هذا الحين وهو أواخر القرن الخامس عشر الميلادى.

أما الجماعات الجهنية التى انتقلت إلى أرض مقرة فإنها احتشدت فيها حتى إذا كان منتصف القرن الرابع عشر، أخذت فى الانتشار جنوبًا متتبعة مواقع الغيث. ويدل هذا على أن جهينة سلكت فى تقدمها جنوبًا مسالك مختلفة، أهمها الطريق الشرقى عبر أوطان البجه، والآخر طريق النيل، ومنها احتلت أقاليم موزعة بين الأتبرا والنيل الأزرق شرقًا إلى أقاصى دارفور غربًا.

وتنقسم القبائل الجهنية فى السودان إلى ثلاث مجموعات رئيسية: الأولى وتشمل رفاعة (ومعها أقرباؤها من القواسمة والعبد اللاب والعركيين وغيرهم) - اللحويين - والحلويين - والعوامرة - والخوالدة - والشكرية، ومواطنهم جميعا فى أقاليم النيل الأزرق والبطانة، أى فى النصف الشرقى من السودان. وتشتمل المجموعة الثانية على دار حامد - وبنى جرار - والزيادية - والبزعة - والشنابلة - والمعاليا . ويطلق النسابون على هذه المجموعة اسم فزارة، ويعيشون فى المنطقة الوسطى والشرقية من كردفان. أما المجموعة الثالثة فتشتمل على الدويحية - والمسلمية - والبقارة - والمحاميد - والماهرية - والكبابيش - والمغاربة (الذين جاءوا من المغرب) - والحَمَر. وهم منتشرون فى كردفان ودارفور.

وينبغى أن نشير هنا إلي أن هذا الانتشار الواسع لم يتم دفعة واحدة، بل استغرق عدة قرون، وأن هذه الجماعات استقرت على شكل مجموعات متفرقة تحت سلطان ملوك علوة، محافظة على نظامها القبلى(٦٩). ولابد أنهم كانوا يدفعون أتاوة لملوك علوة (٧٠). ومع توالى وصول هجرات جديدة على مر القرون كثرت أعدادهم كثرة واضحة. فتقول إحدى الروايات الوطنية إنه كان لجهينة ٢٥ وحدة قبلية قرب سوبا علي النيل الأزرق، وأكثر منها في الأقاليم الغربية فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى (٧١). ثم اشتد ضغط أعراب جهينة على ملوك علوة الذين حاولوا دفعهم أو صدهم على قول ابن خلدون، ولما لم يستطيعوا لهم دفعًا استمالوهم إليهم بالمصاهرة، فانتقل الملك إلى أبناء جهينة ببنات ملوك علوة حسبما يقتضى به نظام الوراثة المعروف عند النوبيين جميعًا، «فافترق ملكهم حتى هذا العهد» (أى القرن الخامس عشر الميلادى).

والمعروف أن مملكة علوة المسيحية تألفت من عدة ممالك صغيرة خاضعة للملك الكبير في سوبا، وهذه الممالك الصغيرة هي التي انتقل سلطانها - دون سلطان الملك الكبير - إلى أبناء جهينة. ويذكر الدمشقى (١٢٥٦ - ١٣٣٧م) أن ملك علوة يسكن مدينة تسمى كوسة [٧٢] لا مدينة سوبا العاصمة القديمة.

وليس من المستبعد أن يكون ملك علوة اضطر أمام ضغط الجماعات العربية المختلفة ومن بينها جهينة إلى نقل مقر ملكه فى القرن الرابع عشر الميلادى على الأقل إلى مدينة كوسة واتخذها عاصمة له [٧٣]، وبهذا تكون سوبا فقدت مركزها القديم كعاصمة لمملكة علوة، فاضمحل شأنها وخربت دورها [٧٤].

وعلى الرغم من انتقال العاصمة من سوبا إلى كوسة واستيلاء القبائل العربية على معظم أقاليم علوة، فإن هذا لايعنى سقوط تلك المملكة حتى القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل. ذلك بأن العرب لم ينشئوا حكومة مركزية تخضع إليها سائر الأقاليم ، لأسباب واضحة منها «عدم انقياد بعضهم إلى بعض فصاروا شيعًا لهذا العهد [٧٥]».

والواضح تمامًا أن قبائل جهينة لم تكن الوحيدة التى أفادت من تداعى مملكة علوة وانحلالها، بل شاركتها القبائل العربية الأخرى التى استقرت فى جهات متعددة من مملكة علوة. وعلى هذا نشأت فى جوفها عدة إمارات عربية مستقلة. ويذكر القلقشندى أن من بين الإمارات التى نشأت فى أوطان البجه حتى الحدود الحبشية وبلاد النوبة كذلك هى ثمانى إمارات كان بين أمرائها والسلطنة المملوكية فى مصر مراسلات فى القرنين الثامن والتاسع للهجرة (الرابع عشر والخامس للميلاد [٧٦]). غير أنه ليس من الواضح تمامًا إن كانت هذه الإمارات يقع بعضها فى إحدى جهات علوة أو قريبًا منها.

وكيفما كان الأمر، فالمعروف أنه منذ القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل ظهرت عدة ممالك ومشيخات إسلامية فى حوض النيل الأوسط [٧٧]، وكان لظهورها أثر خطير فى تطور الحياة الاجتماعية والسياسية كذلك ، مما ساعد على زوال بعض الأسس التى قامت عليها الملكية المسيحية فى علوة. ذلك أن

اختلاط العرب المهاجرين بالسكان الوطنيين ساعد على إزالة بعض التقاليد الاجتماعية القديمة ولاسيما بعد اختفاء معظم بيوت الإمارة القديمة، فنال الفرد حريته فى ظل التقاليدالقبلية العربية، وأضحت الأرض ملكًا للجماعة القبلية بعد أن كانت ملكًا خاصًا للملك، وصارت الأرض توزع على الجماعة يقومون على استغلالها ودفع الضريبة عنها لشيخ القبيلة أو زعيم الدار. ويعنى هذا الدور من التطور، الانتقال من مرحلة الإقطاع المطلق إلى نظام يعطى للفرد نصيبًا من جهوده (٧٨).

وثمة تطور آخر على الحياة السياسية. ذلك أن الحكم أضحى وراثيًا فى بيت شيخ القبيلة أو الدار، وتكونت من مجموعات القبائل ـ فى الإقليم الذى اتخذته دارًا لها ـ زعامات إقليمية تولاها شيخ المشايخ وهو عادة شيخ أقوى قبيلة فى المجموعة وعرف باسم الملك أو المانجل (٧٩). وبهذا اختفى نظام الوراثة القديمة، أى نظام الأمومة.

ولعل أهم أثر لقيام هذه المشيخات الإسلامية فى حوض النيل الأوسط، هو ازدياد انتشار الإسلام بين كثير من أهل البلاد، وذلك أنه لما رأت القلة التى بقيت على النصرانية ألا أمل لها فى قيام حركة للإصلاح فى مجتمعهم بسبب انقطاع علاقاتهم الدينية بكنيستهم الكبرى فى الإسكندرية، كان من الطبيعى أن ينشدوا ما يسد رمقهم الروحى فى الدين الإسلامى الذى دل بين أتباعه منهم على قوة وحيوية (٨٠).

وعلى الرغم من تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية فى هذا الجزء من حوض النيل، فإن هذا لم يؤد إلى استقرار الأحوال فيه بسبب اختلال الأمن، والنزاع بين القبائل العربية حول مواطن الرعى من ناحية وبينها وبين الوطنيين من ناحية أخرى (٨١) ، مما أدى إلى تدهور الأحوال الاقتصادية. وزاد الأمور تعقيدًا تعطيل التجارة بين هذه البلاد وبين مصر، واختلال سير القوافل بينهما، بسبب اضطراب الأحوال فى منطقة النوبة الشمالية (٨٢) . ولهذه الأسباب ظهرت الحاجة إلى إنشاء حكومة مركزية تخضع لها شتى الجماعات والقبائل المتنازعة، لإقرار الأمن وحماية طرق التجارة القديمة. وتذكر المراجع الوطنية أن عمارة

دونقس زعيم الفونج جمع رجاله فى جبل مويا (٨٣). ثم تحالف مع عبدالله شيخ عرب القواسمة من جهنية وأصحابه الآخرين، على إخضاع ملك العنج وملك الغرب (٨٤). ودارت فى أربجى (٨٥) . معركة سنة ٩١٠هـ ١٥٠٥م (٨٦). انتصر فيها الحليفان، وفر العنج إلى جبال فازوغلى وكردفان، ومن بقى منهم اختلط بالغزاة واعتنق الإسلام (٨٧).

أما الفونج فاختلف المؤرخون حول أصلهم، ورأى البعض أنهم شعبة من الشلك مستندين فى هذا على ما ذكره بروس الرحالة الإسكتلندى الذى زار سنار سنة١٧٧١ (٨٨). وقيل إنهم أتوا من الغرب، ويحتمل أن يكونوا فرعًا من الأسرة المالكة فى مملكة برنو(٨٩) وثمة رأى ثالث يقول إنهم هجرة عربية دخلت السودان من الحبشة بطريق النيل الأزرق(٩٠). أما الفونج أنفسهم فيقولون إنهم من ذرارى الأمويين الذين لجئوا إلى ملك الحبشة، فرارًا من بنى العباس(٩١). ونجد لذلك تأييدًا فيما أشار إليه كل من المسعودى(٩٢) والمقريزى عن هجرة بقايا الأمويين إلى بلاد النوبة وساحل البحر الأحمر، ولا يبعد أن يكون بعضهم استقر إما فى بلاد النوبة الشمالية ثم انتقل إلى أرض الجزيرة، أو أن بعضهم لجأ إلى الحبشة ومنها إلى أرض الجزيرة كذلك.

وكيفما كان الطريق الذى سلكه الفونج إلى جزيرة النيل الأزرق، أو درجة الصحة فى انتمائهم إلى العرب عامة أو بنى أمية خاصة، فموضع الأهمية فى الواقع فى هذه المرحلة من تاريخ الفونج أن أولئك القوم، سواء هبطوا جزيرة النيل الأزرق من الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب، عرضوا أنفسهم على قاعدة أنهم عرب ووافقهم الناس على نسبتهم هذه(٩٣)، لاسيما وأنهم لم تكن لهم لغة سوى العربية(٩٤)، أو يدينون بدين سوى الإسلام.

وتدل شروط الحلف بين الحليفين عمارة وعبد الله، أن يكون عمارة هو المقدم على زميله فى الزعامة وحمل لقب ملك. وأن يحل عبد الله محله مدة غيابه، أى أنه كان بمثابة نائب ملك، وحمل لقب شيخ. وانتقل هذا النظام الذى وضع أساسه الحليفان إلى أولادهما من بعدهما (٩٥).

اتخذ عبد الله مدينة قرى (قرب خانق سبلوقة) مقرًا له، واختط عمارة مدينة سنار[٩٦] لتصبح عاصمة مملكة الفونج التى امتدت مساحتها من سواكن شرقًا إلى النيل الأبيض غربًا، ومن أقصى جبال فازوغلى جنوبًا إلى الشلال الثالث شمالاً. أى أنها اشتملت على معظم النوبة العليا (علوة) وقسم كبير من بلاد النوبة الشمالية (مقرة). ويقال إن حملة حربية أرسلها ملك سنار لإخضاع النوبة السفلى، ووصلت حتى الشلال الثالث ولما أراد قائد الحملة التقدم شمالاً هزمته جيوش الغز الأتراك عند حنك وظلت حنك تمثل حدًا فاصلاً بين نفوذ الفونج جنوبًا وبين نفوذ الغز الأتراك الذى شمل النوبة[٩٧] السفلى من حنك إلى أسوان.

وأضحت مدينة أربجى (قرب المسلمية) الحد الفاصل بين نفوذ عبد الله الذى امتدت سلطته على جميع الوحدات القبلية حتى حنك (شمال دنقلة) [٩٧]، على حين أن سلطة عمارة امتدت على ما يلى هذه الأقاليم جنوبًا. هذا ولم يباشر ملوك سنار أو حلفاؤهم فى قرى سلطاتهم على مملكة الفونج بصفة مباشرة، بل عن طريق المكوك (شيوخ القبائل) الذين تمتعوا بشىء من الاستقلال، على أن يدفعوا الضرائب المقررة لخزانة الملك فى سنار[٩٨]. واحتفظ ملوك سنار وحلفاؤهم فى قرى بحق تنصيب الملك أو المانجل من بين أفراد أسرة الملك المتوفى[٩٩].

وفى أيام عمارة امتد النفوذ العثمانى إلى الشام ومصر. وقام العثمانيون بعملية تأمين الحدود الجنوبية على غرار ما فعل جميع السابقين. غير أن الامتداد العثمانى اهتم بالناحية البحرية، لأن استيلاء العثمانيين على مصر كان مختلطًا فى عوامله ودوافعه بما لمصر من سيطرة على تجارة البحر الأحمر، وكانت تلك التجارة مهددة تمام التهديد من ناحية البرتغاليين. وهذا هو تفسير اهتمام العثمانيين بالناحية الجنوبية، مما جعلهم يقيمون قواعد فى سواكن ومصوع سنة ١٥٢٠م. وخشى عمارة من هذا الامتداد العثمانى من ناحية البحر، فبعث إلى الباب العالى يذكر له أن دولته إسلامية، وأن رعيته عرب بادية لا يملكون ما يصلح لدفع الجزية للسلطان. وعزز عمارة هذه الرسالة بكتاب يحوى أنساب قبائل العرب فى مملكته جمعه له السمرقندى أحد علماء سنار. ويقال إن السلطان العثمانى اقتنع بصحة ما تضمنته هذه الرسالة فعدل عن حرب سنار[١٠٠].

هكذا تم ميلاد هذه الدولة الإسلامية أوائل القرن السادس عشر الميلادى على أنقاض مملكة علوة المسيحية. غير أن المعروف أن هذه الدولة اشتملت على عناصر مختلفة، عربية وحامية وشبه زنجية، فضلاً عن خليط منها جميعًا، وهى ذات ثقافات مختلفة ومختلطة كذلك. ويصف صاحب الطبقات حال هؤلاء وأولئك جميعًا عقب تأسيس مملكة الفونج بقوله: «اعلم أن الفونج ملكت أرض النوبة وتغلبت عليها أول القرن العاشر سنة عشر بعد التسعمائة (١٥٠٥م) وخطت مدينة سنار ولم تشتهر فى تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن. يقال إن الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره فى نهاره من غير عدة» (١٠١).

تصور هذه الحالة التى وصفها صاحب الطبقات نوع الثقافة التى سادت جهات حوض النيل الأوسط أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى). وهى تدل دلالة واضحة على اختلاط الإسلام بالعقائد والعادات الوطنية، فشارك المهاجرون أهل البلاد الأصليين فى الجهل بقواعد الإسلام. ومرجع هذا فى الغالب إلى أن الدعوة الإسلامية، لم تكن تهتم حتى هذا الوقت بشرح تفاصيل الأسس التى يقوم عليها الإسلام، بل كانت هذه الدعوة مجملة مبسطة (١٠٢) ليسهل على دعاتها نشر عقيدتهم بين أهل البلاد من ناحية، وبسط نفوذهم عليهم من ناحية أخرى. هذا والمعروف أن معظم أولئك المهاجرين كانوا على حال من البداوة، فنسوا الكثير من تعاليم الدين لبعد صلتهم بمواطن العلم والعلماء (١٠٣).

غير أن بعض المصادر السودانية تشير إلى وجود نوع من النشاط الثقافى فى بلاد النوبة قبل قيام السلطنة السنارية. ومن الأمثلة على هذا ما تذكره إحدى الوثائق أن غلام الله بن عايد اليمنى الأصل، هبط أرض دنقلة أواخر القرن الرابع عشر الميلادى واستقر فيها، لأنها كانت فى غاية الضلالة والحيرة، لافتقارها إلى العلم والعلماء. فعمر غلام الله هذا المساجد وعلم أبناءه وتلاميذه من أبناء المسلمين تلاوة القرآن وعلمهم كذلك بعض العلوم الأخرى(١٠٤). ثم ظهر فى نواحى أبو حليمة على النيل الأزرق - قبل قيام السلطنة السنارية - أولاد عون السبعة، وتولى أحدهم ويدعى الضرير منصب القضاء فى زمن العنج. وليس من المستبعد

أن يكون من أحفاد غلام الله من انتقل من دنقلة إلى جهات النيل الأزرق أواسط القرن الخامس عشر حيث أنشأوا المساجد للعبادة والتدريس(١٠٥).

وإذا استثنينا بعض الحالات التى استخدم فيها العنف لنشر الإسلام بين الجماعات الوثنية والقضاء على العادات القديمة (١٠٦)، فإن أساليب الدعوة الإسلامية زمن الفونج كانت سليمة خالصة. وتميزت هذه المرحلة من تاريخ الدعوة بظهور طبقة من الفقهاء ورجال الصوفية الذين تعهدوها بأساليب جديدة قامت أساسًا على شرح تفاصيل الدعوة ومبادئها للناس ونهيهم عما يتعارض من عاداتهم ومعتقداتهم مع الإسلام. والواضح مما ذكرته بعض المراجع السودانية المختلفة أن هذه الحركة العلمية مصدرها مصر والحجاز وبلاد المغرب والعراق وغيرها. ويرجع هذا فى الغالب إلى هجرة أفراد أو أسرات مثقفة من هذه الدول الإسلامية إلى جهات حوض النيل الأوسط لينزلوا فى كنف ملوكها رغبة فى عطائهم وإكرامهم، أو ليعيشوا فى خيراتها وأراضيها الواسعة، أو لينشروا دين الله والعلم والتصوف، أو ليتخذوه مأوى جديدًا بعد أن ضاقت بهم أوطانهم (١٠٧). وفضلاً عن هؤلاء فإن كثيرًا من أبناء مملكة سنار كانوا يرحلون إلى مصر لتلقى العلم بالأزهر ثم يعودون إلى بلادهم. ومنهم من كان يحج إلى بيت الله الحرام ويأخذ العلم عن أحد فقهائها أو يأخذ الطريقة عن أحد مشايخ الطرق فى الحجاز. وهؤلاء وأولئك جميعًا كان لهم أثر واضح فى نشر الثقافة الإسلامية فى مملكة سنار.

ومن الأمثلة الدالة على هذا ما تذكره المراجع بصدد هجرة بعض السناريين إلى مصر فى طلب العلم أوائل القرن السادس عشر الميلادى. ومن بين هؤلاء محمود العركى الذى أخذ العلم عن ناصر الدين اللقانى وأخيه شمس الدين(١٠٨) ثم عاد إلى وطنه فأسس سبع عشرة مدرسة ما بين الحسانية (توتى) وأليس (الكوة). ويعد محمود العركى أول من طبق أحكام الدين الإسلامى فى هذه المنطقة بتفقيه الناس وأمرهم بالعدة (١٠٩).

وامتاز النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) بازدهار الثقافة الإسلامية فى مملكة سنار. إذ أن عددًا من السناريين ارتحلوا إلى

مصر لطلب العلم بالأزهر، ومن بين هؤلاء أولاد جابر الأربعة(١١٠) فأكبرهم إبراهيم المعروف بالبولاد تفقه على الشيخ محمد البنوفرى إمام المالكية فى مصر، وأخذ عنه الفقه والأصول والنحو ثم عاد إلى ترنج مسقط رأسه فى أرض الشايقية. وكان أول من درس مختصر خليل فى مملكة الفونج «وتخرج على يديه أربعون إنسانًا صاروا كلهم أولياء وأقطابًا». ومن إخوة إبراهيم، عبد الرحمن الذى نهج نهجه ورحل إلى الأزهر وتتلمذ علي الشيخ البنوفرى - ومنهم من تردد على مصر من وقت إلى آخر للاتصال بعلمائها كما فعل الأخ الثالث إسماعيل، الذى أجازه الشيخ البنوفرى كذلك وغدت بلاد الشايقية مقصد الطلاب من أنحاء مختلفة فى مملكة الفونج فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى(١١١).

وقرابة سنة ٩٥٠هـ (١٥٤٣م) قدم من مصر الشيخ محمد القناوى المصرى الأزهرى الثقافة، تلميذ الشيخين سالم السنهورى(١١٢)، ويوسف بن عبد الباقى الزرقانى. ودخل بربر وأربجى وسنار، غير أنه فضل سكنى بربر وبنى بها مسجدًا لتدريس الرسالة والعقائد والنحو وسائر العلوم، وولى القضاء فباشره بعفة ونزاهة (١١٣). وتخرج على يديه عدد من أبناء بربر وغيرهم منهم حفيده الشيخ المضَوِّى(١١٤) المصرى، والشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب من أهل دنقلة (١١٥).

ومن العلماء المصريين الذين قدموا إلى مملكة سنار فى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى كذلك - الشيخ محمد بن على بن قرم الكيمانى المصرى وهو شافعى المذهب وتلميذ الخطيب الشربينى. فأقام فى بربر ودرس المذهب الشافعى فى بربر وأربجى ومن تلاميذه ابنه الشيخ الشكاك (١١٦)، والقاضى دُشين قاضى أربجى فى عهد الشيخ عجيب المانجلك، وغيرهم كثير(١١٧).

ثم وفد من الحجاز أحد أئمة الصوفية ويدعى تاج الدين البهارى البغدادى، وهو خليفة الطريقة القادرية الجيلانية. واستقر تاج الدين فى أرض الجزيرة سبع سنين تمكن فيها من إدخال الطريقة الجيلانية بعد تسليك خمسة من المريدين منهم الشيخ محمد الهميم. ثم تولى هؤلاء تسليك غيرهم بعد عودة شيخهم إلى الحجاز(١١٨).

وفى هذا الوقت أيضًا (أى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى) قدم التلمسانى المغربى على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب وسلكه طريق القوم وعلمه علم الكلام، وعلوم القرآن من تجويد وروايات ونحوها. وانتشر علم التوحيد والتجويد فى الجزيرة. وممن أخذ عنه عبد الله الأغبش من بربر(١١٩).

وتمتع أولئك المشايخ بنفوذ واسع فى مملكة سنار، فأقطعوا الإقطاعات الواسعة، ولم يرد لهم طلب عند الحكام والملوك، ومن استجار بهم فهو آمن غضب السلطان، مما شجع أولئك المشايخ على الإقامة ونشر الدين والثقافة الإسلاميتين فى هذه البلاد(١٢٠).

والواضح من دراسة حياة أولئك الرواد أن مصر هى المصدر الأساسى للثقافة الإسلامية التى ظهرت فى مملكة سنار فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) (١٢١). ومن الملحوظ هنا أن الأثر المصرى يتميز عن غيره بأنه ذو طابع علمى فى معظمه. فإن أولئك الذين أخذوا عن علماء الأزهر «بالمباشرة أو الواسطة» (١٢٢)، اتجهوا إلى تعليم الناس الفقه والتوحيد واللغة وغيرها من العلوم، على حين أن الطابع الصوفى أو الصوفى العلمى معًا كان غالبًا على تعليم الثقافة الحجازية والمغربية والعراقية (١٢٣).

ومن الملحوظ هنا كذلك أن الطابع العلمى الذى تأثر به السناريون اتجه إلى حصر الانتباه فى العلوم النقلية، التى سادت العالم الإسلامى منذ القرن العاشر الهجرى بعد أن تغيرت أساليب التربية الإسلامية على يد الأتراك وغيرهم، وانصراف العلماء إلى التأليف والتحرير لا إلى الاجتهاد والتخريج، وميل معظم علماء هذا العصر إلى اختصار ينقصه الشرح والتعليق (١٢٤).

أما عن المذاهب الدينية، فالسناريون غلب عليهم مذهب مالك بسبب اتصالهم بأهل صعيد مصر الذين غلب عليهم هذا المذهب (١٢٥). وأما الدراسة العلمية لهذا المذهب فقد ظلت مزدهرة بالأزهر إلى جانب المذاهب الأخرى، وانتقلت دراستها إلى بلاد الفونج على يد خريجى الأزهر، سناريين ومصريين مثل الشيخ إبراهيم البولاد والشيخ محمد القناوى المصرى وغيرهما.

وعلى الرغم من أن انتشار المذهب الشافعى كان محدودًا إلا أن القليل من علماء الشافعية الذين تخرجوا فى الأزهر وتلاميذهم، كان لهم أثر واضح فى نشر تعاليم الإسلام. ومن هؤلاء محمد بن قرم الكيمانى المصرى وتلاميذه عبد الله العركى والقاضى دشين الشافعى قاضى أربجى وعبد الرحمن ولد حمدتو والشيخ إبراهيم الفرضى وغيرهم (١٢٦).

وانتشرت علوم القرآن فى مملكة سنار أواخر القرن العاشر الهجرى، ويقال إن الشيخ محمد سوار الذهب من دنقلة تلقى علوم القرآن على التلمسانى المغربى(١٢٧) كما تلقاها من قبل على الشيخ محمد القناوى المصرى فى بربر(١٢٨). وليس من المعروف تمامًا أيهما كان أقوى أثرًا. غير أن انتشار قراءة ورش فى دنقلة وأبى عمرو فى معظم جهات مملكة سنار - وهما القراءتان الشائعتان فى بلاد المغرب - يدل على تأثر السناريين ببلاد المغرب فى علوم القرآن أكثر من تأثرهم بمصر(١٢٩).

وإلى جانب الثقافة العلمية، ظهرت فى مملكة سنار منذ القرن العاشر الهجرى بوادر ثقافة دينية صوفية كذلك. وهى الثقافة التى كانت شائعة فى هذا الحين فى بلاد العالم الإسلامى مثل الحجاز والعراق ومصر وبلاد المغرب، ومنها تسربت إلى مملكة سنار على يد بعض الدعاة أو المواطنين الذين اتصلوا بمنابعها. وللسناريين صلات غير منقطعة بالحجاز ولاسيما فى موسم الحج لطلب العلم على علماء الحرمين، ثم إن بعض قادة الصوفية فى الحجاز وبلاد المغرب قدموا إلى مملكة سنار حيث طاب لهم فيها المقام (١٣٠)، لترحيب السناريين بهم وتشجيع ملوك الفونج لهم (١٣١). ولقيت الطرق الصوفية فى مملكة سنار منبتًا خصبًا، ويرجع هذا فى الغالب إلى أن كثيرًا من المشايخ أظهروا من الصفات ما جعل الناس يتهافتون عليهم ويتخذونهم ملاذًا فى ساعات الضيق والعسرة (١٣٢)، كما أن الحروب والانقسامات الداخلية التى سبقت عصر الفونج أورثت فى نفوس السناريين فى هذا العهد رغبة شديدة فى حياة مستقرة، مما دعاهم إلى الاستجابة لدعوة أولئك المشايخ الذين ظهروا مع قيام مملكة الفونج للانتظام فى سلك العبادة (١٣٣).

ويقال إن الطريقة الشاذلية [١٣٤]، دخلت السودان قبل قيام مملكة الفونج، على يد الشريف حمد أبى دنانة سنة ١٤٤٥م. ثم رسخت دعائمها زمن الفونج على يد الشيخ خوجلى عبد الرحمن المتوفى سنة ١٧٤٣م، والذى كان أول أمره قادريًا ثم تحول شاذليًا [١٣٥].

ويظهر أن هاتين الطريقتين عندما دخلتا بلاد سنار، لم يكن لهما هيئة مركزية منظمة، تضم الشيخ الأكبر وخلفاءه ومريديه، بل كانت الطريقة تسلك على يد شيوخ كثيرين منتشرين فى أنحاء البلاد مستقلين عن بعضهم إلا من حيث الرباط الروحى الذى يربطهم جميعًا باعتبارهم من أتباع طريقة واحدة. ولم يدخل التنظيم على هذه الطرق إلا فى القرن التاسع عشر الميلادى.

ومن الملحوظ هنا أن بعض الفقهاء السناريين أصبحوا شيوخًا صوفية، ومن هؤلاء الشيخ عبد الله العركى. على أن أغلب رجال الصوفية فى هذا العهد (القرن العاشر الهجرى) كان من غير العلماء ومن هؤلاء خليل بن على الصاردى الذى كان فى أول أمره خمارًا شرابًا [١٣٦]. ومنهم الشيخ محمد الهميم الذى كان من أكبر قادة الصوفية فى مملكة سنار «مع كونه أميًا لم يقرأ إلا لغاية الزلزلة [١٣٧]. وقد يكون بعض السبب فى هذا راجعًا إلى أن الناس فى هذا الوقت (القرن العاشر الهجرى) كانوا لا يزالون فى مستوى ثقافى لم يتوافر فيه التعرف على حقيقة التعاليم الإسلامية وتدبر أصول الدين مما جعلهم لا يميزون بين مما هو من أصل الدين وما هو بدعة فيسهل التأثير فيهم، ويتملكهم كل شىء طريف غير مألوف، كالتحدث بالغيب والكرامات وادعاء الطب الروحانى، ولاسيما إذا جاء هذا عن طريق الدين [١٣٨].

وكيفما كان الأمر فإن أثر الطرق الصوفية يبدو واضحًا فى التقريب بين الجماعات الجنسية، لأنها تعمل على إضعاف العصبية القبلية وإيجاد نوع من التعاون بين الجماعات المختلفة [١٣٩]. من ذلك أن التجمع الصوفى كان نواته شيخ الطريقة، يجتمع إليه الناس ويصبحون تحت لواء الشيخ طريقة واحدة تجمع الدعوة شملهم على اختلاف قبائلهم وسلالاتهم.

وهكذا يمكن القول إن القرن السادس عشر الميلادى كان عهد انتقال من المسيحية المتهدمة إلى الإسلام البدوى على أيدى جماعة من العلماء الذين وفدوا من البلاد المجاورة، أو من الوطنيين الذين أخذوا العلم عن أولئك العلماء الوافدين وإلى هؤلاء وأولئك يرجع الفضل فى وضع الأسس التى قامت عليها النهضة العلمية والصوفية التى ازدهرت فى مملكة سنار منذ القرن السابع عشر الميلادى.

هوامش الفصل السابع

(1) Griffith, F. Ll.: Christian Documents from Nubia p. 2. Arkell, A. J.:"Fung Oriins", SNR. XV. part II. 1932 p. 203.

(٢) انظر الفصل السادس.

(٣) امتدت مملكة الزغاوة حسبما ورد فى المهلبى من بحيرة تشاد فى الغرب إلى أطراف النوبة فى الشرق. ويرى آركل أنها شملت الكانم ودافور فى القرن الرابع عشر.

Arkell, A. J. : A Hist. of the Sudan p. 199.

(4) De Villard : op. cit. pp. 198 - 210.

(٥) انظر الفصل السادس.

(٦) انظر الفصل الخامس.

(٧) كان الرقيق إحدى وسائل التعامل التجارى بين ممالك النوبة المسيحية وغيرها بدل العملة التى لم تكن معروفة عندهم. انظر الفصل الرابع.

(8) Walkely, C. E. J.: "The Story of Khartoum", SNR.

XVIII. Part II. P. 224.

(9) Arkell, A. J. : A Hist of ths Sudan to AD. 1821.

PP. 199 - 200.

(١٠) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٨، ص١١٦.

(11) Father Francisco Alvarez, Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia. P. 65.

(١٢) ذكر الفارز خطأ أن العادة جرت فى الماضى بأن ترسل روما القسس لهؤلاء القوم: وأن آخر قسيس جاء من روما مات منذ أمد بعيد. ولم يتمكنوا من الحصول على غيره بسبب الحروب بين المسلمين. والحقيقة بطبيعة الحال أن الإسكندرية لاروما هى التى كانت تبعث بهؤلاء الأساقفة . ثم توقف إرسالهم بسبب الحروب فى النوبة الشمالية «مقرة».

(١٣) Ibid, op. cit. P. 352. وبلاد المسلمين هنا يقصد بها مصر

(14) Alvarez: op. cit. p. 352.

ويرى شنى Shinnie, P.L.: Excav, at soba P. 13. أن رواية الفارز تشير إلى مملكة علوة أما Crawford, O. G. S.: op. cit. p. 149 فيرى أن هذه الرواية تنطبق على مملكة مقُرَّة أكثر من عَلوة. غير أن هذا لايتنق وما عرف عن إسلام مقرَّة منذ قرنين مضيا، والراجح أن هؤلاء النوبيين الذين أشار إليهم الفارز تابعون لعلوة بدليل ما ذكره أن العرب يسيطرون على البلاد الواقعة جنوبى مصر وهى مقرة بطبيعة الحال فضلا عما ذكره أنهم يجاورون البلو. وهى مملكة البلو المجاورة للحبشة.

(15) Alavarez, F: op. cit. p. 352.

(١٦) أبو صالح: ص١٢٠.

(١٧) سبق أن أشرنا إلى بعض عوامل اضمحلال مملكتى مقرة وعلوة، انظر الفصل الرابع.

(١٨) جمع ماكمايكل معظم أوراق النسبة العربية فى السودان ونشرها فى مؤلفه الضخم المعروف باسم A History of the Arabs in the Sudan. II. غير أن هذه الوثائق الوطنية تحتاج إلى تمحيص وغربلة حتى يتسنى الانتفاع بها، وذلك لأن معظم عرب السودان يميلون دائمًا إلى الانتساب إلى بيت الرسول أو أحد الصحابة، وأدى هذا إلى اصطناع كثير من هذه النسبة التى تجعل الاعتماد عليها وحدها أمرًا غير مقبول.

(١٩) ومن بين هذه الأحداث تخريب سد مأرب واضطهاد قريش للمسلمين وحروب الردة والنزاع على الخلافة بين الأمويين والعلويين وسقوط الدولة الأموية كذلك.

(٢٠) انظر الفصل الخامس.

(٢١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ، ص١٠٠.

(٢٢) انظر محمد عوض محمد: السودان الشمالى، ص١٥٩ - ١٦٠ حيث يقول: «وحسبنا أن نقرر أن الباب الشرقى من السودان كان واحدًا من الأبواب التى دخلت منها الدماء العربية ومعها الثقافة العربية إلى السودان، وأن تأثيرها لم يكن مقصورًا على الجهات التى تقابل الجزيرة العربية بل تجاوزتها إلى السودان الأوسط والسودان الغربى أيضًا».

(٢٣) عباس عمار: وحدة وادى النيل. أسسها الجغرافية ومظاهرها فى التاريخ، ص٨٠

(24) Hamilton, J. A. de C. ed.: The Anglo Egyptian Sudan From Within. "The coming of. the Arabs in the Sudan". by MacMichael, pp. 47-- 64.

(25) Hamilton ed.: op. cit. pp. 47 - 50

انظر أيضًا:

Reid, J. A.: "Some notes on the tribes of the White Nile Province" SNR. XIII. part II. 1930. p. 151.

(٢٦) النويرى: نهاية الأرب، جـ٣٠، ص٩٦، ٩٧، المقريزى: السلوك، جـ٢، القسم الأول، ص١٦٢. انظر ملح رقم ١٢.

(27) Henderson. K D.D.: "Fung Origins" SNR. XVIII Part I. 1933 P. 150.

(28) Hamilton.: ed. op. cit. p. 48.

(29) Trimingham. J. S.:Isiam in the Sudan. p. 71.

(٣٠) ابن خلدون : العبر، جـ٢، ص٢٤٧.

(31) Walkly. C. E. J.: "The story of Khartoum". SNR. XVIII. Part II. 1935 p. 124.

(32) Sager. J. W.: "Notes on the history, religion and customs of the Nuba", S N R. V. Part III. 1922 p. 139.

ويشبه سجر تقدم العرب فى شمال السودان بتقدم الأنجلوسا كسون فى بريتانى حيث قضوا على البريتون ومن نجا منهم فر إلى جبال كرنول وويلز .

(٣٣) عباس عمار - وحدة وادى النيل، ص١٦، نقلا عن:
Hamilton.: ed. op.cit. p. 59.

(٣٤) انظر الفصل السادس من البحث، ص١٧٥ حيث ورد فيه نص ابن خلدون الذى يشير فيه إلى عجز ملوك النوبة عن صدهم، فاستمالوا إليهم العرب عن طريق المصاهرة. ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٤٢٩.

(٣٥) المقريزى: السلوك، جـ١، القسم الثالث ص٧٠٠. انظر كذلك:
Bloss, J. F. E.: "The of Suakin". SNR., XIX, part II, 1936 p. 281.

(٣٦) ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٤٢٩.

(37) MACMichael. H. A.:"Nubian elements in Darfour" SNR., I. part I. 1918. p. 44.

ويضيف ماكمايكل أن سكان جبل ميدوب يدعون النسب إلى المحس، وأن التنجور هاجروا إلى دارفور فى القرن ١٥م. أما البرقد فإنهم هاجروا من النوبة إلى دارفور فى القرن ١٦م وهم جميعًا يتكلمون لغة تشبه لغة النوبيين على النيل.

(38) Hamilton, : ed. op. cit. p. 55.

(٣٩) محمد عوض محمد: السودان الشمالى ص١٦٠ ، ١٦١.

(٤٠) انظر الفصل الخامس.

(41) Firth, C. M. ASN. Report 1910 - 11. p. I.

(42) MacMichael. H. A. : AHist. of the Arabs in the Sudan, I. P. 324.

(٤٣) ابن بطوطة: الرحلة جـ١، ص١٥٤.

Murray, G. W.: Sons of Ismail, p. 303.

(٤٤) محمد عوض محمد: السودان الشمالى، ص١٤٣.

(45) MacMichael. H. A.: op. cit. p. 324.

(٤٦) وهم شعبة بن البجه يسكنون صحراء مصر الغربية وتلال البحر الأحمر.

(47) Murray. G. W: Cp. cit. op 30.

(٤٨) البشاريون الذين تقسمهم الحدود الإدارية بين مصر والسودان، فتترك جزءً منهم داخل الحدود المصرية وتترك جزء آخر يسكن إقليما يمتد قرابة ٨٠ ميلا إلى الجنوب (حتى البطانة) أما الأمرار فيحتلون مساحة من الأرض تبلغ ٨٠٠٠ ميل مربع ترتكز من ناحية الشرق على البحر الأحمر ابتداء من خط عرض ٢١ شمالا إلى قرب بور سودان جنوبًا ويسكن بنو عامر المنطقة جنوب خوربركة ويمتدون فى أرض أو ترية.

(٤٩) محمد عوض محمد: المصدر نفسه، ص١٤٤.

(٥٠) من الملاحظ أنه ليس للكواهلة أوطان فى أرض البجه فى الوقت الحاضر إذ زال أثرهم لاندماجهم التام فى قبائل البجه. وأوطانهم اليوم مبعثرة فى جهات متعددة أخصها إقليم النيل الأبيض وأواسط كردفان.

(٥١) محمد عوض محمد: السودان الشمالى، ص١٤٥، ١٤٦، يقول الدكتور عوض: إن انتشار الكواهلة فى جهات كردفان استغرق حوالى ثلاثة قرون من القرن السابع عشر إلى أواخر القرن التاسع عشر. وعلى الرغم أن قسمًا واحدًا من العرب على النيل الأبيض يسمى الكواهلة إلا أن الحسانية والحسنيات ينتسبون إلى الكواهلة كذلك وهم يمتدون من خط عرض ٢١ جنوبًا إلى جبل الأولياء. المصدر نفسه ص١٤٨.

(٥٢) وهذه الأوطان هى: الأولى النيل الأزرق والأبترا، والثانية فى منطقة النيل الأبيض والثالثة فى كردفان قرابة..

(٥٣) ومن الأمثلة التى يرويها مستر ريد عن الحسانية وهم من كواهلة النيل الأبيض «لانأمن الحسانى إن كان غريب بلدان». محمد عوض محمد: المصدر نفسه ص١٥٠، نقلا عن Reid, J. A. : op. cit. p. 149. وما بعدها.

(٥٤) المصدر السابق ١٤٨ ـ ١٥٠.

(٥٥) محمد عوض محمد : المصدر نفسه، ص١٦٤.

(56) MacMichael. H. A.: A Hist. of the Arabs in the Sudan. II. P. 348.

ويقول ما كما يكل فى موضع آخر إن أسلافهم هاجروا إلى مصر قرابة ٩٦٩م ، ثم هاجروا إلى السودان قرابة ١١٧١م.

Ibid.: op. cit. pp. 9 - 10.

(57) I bid.: op. cit. pp. 9 - 10.

(58) MacMichael, H. A. : "Nubian elements in Darfour" SNR. I. No. I. P. 31.

(59) MacMichael. H. A.: A Hist: of the Arads in the Sndan; I. P. 197.

(٦٠) محمد عوض محمد: المصدر نفسه، ص١٦٦.

(61) MacMichael, H. A.: SNR, I. pacl I. 1918 p. 31.

(٦٢) محمد عوض محمد: السودان الشمالى، ص٢١١.

(٦٣) محمد عوض محمد: السودان الشمالى، ص١٦٨.

(64) Chatway, J. D. P.: "Notes on the his. of Fungs", SNR.. XIII. part II., 1939, p. 252.

(65) MacMichael, H. A.:Hist. of the Arabs in the Sudan. I. 237.

(66) Ibid.: op. Cit. I. PP. 237 - 238.

(٦٧) سبق أن أشرنا إلى هجرة جهينة إلى جهات مختلفة من حوض النيل إلى أوطان البجه وبلاد النوبة منذ منصف القرن التاسع الميلادى إلى القرن الخامس عشر. راجع الفصلين الخامس والسادس.

(٦٨) المقريزى: السلوك، جـ١، القسم الثالث، ص٧٠٠.

(69) Morie. L. J.: Histoire de l'Ethiopio, La Nubie, Tome lere, p. 413.

(٧٠) انظر الفصل الرابع.

(71) MacMichael: op. cit. II, p. 28.

(٧٢) الدمشقى: كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص٢٦٨. أما كوسة فموقعها غير معروف تمامًا، ولكن الإدريسى يقول: «إن من بلاد النوبة مدينة كوشة الواغلة (أى الداخلة) وبينها وبين نوابية ٦ أيام. وهى تبعد عن النيل يسيرًا وموضعها فوق خط الاستواء. الإدريسى: المغرب، وأرض السودان ومصر والأندلس، ص١٩.

G.Crawford, O.G.S. : The Fung kingdom, p. 27 note 29.

إن كوسة تقع قرب موضع يعرف بزانكور عند بدء وادى الملك حيث عثر على بقايا فخار ومبانى تشبه ما كان موجودًا فى مملكة علوة المسيحية.

(73) Crawford, O. G. S.: op. cit. pp. 27 - 28.

De Villard: op. cit. p. 220.

(٧٤) زار داود روبينى الرحالة اليهودى اليمنى الأصل، مملكة سنار سنة ١٥٢٢م، ومر بمدينة سوبا سنة ١٥٢٣، فوجد أنها مخربة، وكل ما فيها عدة مساكن مبنية من القش والخشب.

Hillelson, S. :Reubini, SNR., XVI. part I., 1933. p. 60.

(٧٥) ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٤٢٩.

(٧٦) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٨، ص٥ ـ ٦، أورد القلقشندى أسماء ثمان من الأمراء كانت بينهم وبين السلطنة المملوكية مكاتبات وهم: سمرة بن كامل العامرى ـ وعباد بن قاسم ـ وكمال بن سوار ـ وجنيد، شيخ الجوايرة، من الهكاربة بأبواب النوبة ـ وشريف شيخ النمانمة بأبواب النوبة أيضًا ـ وعلى شيخ دغيم، وزامل الثانى، وأبومهنا العمرانى. أما دنقلة فعليها ملك ولهذا أورد مكاتبة صاحبها فى جملة الملوك. انظر ملحق رقم ١٧.

(٧٧) نعوم شقير: تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، جـ٢، ص١٠٣، ١٠٧، أورد المؤلف أسماء عدد من المشيخات والممالك التى دخلت فى حلف مع ملك الفونج، أوائل القرن السادس عشر الميلادى. ومن بينها مشيخة الشنابلة، ومملكة الجموعية، ومملكة الجعليين، ومملكة الميرفاب، ومشيخة المناصير، ومملكة الشايقية... إلخ وهذه كلها خضعت فيما بعد لمشايخ العبد اللاب. هذا فضلا عن الممالك والمشيخات الأخرى التى خضعت لملوك النونج رأسًا. انظر ملحق رقم ١٨.

(٧٨) الشاطر بصيلى عبدالجليل: معالم تاريخ سودان وادى النيل، ص٥١.

(٧٩) ربما أخذت هذه الكلمة عن الأثيوبية ومعناها عظيم.

Budge: The Egyptian Sudan, II. P. 212.

أما المانجل فأصلها غير معروف، وكانت من أرفع الألقاب فيما بعد فى مملكة الفونج، وكذلك لقب أرباب.

(٨٠) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص١٠٠.

(٨١) نعوم شقير: المصدر نفسه، جـ٢، ص٧٢.

(٨٢) انظر الفصل السادس.

(٨٣) يقع جبل مويا على بعد عشرة أميال غرب سنار الحالية. والراجح أن عمارة لم يقم فى جبل مويا، بل إنه كان يقيم لمول Lamul حسبما ذكره روبينى الرحالة اليهودى الذى زار السودان سنة ١٥٢٢. ولمول هى التاكة الحالية Crawford: op. cit. p. 153، و يرى الأستاذ شبيكة أنها تقع فى مكان بين كوكوج والرصيرى. تاريخ ملوك السودان، نشر شبيكة، ص٥.

(٨٤) أحمد كاتب الشونة: تاريخ ملوك السودان، نشر مكى سبيكة، ص١، و يقصد بالعنج هنا السكان السابقين للفونج، أما ملك الغرب فربما يكون ملك علوة المقيم فى كوسة كما ذكر الدمشقى.

(٨٥) يقال: إن أربجى أسسها رجل يدعى حجازى بن معين قرابة سنة ١٤٤٧م.
Jackosn, H. G.: Tooth of Fire, pp. 17 --18.

(٨٦) يرى الأستاذ الشاطر أن تأسيس مملكة الونج لايرجع إلى سنة ١٥٠٥ بل إلى قرابة ١٥٢٣ لعدة أسباب من بينها أن روبينى زار عمارة فى عاصمته لمول ولم تكن سنار قد نشئت بعد، راجع معالم تاريخ سودان وادى النيل، ص٢٣.

(٨٧) أحمد كاتب الشونة. تاريخ ملوك السودان، ص٢.

(88) Arkell, A. J. :"Fung Origins", SNR., XVII, PP. 208 - 243.

Bruce: Travels to discover the Source of The Nile IV. P. 458. نقلا عن

(89) Arkall, A. J.: A Hist. of the sudan. Pp. 206 207.

(90) Chatway, J. O. P.: "Notes on the Hist. of the Fung". SNR, XIII, II, pp.247 - 257.

(91) MacMichael, H. A. : A Hist. of the Arabs in the Sudan, II. BA., pp. 36 - 37.

(٩٢) المسعودى: التنبيه والإشراف، ص ٣٢٩، ٣٣٠، المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩١. انظر الملحق رقم ١٢.

(٩٣) أعلن عمارة هذه النسبة وغيرها فى رسالة بعث بها إلى السلطان سليم سنة ١٥٢٠م لبثنيه عن غزو سنار لأنها أرض إسلام وسكانها عرب، شقير، جـ٢، ص٧٣.

(94) nadler, L. F.: ""Fung Origins" SNR., XIV, part i. 1391. p. 61.

(٩٥) نعوم شقير: المصدر نفسه، جـ٢ ص ٧٣.

(٩٦) ومدينة سنار التى أسسها عمارة خلاف سنار الحالية وهى تبعد عنها بقرابة ثلاثة أميال.

(٩٧) شقير: جـ ٢، ص ١٠٨.

(٩٨) نعوم شقير: المصدر نفسه، جـ ٢، ص ٧٣.

(٩٩) الملك أو المانجل ، هو شيخ إحدى الوحدات القبلية التى تضمها مملكة الفونج وتقام حفلة تنصيب الملك أو المانجل الجديد بأن يجلسه ملك ستار أو شيخ قرى على الككر (الكرسى) ويلبسه طاقية ذات قرنين ويقلده سيفًا. ويلاحظ أن هذه التقاليد قديمة ترجع إلى عهد ملوك مقرة المسيحية. ولا تعرف إذا كان هذا متبعًا

عند ملوك علوة أم لا، راجع الفصل الرابع.

Jackson, H.C.: op.cit. p. 92.

(١٠٠) لا نعرف شيئًا على وجه التحقيق عن السمرقندى الذى ينسب إليه جمع أوراق النسبة أو روايات زعماء القبائل عن نسبتهم وضمنها جميعا فى كتاب بعث به عمارة إلى السلطان سليم. وربما كان السمرقندى أحد فقهاء الذين أتوا من مصر للعيش فى كنف ملوك الفونج والحصول على هباتهم .

MacMichael: op. cit.. ii, p. 7.

(١٠١) محمد ضيف الله: طبقات ود ضيف الله، نشرها إبراهيم صديق، ص ٥، والمقصود بالعدة المدة التى يجب أن تقضيها المرأة بعد طلاقها أو وفاة زوجها ، وبين عقد زواجها من آخر وهى ٤ شهور.

(١٠٢) عبدالمجيد عابدين: دراسات سودانية ، ص ٣.

(١٠٣) عبدالعزيز أمين عبدالمجيد: التربية فى السودان، جـ ١، ص ٥٦.

(104) MacMichael, H.A. : op. cit. II. manusc. B.A.P. 36.

عرفت الدراسات الدينية فى السودان باسم العلوم وأطلق على الفقهاء العلماء أو رجال العلم.

(١٠٥) ذكرهم نعوم شقير،، جـ ٢، ص ٧٦، أولاد ضيف الله، والحقيقة أنهم أولاد غلام الله. انظر عبدالعزيز عبد المجيد: التربية فى السودان، جـ ١، ص ٥٩، حاشية ١.

(١٠٦) ومن أمثلة هذا ما ذكره جاكسون، أن الملك عبد القادر الذى خلف أباه الملك عمارة. قرابة ١٤٣٧ م اضطر إلى قتال السكان الوطنيين فى جبل مويا وجبل سقدى: لأنهم ظلوا يقدمون فى كل عام قربانًا للآلهة كى لا تمنع عنهم المطر:

jackson, H. C: op. cit. p. 21.

(١٠٧) عبدالعزيز عبدالمجيد: التربية فى السودان ، جـ ١، ص٥٦٥.

(١٠٨) توفى شمس الدين اللقانى فى سنة ٩٣٥ هـ. ١٥٣ م.

(١٠٩) محمد ضيف الله: طبقات ود ضيف الله، ص ٥، ص ١٦٣.

(١١٠) وهم أولاد جابر بن عون بن سليم بن رباط بن غلام الله والد السادة الركابية، ولدوا فى ترنج بأرض الشابقية ، ويقول صاحب الطبقات إن أولاد جابر كالطبايع الأربع. أعلمهم إبراهيم وأصلحهم عبدالرحمن وأودعهم إسماعيل وأعبدهم عبدالرحيم. والواضح أن هذه الأسرة احتفظت بمركزها منذ عهد جدها لأكبر غلام الله بن عايد أؤاخر اقرن الرابع عشر الميلادى.

(١١١) طبقات، ص ٦.

(١١٢) عبدالعزيز عبدالمجيد: التربية فى السودان، جـ ١، ص ٦٤.

(١١٣) طبقات، ص ٣١.

إن معظم ما جمعته عن الشيخ المصرى القناوى مأخوذ عن حفيده الشيخ مجذوب مدثر كبير مدرسى معهد أم درمان العلمى وشيخ الطريقة التيجانية فى السودان، والشيخ المصرى من مدينه إدفو بصعيد مصر من قبيلة النابية. لما استقر فى بربر تزوج من قبيلة الميرافاب وتعرف طبقة الفقهاء التى أخذت عنه وعن أولاده وتلاميذه فى

مدينة بربر حتى الآن اسم المصاروة. وللشيخ المصرى مؤلفات عديدة منها شرحه على البسملة فى المنطق وشرح على العقيدة المعروفة بالسنوسية الصغرى وشرح على العشماوية.

(١١٤) اتصل الشيخ المضوى بالمتمة وشندى القديمة وعلم بمسجدها كثيرا من الناس حتى قيل إن عدداً من يحضر عليه بلغ الثلاث مائة. وله مؤلفات منها ،شرحه المطول على القصيدة المعروفة ببدء الآمال فى فن التوحيد وتوجد منه نسخة خطية بمكتبة لمعهد العلمى، وله رسالة على البسملة تكلم فيها عن نواحى كثيرة تقع فى ٢٠ كراسة من القطع المتوسط. انظر الطبقات ، ص ٣٢.

(١١٥) طبقات، ص ١٦٥.

(١١٦) ويعد الشيخ الشكاك صاحب المدرسة الثانية فى بربر بعد مدرسة الشيخ المصرى القناوى. وله مسجد فى حلة السيد غرب بربر. قام الشيخ الشكاك بنشر الفقه الشافعى وأخذ عليه جماعة منهم أولاد الحاج. ومن الشايقية الذين تأثروا بمدرسة ابن قرم المصرى جماعة تدعى الخفاب (لذين يلبسون خنا) وكانوا على صلة تامة بعلماء الأزهر. (عن الشيخ مجذوب مدثر).

(١١٧) محمد ضيف الله: طبقات من ١٦٩.

(١١٨) المصدر السابق ص٣٥، ٤٤، ٤٥.

(١١٩) طبقات ، ص ٥. يقول الشيخ مجذوب مدثر إن الشيخ عبدالله الأغبش قدم من دنقله فى القرن العاشر وأسس مسجده غرب مدينة بربر وعلم القرآن وتخرج عليه عدد يقدر بالمئات .. ومدرسة الغبش كانت مشهورة بعلم القراءات.

(١٢٠) عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية فى السودان، ص ٥٨.

(١٢١) عبدالعزيز عبد المجيد: تربية فى السودان، جـ ١، ص٧٠.

(١٢٢) المباشرة: يقصد به هنا السودانيون الذين رحلوا إلى مصر وأخذوا العلم عن علمائها هناك أو العلماء المصريون الذين قد مدموا السودان حيث نشروا علومهم،. أما الواسطة فتعنى أولئك الذين أخذوا العلم عن السودانيين الذين جاءوا من مصر.

(١٢٣) عبدالمجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية فى السودان، ص ٥٦ ، ٥٧.

(١٢٤) عبدالعزيز عبدالمجيد: التربية فى السودان، جـ ١، ص ٥٢.

(١٢٥) المصدر السابق، جـ ١، ص ١٢٦.

(١٢٦) محمد ضيف الله: طبقات ، ص ١٦٩.

(١٢٧) المصدر السابق نفسه، ٥.

(١٢٨) المصدر السابق: ص ١٦٥.

(١٢٩) هذا هو رأى فضيلة الشيخ محمد المبارك؛ عبدالله شيخ علماء السودان.

(130) Trimingham. i.s. : islam in the sudan. p. 195.

(١٣١) عبد المجيد عابدين: المصدر نفسه ، ص ٦١.

(١٣٢) عبد المجيد عابدين: المصدر نفسه، ص ٦٢.

(١٣٣) المصدر السابق: ص ٦٣.

(١٣٤) تنسب الطريقة الشاذلية إلى أبى الحسن الشاذلى ١١٩٦ - ١٢٥٨م ولد فى شاذلة فى تونس وانتشرت طريقته فى مراكش فى القرن الخامس عشر الميلادى على يد أبى عبدالله محمد بن سليمان الجزولى مؤلف دلائل الخيرات ويقال، إن إحدى بناته تزوجت من الشريف حمد أبى دنانة الذى نزح إلى السودان ومعه ابنة السيد بن الحسن وسكنا البقعة المسماة بالمحبة وحينئذ عرف الناس الطريقة الشاذلية.

(135) Triminghgn : op. cit. pp. 196 ,197.

(١٣٦) محمد ضيف الله: طبقات، ص ٨٤.

(١٣٧) المصدر السابق: ص ١٥٠.

(١٣٨) عبدالعزيز عبدالمجيد: المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

(١٣٩) محمد عوض محمد: السودان الشمالى، سكانه وقبائله، ص ١٧ ، ١٨.

خاتمة

مما سبقت دراسته يمكن القول إن الجزء من وادى النيل المتد من أسوان فى الشمال إلى جنوبى التقاء النيلين الأبيض والأزرق فى الجنوب، عرف كله أو أجزاء منه ـ فى العصور القديمة بأسماء مختلفة. غير أنه ظل يُعرف فى العصور الوسطى باسم النوبة. وهو اسم سبق العرب فى الإشارة إليه المؤلفون اليونانيون والرومان وغيرهم منذ القرن الثالث قبل الميلاد. ولعل كلمة نوب (ذهب) كانت من بين الأسماء التى أطلقت على هذه الأقاليم منذ أقدم العصور التاريخية المصرية.

ويبدو من وصف الكتاب القدماء ومؤلفى العصور الوسطى كذلك لهذه المنطقة، أنه لم يطرأ تغيير ظاهر على بيئتها الطبيعية، ما خلا ما تناولته يد الإنسان بالتعديل أحيانا وبالتهذيب أحيانا أخرى.

أما النوبيون فهم شعب قديم فى أوطانه، وهم حاميو الأصل مثل قدماء المصريين فى عصر الأسرات الأول وما قبلها. ثم أخذت بلاد النوبة منذ عهد الأسرة الثالثة المصرية، وعلى مدى العصور، تستقبل، جماعات حامية من الشرق والغرب وجماعات مصرية من الشمال، كما أنها أخذت تستقبل من الجنوب جماعات نيلية (زنجية). وظهرت آثار هذا الخليط بوضوح فى مخلفات المجموعة الثقافية (X) ببلاد النوبة، وهى ثقافات الجماعات النوبية التى استقبلت الدعوة

المسيحية فى القرن السادس الميلادى. أما عن حضارة أصحاب هذه المجموعة الثقافية فتدل آثارها على أنهم قوم مارسوا الزراعة بوصفها حرفة أساسية تساندها حرفة الرعى، ولوحظ اختفاء الطابع المصرى فى بناء المقابر وطرق الدفن، وكثرة وجود الضحايا البشرية والحيوانية. وهى تمثل خليطًا من حضارات بيزنطية ومروية لم تخل من الآثار البدائية. ثم إن اللغة النوبية ذات أصل حامى ثم دخلتها بعض المؤثرات الزنجية. وأن وجود بعض الشبه بين اللغة النوبية على النيل وبعض لغات جبال النوبا بكردفان وغيرها، لا يعنى أن سكانهما يرجعون إلى أصل واحد بل يرجع - فى الغالب - إلى هجرة نوبية من النيل إلى بعض جهات كردفان، حيث تركت بعض آثارها اللغوية. وربما كان للاتصال التجارى بين النوبيين وغيرهم من سكان الجبال أثر فى نشر اللغة النوبية بينهم.

خضعت بلاد النوبة لنفوذ دولة كوش وعاصمتها نباتا التى ظلت تمثل مركزًا لنوع من الحضارة المصرية حتى فقدت أهميتها منذ منتصف القرن السادس قبل الميلاد فورثتها مروى من سنة ٣٠٠ق. م. إلى سنة ٣٥٠م. ويلاحظ أنه فى هذا الدور، أخذت الثقافة المصرية تتضاءل شيئًا فشيئًا حتى غدت مزيجًا من ثقافات مصرية ويونانية ورومانية فضلا عن ثقافات حبشية سئية. ويظهر أن ملوك مروى لم يستطيعوا بسط نفوذهم بصفة دائمة على جميع الأقاليم التى خضعت لهم من قبل بل إن بعض جهاتها استقل تحت حكم أمرائها الوطنيين ولا سيما المنطقة الممتدة من جنوبى أسوان حتى المحرقة، وهى المنطقة التى عرفت باسم دوديكاشينوس. ومع هذا لم يجنح البطالمة إلى التوسع جنوبًا، فنشأت بين الدولتين علاقات طيبة كان من نتيجتها أن أعلن حكام هذه المنطقة الانضمام إلى مصر.

وإذا خلف الرومان البطالمة فى حكم مصر سنة ٣٢ ق. م.، ادعوا حقوقًا فى تلك المنطقة، باعتبارهم ورثة البطالمة، وقد تغلبوا على محاولات الكوشيين لاستردادها مدة من الزمن. ويظهر أن الرومان كانوا يهدفون إلى توسيع العلاقات التجارية بين مصر وجهات حوض النيل الأوسط، فأقاموا بمنطقة دوديكاشينوس حاميات عسكرية، وقاموا بسلسلة من مشاريع التعمير فيها، وحاولوا كذلك إقامة

علاقات صداقة بينهم وبين القبائل التى تعيش فى الجنوب والغرب (فى كردفان ودارفور) ولتحقيق أغراضهم التجارية. وهذا هو سر تمسكهم بمنطقة دوديكاشينوس. غير أن هذه السياسة لم يقدر لها النجاح بسبب إغارات البليميين الذين استقرت بعض شعبهم فى جهات النوبة السفلى جنوبى المحرقة منذ عهد البطالمة. ويظهر أن الحركات البليمية ضد الرومان اصطبغت بصبغة قومية بدليل اشتراكهم فى بعض الحركات القومية المصرية ضد الرومان سنة ٢٥٠م. واتسعت دائرة هذه الحركات البليمية فشملت جهات طيبة وأسوان، ومع أن الرومان استطاعوا التغلب على هذه الحركات المعادية لهم سنة ٢٨٠م، إلا أنه بدا لهم صعوبة الاحتفاظ بمنطقة دوديكاشينوس لاستمرار إغارات البليميين من ناحية وفقرها من ناحية أخرى. واتجهت سياسة الإمبراطور دقلديانوس إلى التخلى عنها، على أن يقيم النباطيون محل الرومان فى المنطقة التى انسحبوا منها، ليقوموا بدور جزء ممسوح في الأصل بين البليميين فى الجنوب وبين الرومان فى الشمال. ولا يعنى من منطقة دوديكاشينوس أنهم تخلوا عن مشروعاتهم بل حاولوا البحث عن حليف قوي والاعتماد عليه فى الشرق (الهند والصين وشرق إفريقيا) وفتح طريق التجارة إلى قلب إفريقيا. فاتجه الرومان إلى دولة أكسوم، لتوثيق علاقاتهم بها واستغلالها فى قمع حركات البليميين والنوبا كذلك. وبدت بوادر هذه السياسة منذ سنة ٢٨٥م على عهد الإمبراطور أورليان. واستمر اتصال التجار الرومان بدولة أكسوم، حتى إذا كان عهد الامبراطور قسطنطين الأكبر (٢١٣ ـ ٣٢٧م) تم عقد معاهدة تجارية بين الرومان وملك أكسوم على يد التاجر الصورى فرومنتيوس، ثم اعتنق عيزانا ملك أكسوم المسيحية سنة ٢٤٠م، على يد فرومنتيوس الذى عمده البطريق أثناسيوس أسقفاً لأكسوم. غير أن الغرض التجارى لمهمة فرومنتيوس، يبدو واضحًا، حين قام الملك عيزانا بحملته المشهورة على مملكة مروى قرابة منتصف القرن الرابع الميلادى، لتأديب النوبا والبجا (البليميين) الذين يغيرون على جيرانهم. وليس من المستبعد أن يكون هذا تم بإيعاز من فرومنتيوس، لفتح الطريق للتجارة من جديد.

غير أن هذه السياسة لم تضع حدًا لحركات البليميين المعادية لهم، بل على العكس من هذا فقد زادت حدتها. ذلك أن البليميين الوثنيين بدءوا يحسون

بالخطر المسيحى المزدوج عن طريق أكسوم بعد اعتناق الملك عيزانا المسيحية، وعن طريق مرسوم تاوداسيوس (٣٨٥م)، الذى قضى بإبطال جميع مظاهر الوثنية فى الإمبراطورية الرومانية، ليبدأ البليميون سلسلة إغاراتهم على الأطراف الرومانية، وأغاروا على إقليم طيبة والواحة النباطيين مع البليميين فى الاعتداء على سنة ٤٤٥م - وقد كانوا من قبل حماة هذه المنطقة - على أن هذين الشعبين أجمعا رأيهما على الوقوف فى وجه المسيحية فى أول الأمر. وإذا كان الرومان استطاعوا أن يرغموا النباطيين والبليميين على الخلود إلى السكينة مدة مائة عام بعد هزيمتهم على يد القائد الرومانى مكسيمينوس ثم فلورس فى منتصف القرن الخامس الميلادى، إلا أن السماح لهاتين القبيلتين بالحج إلى فيلة، وحمل تمثال معبودتهم إيزيس إلى أوطانهم يحمل على الظن أن الرومان لم يرغبوا حتى هذا الحين (منتصف القرن الخامس الميلادى) فى فرض المسيحية بالقوة على هؤلاء القوم. وكيفما كان الأمر فإن البليميين والنباطين حافظوا من جانبهم على تنفيذ معاهدة الصلح التى عقدوها مع مكسيمينوس وفلورس، وظلوا على ولائهم لمعهوداتهم بريابوس ومندوليس وبخاصة إيزيس التى كانوا يحجون إلى معبدها فى فيلة كل عام. ولعل ضخامة هذه المواكب وتجمعها كل عام فى قلب أسقفية فيلة وأسوان - حيث توجد الكنائس والأديار المسيحية - أثار القلاقل من جديد مع قرب انتهاء أجل الهدنة، لاسيما وأن النزاع بدأ يدب بين البليميين والنباطيين.

ورأى جستنيان ضرورة القضاء على العبادات الوثنية فى فيلة، على أن يسبق هذه الحركة طرد البليميين من منطقة دوديكاشينوس، لتحكمهم فى المسالك المؤدية إلى فيلة. وانبرى لهذه المهمة سلكو ملك النباطيين الذى - فيما يبدو - كان على علاقة بالبيزنطيين بفضل ثيودور أسقف فيلة وأسوان، وشن سلكو على البليميين حربًا شعواء سنة ٥٢٥م. تمكن بعدها من طردهم إلى الصحراء الشرقية. ولا يبعد أن يكون تم له هذا بمساعدة البيزنطيين. وبهذا تم ميلاد مملكة نوباتيا التى أضحت فرس عاصمتها.

ثم كانت الخطوة الطبيعية وهى إغلاق معبد فيلة الوثنى، وقد قام القائد البيزنطى نارسس بهذه المهمة تنفيذاً لأمر الإمبراطور جستنيان قرابة سنة

٥٤٣ق. م. وتم تحويل هذا المعبد إلى كنيسة، وبهذا أضحى الطريق ممهدًا لدخول المسيحية بلاد النوبة بصفة رسمية فى منتصف القرن السادس الميلادى.

وعلى الرغم من أنه لم يرد نص صريح عن نشاط تبشيرى رسمى ببلاد النوبة قبل القرن السادس الميلادى، إلا أن معظم الروايات التاريخية ترجح دخولها عن طريق مصر، أما الطريقة التى دخلت بها المسيحية بلاد النوبة قبل القرن السادس الميلادى، ومعرفة دعاتها الأول، فإن شيئًا من هذا لم يعرف على وجه التأكيد، مع العلم بأن بطريق الكنيسة المصرية يحمل لقب بطريق الإسكندرية والحبشة والنوبة وبنتابوليس (الخمس المدن الغربية) منذ عهد المسيحية الأول (القرنين الأول والثانى). هذا والمعروف أن المسيحية حين دخلت مصر فى القرن الأول الميلادى، اجتذبت إلى صفوفها عددًا من المصريين وغيرهم من سكان البلاد. غير أن الاضطهادات التى حلت بهم وبخاصة منذ منتصف القرن الثالث الميلادى أدت إلى هجرة كثير من المسيحيين المصريين إلى منطقة طيبة والصحراء الغربية وجهات النوبة السفلى والوسطى. وغدا كل من إقليم طيبة والواحة الخارجة مركزًا مهمًا لنشر الدعوة المسيحية فى بلاد النوبة منذ منتصف القرن الرابع الميلادى. ولم يكد يرفع الاضطهاد عن المسيحيين المصريين على عهد قسطنطين الأكبر لاعترافه بالمسيحية ديانة رسمية حتى واجهوا اضطهادًا جديدًا بسبب ما نشب بين المسيحيين أنفسهم من خلاف حول طبيعة المسيح. فازدادت هجرة المسيحيين المصريين إلى جهات طيبة وأسوان، حيث أنشئت الأديار والكنائس. وتطلب الأمر إنشاء أسقفية فى فيلة فى منتصف القرن الرابع الميلادى. ويبدو أثر هذه المراكز المسيحية الجديدة التى نشأت بالقرب من أوطان النوبيين فى نشر المسيحية بينهم، فيما تذكره بعض القصص عن جهود الرهبان فى التبشير للمسيحية فى بلاد النوبة، ومحاولة أولئك الرهبان كسب ود الجماعات الوثنية من النوبيين والبليميين، كما فعل الأنبا شنودة كبير رهبان دير أخميم فى منتصف القرن الخامس الميلادى. هذا فضلا عن الدور الذى قام به ثيودور أسقف فيلة فى التمهيد لدخول النوبيين جميعاً فى الدين المسيحى فى القرن السادس الميلادى. ثم إن البيزنطيين، لجئوا إلى إغراء البليميين إلى المسيحية بأن قطعوا بعضهم إقطاعًا فى منطقة طيبة ليتسنى لهم السيطرة على أوطانهم والاتصال بدولة

أكسوم المسيحية لتنفيذ مشاريعهم التجارية فى البحر الأحمر والمحيط الهندى والقضاء على نفوذ الحميريين التجارى.

ثم بدأت المرحلة الحاسمة لإدخال النوبيين جميعاً فى المسيحية فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى، حيث أخذت صورة النزاع المذهبى بين الكنيستين المصرية والبيزنطية والسباق بينهما لكسب الأنصار تنعكس على النوبة كذلك. فقامت بعثة الكنيسة المصرية برئاسة يوليان، وقدر لها الوصول إلى مملكة نوباتيا قبل البعثة الإمبراطورية بفضل نفوذ الإمبراطورة ثيودورا. وموضع الأهمية هنا أن الملك النوبى وأمراءه وأفراد أسرته، قبلوا التعميد على مذهب الكنيسة المصرية والذى مهد له من قبل على يد المهاجرين المصريين وثيودور أسقف فيلة علي حين أن بعثة الإمبراطور جستنيان قد لحقها الفشل فى نوباتيا. وأتم القس لونجينوس ما بدأه سلفه يوليان فى نوباتيا سنة ٥٦٩م. وعلى الرغم من الدسائس التى حاكها له الملكانيون فقد لبى دعوة ملك علوة لزيارة مملكته وتعميده ورجال دولته سنة ٥٨٨م. وبهذا تم تنصير مملكتين من ممالك وادى النيل الأوسط على مذهب الكنيسة المصرية. أما المملكة الثالثة ـ مقرة ـ فلم يشر إليها يوحنا الأفسسى ـ وهو المؤرخ المعاصر لهذه الحوادث جميعاً. غير أن صمت يوحنا الأفسسى ـ المونوفيزى المذهب ـ يوحى بنجاح البعثة الملكانية فى تحويل ملك مقرة إلى المسيحية على المذهب الملكانى، ونجد لذلك تأييداً فيما ذكره يوحنا البكارى الملكانى المذهب. إذ يشير إلى اعتناق أهل مقرة والجرمنتيين (القرعان) للديانة المسيحية سنة ٥٦٩م.

أما المذهب الذى ساد أخيراً ممالك النوبة المسيحية الثلاث فهو مذهب الكنيسة المصرية، بسبب خلو الكرسى البطريركى للكنيسة الملكانية بالإسكندرية ما يقرب من قرن، ومنع إرسال أساقفة ملكانيين إلى مقرة أو غيرها.

ويمكن رسم صورة تقريبية لمدى تأثر النوبيين بالمسيحية من الطريقة التى تلقوا بها تعاليم هذا الدين الجديد، ونوع هذه التعاليم. ذلك أن يوليان ولونجينوس بدءا بتعميد الملوك والأمراء ثم بعض أفراد الشعب. ومن غير المعقول

أن يتم تعميد جميع النوبيين فى المدة القصيرة التى قضاها كل منهما فى بلاد النوبة. والواضح أن النوبيين اعتنقوا المسيحية بأمر ملوكهم. ولابد أن عملية التبشير أخذت أبسط أنواع صورها لتلائم ظروف البيئة البدائية وثقافة السكان. ولابد أن تكون التعاليم التى تلقوها خرجت أحيانا عن أصولها للحصول على كسب سريع. ولكن على الرغم من بقاء بعض النوبيين على وثنيتهم فى الوقت الذى كان يقوم فيه يوليان ولونجينوس بعملهما فى بلاد النوبة فإن للأقباط ـ الذين هاجروا من مصر على إثر الغزو الفارسى لها سنة ٦١٩م، واضطهاد الملكانيين لهم بعد استرداد البيزنطيين مصر ـ فضلاً كبيرًا فى نشر الديانة المسيحية بينهم.

أما عن تنصير البليميين (البجا) فالمعروف أنهم ظلوا على وثنيتهم باستثناء جماعات قليلة منهم اعتنقت المسيحية. ولايبعد أن يكون لونجينوس عمد بعض زعمائهم أثناء مروره بأوطانهم فى طريق سفره إلى علوة سنة ٥٨٨م، ثم أخذت المسيحية تتسرب إلى ديارهم رويداً رويداً بعد الفتح العربى لمصر.

* * *

أما عن اضمحلال ممالك النوبة المسيحية فيرجع إلى عوامل داخلية وأخرى خارجية. أما العوامل الداخلية فإنها ذات علاقة بالمستوى الحضارى الذى وصل إليه النوبيون بعد أن استقبلوا الدعوة المسيحية والنظم التى أقاموا عليها مجتمعهم المسيحى، وظروف البيئة الطبيعية التى عاشوا فيها. والمعروف أن النوبيين حين استقبلوا الدعوة المسيحية كانوا ذوى حضارة معينة كشفت عنها الأبحاث الأثرية فى بعض جهات النوبة السفلى وهى التى عرفت باسم ثقافة المجموعة (X) وهى مجموعة ثقافات أجنبية مختلطة بآثار بدائية. والواضح أن عوامل الاضمحلال من الداخل قديمة، وقد لازمت هذه الممالك منذ مولدها فى القرن السادس الميلادى أو قبله بقليل. ولا يرجع بقاء هذه الممالك المسيحية ـ ما يقرب من ألف عام ـ إلى قوتها أو إلى ما اجتمع لديها من عناصر حضارية عريقة.

بل يرجع – فى الغالب – إلى أن الحكومات التى تعاقبت على حكم مصر منذ الفتح العربى لها، لم تكن لها سياسة مرسومة لإخضاع هذه الممالك بالقوة وصهرها فى الإطار العربى الإسلامى العام، إنما تركت لعوامل التسرب البشرى والحضارى التدريجى حتى اكتملت عناصر قوتها فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فكانت نهاية هذه الممالك. وأول ما نلاحظه أن هذه الممالك المسيحية لم تستطع أن تؤلف من بينها وحدة سياسية واحدة، بل ظلت منفصلة عن بعضها. وعلى الرغم من اتحاد المملكتين الشماليتين نوباديا ومقرة لمواجهة خطر الغزو الإسلامى من الشمال، فإن انفصال المملكة الجنوبية (علوة) عن جارتها فى الشمال (مقرة) كان سبباً فى إثارة النزاع بينهما مما أدى إلى اضمحلالهما.

وثمة ملاحظة أخرى هى التخبط فى اختيار اللقب الفعلى للملك وموظفيه كذلك. ومرجع هذا – فى الغالب – إلى أن هذه الألقاب أخذت أصلا عن النظم البيزنطية وطبقت على الوظائف التى خلفها العهد المروى وما دخل عليها من تقاليد بدائية، مما أدى إلى تعقيدها وعدم فهمها فى أذهان الناس، ثم أن ملوك النوبة (مقرة وعلوة) تمتعوا بنفوذ مطلق على رعاياهم. فالملوك يملكون الأرض ومن عليها، ورعاياهم عبيد لهم.

وجرى العرف فى وراثة العرش النوبى على نظام الأمومة. وسواء تمسك به النوبيون أو خالفوا بعض قواعده فالمعروف أن هذا النظام لم يؤد إلى استقرار علاقة المتملكين وأولياء عهودهم.

وعرف حكام الأقاليم باسم الملوك. ومارسوا سلطات إدارية ودينية. فجميعهم كهنة.

أما المجتمع النوبى فيشكل نوعاً من الإقطاع غريبًا فى تركيبه. فالطبقة الحاكمة الشاملة للأسرة المالكة وفروعها وحكام الأقاليم كذلك يمثلون طبقة السادة أصحاب الأرض، أما الشعب فهم عبيد الملك، يباعون ويشترون ويهدى بهم، ويقومون مقام العملة.

واتجهت بلاد النوبة (مقرة وعلوة) فى زعامتها الروحية إلى الكنيسة المصرية. ونشأت بينهما علاقات طيبة مصدرها حاجة الكنيسة النوبية إلى أساقفة، فضلا عما اجتمع لملوك النوبة من سلطة سياسية ودينية معاً. وهذه السلطة الدينية جعلت من ملوك النوبة ممثلين للكنيسة النوبية كذلك. وتبعاً لهذه الصفة الدينية لملوك النوبة فقد نشأت بينهم وبين بطارقة الكنيسة المصرية علاقات ودية، اختلفت طبيعتها من حين إلى آخر تبعاً لما تقتضيه مصالح الطرفين. غير أن موضع الأهمية هنا هو مدى تأثير الكنيسة النوبية فى حياة الناس.

الواقع أن المجتمع النوبى ظل يعيش فى مثل ما عاش قبل دخول المسيحية، ولم تختلط العقيدة الجديدة بقلوب الناس. واحتفظ النوبيون بكثير من عاداتهم القديمة. ولم تنجب الكنيسة النوبية علماء ذوى مثل مستمدة من تجارب القديسين ـ كما فعلت الكنيسة المصرية مثلا ـ فظلت تعتمد فى الحصول على الأساقفة على ما يرد إليها من الكنيسة المصرية الأمر الذى جعل الكنيسة النوبية تخضع لتطور الظروف السياسية فى مصر.

والغريب أن مقرة لم يكن تسودها لغة واحدة. فالطقوس الدينية كانت تؤدى باللغة اليونانية حتى القرن الثامن الميلادى إلى أن ترجمت إلى اللغة النوبية. ولم تصبح النوبية لغة مدونة إلا منذ أواخر القرن العاشر الميلادى، على حين أن القبريات النوبية ظلت تكتب باللغتين اليونانية والقبطية دون سواهما وهما كذلك لم تسلما من أخطاء لغوية إملائية. وتختلف لغة أهل علوة فى طبيعتها ونوع كتابتها عن اللغة النوبية فى مقرة.

وثمة ظاهرة مهمة ذات أثر بعيد فى تاريخ بلاد النوبة، هى فقر البيئة فمواضع الخصب تنحصر فى شريط ضيق يحاذى النيل يختلف ضيقاً واتساعًا من مكان إلى آخر. وعلى الرغم من اتساع الرقعة الزراعية فى مملكة علوة عنها فى مملكة مقرة، إلا أن أهل علوة كانوا دون أهل مقرة فى المستوى الحضارى، فلم يستغلوا خصوبة أرضهم استغلالا اقتصاديا، بل اعتمدوا على السحر.

وأهم ما يلاحظ على التجارة فى بلاد النوبة أن العملة مثلا لم تكن معروفة إلا فى منطقة مريس. أما إلى الجنوب منها فكان التبادل يتم بطريق المقايضة بالرقيق والمواشى وغيرها.

وتأثرت حضارة النوبيين بفقر البيئة وقلة الموارد الطبيعية. فالكنائس النوبية من النوع المعروف باسم باسيلكا. ومعظمها من الطوب واللبن والطين. ويغلب على النقوش والزخرفة البساطة وعدم النضج. وحتى بقايا المساكن التى أمكن العثور على قليل منها مبنية من اللبن وهى ذات طراز بسيط ساذج.

* * *

ويمكن تفسير أثر العوامل الخارجية فى اضمحلال ممالك النوبة المسيحية من تأثر النوبيين بالثقافة العربية الجديدة عليهم، إذ طبعتهم بطابع مختلف عن الطابع القديم الذى اتصفوا به فى العهد المسيحى. وإذا كان وادى النيل قد استقبل بعض الجماعات العربية من جزيرة العرب قبل الإسلام عبر باب المندب أو البحر الأحمر، أو عن طريق برزخ السويس، سواء لغرض التجارة أو الهجرة أو الغزو فإن أثر هذه الجماعات العربية فيمن اختلطت بهم من سكان وادى النيل كان ضئيلا بالقياس إلى أثر الهجرات العربية الكبرى التى شقت طريقها إلى وداى النيل من الشمال (مصر) عقب ظهور الإسلام. وتعد حملة عمرو بن العاص على مصر سنة ٦٣٩م إحدى طلائع هذه الهجرات الكبرى. وعلى الرغم من أن المسلمين فى محاولتهم الثانية غزو النوبة سنة ٦٥٢م ـ بقيادة عبد الله بن سعد ابن أبى السرح ـ دخلوا دنقلة العاصمة واستولوا عليها، إلا أنهم لم يحتلوها بقواتهم كما فعلوا فى مصر وغيرها من البلاد التى فتحوها، ولم يطبقوا عليها القواعد الخاصة بمعاملة أهل البلاد التى تفتح عنوة، بل اكتفوا بالبقط الذى ضمن للمسلمين حرية التجارة والعبادة فى بلاد النوبة ونشر الدعوة الإسلامية التى لا تفرض بحد السيف بل بالحجة والبرهان على يد التجار المسلمين. ويدل تمسك المسلمين فيما بعد بالبقط وشروطه على ادعاء نوع من السيادة فى بلاد النوبة لاسيما وأن المسلمين لم يلتزموا بدفع شىء رسمياً للنوبيين. ولايعنى حرص النوبيين على الاستمرار فى دفع التزاماتهم إلى الدولة الإسلامية وقبض ما يقابلها من جهاز على رضا النوبيين بالبقط وشروطه، بل يدل على عجزهم عن ممارسة سياسة خارجية قوية. وإذا كان النوبيون حاولوا أحياناً الامتناع عن دفع البقط والإغارة على أطراف مصر للتخلص من هذه التبعية المضطربة لضيقهم

ذرعًا بالبقط وصعوبة الحصول على العدد المطلوب من الرقيق، إلا أنهم لم يحاولوا هذه المحاولات إلا فى حالات نادرة كانوا يستشعرون خلالها ضعف السلطة المركزية فى مصر وتعرض البلاد للقلاقل الداخلية. ومع هذا فإن ولاة مصر كانوا يقابلون المحاولات النوبية بردهم وغزو بلادهم وإرغامهم على الوفاء بالتزاماتهم.

وثمة ملاحظة توجب الالتفات هنا هى أنه على الرغم مما نص عليه عهد عبد الله بن سعد للنوبة من عدم السماح للعرب بالدخول إلى بلاد النوبة إلا للتجارة، فإن الجماعات العربية المختلفة التى ازدحم بها إقليم أسوان - بعد الفتح العربى لمصر - لم تتقيد بهذا الشرط، بل أخذت فى التسرب التدريجى إلى بلاد النوبة السفلى (مريس) حيث اشتروا فيها أملاكًا استغلوها لصالحهم وتوارثوها جيلا بعد جيل. وتأثر النوبيون من أهل مريس بهذه الجماعات الإسلامية المستقرة وأخذوا عنهم بعض أفكارهم ونظمهم الاجتماعية، فلم يعترفوا لملكهم بالرق وصاروا أحراراً غير عبيد واعتنق كثير منهم الإسلام. ولم يعد لملوك النوبة فى هذه المنطقة سوى نفوذ اسمى.

وللصحراء الشرقية - حيث تعيش قبائل البجة - دور خطير فى تاريخ بلاد النوبة. إذ المعروف أن تنقل الجماعات المختلفة بين أوطان البجه وبلاد النوبة كان أمراً مألوفا فى العصور الوسطى. ومع أن ولاة المسلمين فى مصر لم يهتموا بادئ الأمر بأمر البجه، إلا أن اعتداءات البجه على صعيد مصر منذ منتصف القرن الثامن الميلادى، أدى إلى تجريد الحملات العسكرية عليهم لتأديبهم. وموضع الأهمية هنا أن هذه الحملات لم تؤد فقط إلى حفظ مصالح المسلمين الذين سبق أن استقروا فى أرض البجه للتجارة، وحفظ المساجد القائمة فعلا، ووضع بلادهم ضمن مناطق النفوذ الإسلامى وفرض الخراج والزكاة، بل أدت كذلك إلى استقرار كثير ممن اشتركوا فى هذه الحملات للعمل فى المعادن التى بهرتهم. وأدت كذلك إلى هجرة قبائل عربية مختلفة إلى أرض المعادن بعد أن وصلتهم أنباؤهما وبخاصة بعد أن فقد العرب نفوذهم القديم بقطع العطاء عنهم وضغط الأتراك عليهم فى مصر. ومن ثم فإن حملة العمرى سنة ٨٦٨م لم تكن فى الواقع حملة

يقصد بها تأديب النوبيين أو البجة، بل الكشف عن مواطن جديدة للتبر والبحث عن مهاجر تتسع للقبائل العربية التى اشتركت فيها مثل ربيعة وجهينة وغيرها فى أوطان البجة وبلاد النوبة كذلك. واختلط العرب بالبجة والنوبيين وتزاوجوا من بناتهم. ولاشك أن اختلاط هذه الجماعات العربية المهاجرة بالعناصر النوبية (فى مريس) والبجاوية أدى إلى تأثرهم بالدماء العربية التى كانت تتجدد باستمرار مع توالى وصول عناصر عربية جديدة إلى هذه الأوطان بسبب اضطراب بعض أجزاء العالم الإسلامى وقيام الفتن والثورات وأدى كذلك إلى نشر الثقافة الإسلامية بينهم.

ويدل تأسيس أول إمارة عربية إسلامية ـ قرابة أواخر القرن التاسع الميلادى بزعامة ربيعة، فى أرض العلاقى وإقليم أسوان على مدى ما صار للعرب من قوة فى هذه المناطق حتى اعترفت بها الدولة الفاطمية، فاستحق زعيمها أبو المكارم هبة الله لقب كنز الدولة، ثم حسب الأيوبيون لأمراء بنى كنز كل حساب وخشوا خطرهم وأدت هزيمة بنى كنز على يد العادل أخى صلاح الدين سنة ١١٧٤م إلى رحيلهم عن أسوان التى لم تعد مركز إمارتهم، واستقروا فى جهات مريس؛ حيث اندمجوا اندماجًا تامًا فى سكانها وخضع لهم النوبيون من أهل مريس الذين زال عنهم السلطان الفعلى لملك مقرة لاسيما بعد أن تحول معظمهم إلى الإسلام.

ويفسر وجود النوبيين بأعداد ضخمة فى مصر للخدمة فى جيشها منذ عهد ابن طولون ـ على الأقل ـ ظاهرة مهمة كانت ذات أثر فى اضمحلال ممالك النوبة المسيحية. فخروج هذه العناصر النوبية المسيحية النازحة بطريق الشراع وغيره استنزاف لقوي هذه الممالك المسيحية علي حين لفظت مصر بعض عناصر الشعب بها ـ في نظر ولاتها الأتراك ـ وهم جميعاً من العرب المسلمين الذين انسابوا إلي النوبة فأثروا تأثيراً بشرياً وثقافياً فيما تبقي لدي النوبة من عناصر نوبية مستقرة ثم أن هذه العناصر النوبية المسيحية إلى مصر لابد تحولت إلى الإسلام وأصبحت عنصرًا بارزًا فيها واتسعت أحوالها وشارك أولئك النوبيون فى حوادث الدول الإسلامية التى تعاقبت على حكم مصر.

* * *

وفى العهد المملوكى تبدأ مرحلة حاسمة فى تاريخ النوبة الشمالية «مقرة» وتبدأ هذه المرحلة بإغارة ملك النوبة داود على ثغر عيذاب وأسوان سنة ١٢٧٢. وسواء كانت هذه الإغارة بسبب ازدياد النفوذ المملوكى على ساحل البحر الأحمر، والضغط على ممالك النوبة المسيحية أو بسبب علاقته بالصليبيين؛ أو بما نال الأقباط فى مصر من اضطهاد على يد السلطان بيبرس، فإن السلطان بيبرس أرسل حملة مملوكية سنة ١٢٧٣م إلى بلاد النوبة لتأديب داود.

وإذا كانت هذه الحملة لم تظفر بداود، فإن النزاع الذى نشب فى داخل البيت الملكى النوبى بسبب وراثة العرش والتجاء شكندة إلى السلطان، شجعه على إرسال حملة مملوكية ثانية لغزو النوبة سنة ١٢٧٦م. وموضع الأهمية فى هذه الحملة أنها جعلت بلاد النوبة الشمالية (مقرة) جزء من الدولة المملوكية، وطبقت عليها لأول مرة القواعد الخاصة بمعاملة أهل البلاد التى تفتح عنوة، وأصبح بيد السلطان المملوكى حق تعيين وعزل من يشاء من ملوك النوبة. وتمسكت السلطنة المملوكية بهذا الحق، إذ تدل الحملات التى جردها السلطان قلاوون مرة بعد أخرى على الرغبة فى تأكيد هذا الحق على الرغم من مراوغة ملك النوبة سمامون ومحاولته التخلص من التبعية للسلطنة المملوكية.

ومن أهم آثار هذه الحملات القلاوونية على بلاد النوبة أنها أقنعت ملوك علوة بقوة السلطنة المملوكية، فتقربوا إليها بالهدايا وحكموا السلطان المملوكى فيما نشب بينهم وبين ملوك مقرة من نزاع.

وثمة ظاهرة أخرى، هى كثرة الرقيق والأسرى النوبيين الذين أرسلوا إلى القاهرة، وكثرة عدد اللاجئين من بيوت الإمارة النوبية ومدعى العرش النوبى إلى مصر.

وثمة ظاهرة أخرى هى اشتراك عربان الوجه البحرى والقبلى فى هذه الحملات المملوكية كلها، واستقرار كثير منهم فى بلاد النوبة، وعدم العودة إلى مصر بصحبة الجيوش المملوكية.

وإذا كانت مشاغل السلطان قلاوون فى بلاد الشام جعلته يقبل الوضع الذى خلقه ملك النوبة سمامون بعد استعطافه السلطان واسترضائه، فإن ابنه السلطان خليل لم يسمح باستمرار هذا الوضع وقبول مراوغة سمامون، بل أرسل حملة لتوطيد السيادة المملوكية فى بلاد النوبة وتعيين أحد الأمراء اللاجئين إلى مصر ويدعى يُدمة ـ نائبًا للسلطان فى حكم البلاد.

ولاشك فى أن اختلاف الطامعين من أفراد الأسرة المالكة النوبية كان ضمينا ببقاء هذه السيادة على بلاد النوبة حتى فى السنوات الأولى من عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذى كان لايزال طفلا. وإذ حاول أحد ملوك النوبة ويدعى كرنبس الخروج على السلطان فإن حركته وافقت بلوغ الناصر سنًا مؤهلا للحكم فرأى تعيين أحد الأمراء النوبيين ـ الذين تربوا فى البلاط السلطانى ـ ويدعى عبد الله برشمبو النوبى الذى اعتنق الإسلام ملكًا على بلاد النوبة ونائبًا عنه فى حكمها. والواقع أن سياسة تعيين ملك مسلم حكم بلاد النوبة، نقطة تحول خطيرة فى تاريخ هذه البلاد. إذ أدى ذلك إلى ظهور بنى كنز على مسرح الحوادث فى بلاد النوبة بعد أن أصهروا إلى البيت المالك النوبى وتزوجوا بينات ملوكها. فادعى أميرهم كنز الدولة بحقه فى الملك. فهو فضلا عن أنه أمير مسلم فإن الملك ينتقل إليه بعد خاله الملك كرنبس حسبما يقضى به نظام الوراثة عند النوبيين.

ويدل تحدى كنز الدولة للسلطنة المملوكية والتخلص من عبد الله برشمبو، على ما صار لبنى كنز من قوة لا يسندها حقهم الطبيعى فى حكم بلاد النوبة فقط، بل تسندهم قوة العرب المتوطنين، ولم تنجح الحملات الناصرية فى القضاء على نفوذ بنى كنز. والواضح أن دور العرب المستقرين فى بلاد النوبة لم يقتصر على إسقاط البيت المالك النوبى سنة ١٣٢٣م فحسب، بل نشر الثقافة الإسلامية بين النوبيين الذين انقطعت عنهم الجزية بإسلامهم لاسيما بعد قطع صلتهم بكنيسة الإسكندرية من ناحية وانعكاس صور اضطهاد الأقباط فى مصر عليهم من ناحية أخرى.

* * *

ومن الطبيعى بعد أن سقطت المملكة المسيحية فى الشمال أن تنعكس صورة الأحداث التى وقعت فى بلاد النوبة الشمالية على مملكة علوة أيضا. وتتشابه العوامل التى أدت إلى سقوطها مع تلك التى أدت إلى سقوط جارتها فى الشمال. فتعرض علوة لغزو جيرانها من الغرب والشمال للحصول على الرقيق، فضلا عن قطع علاقاتها بالكنيسة المصرية وفشل أهل علوة فى الحصول على أساقفة من الحبشة أدى إلى تفككها وانحلالها.

ويدل سقوط علوة سنة ١٥٠٤ على يد جماعة من العرب والفونج على أنه سبق سقوطها وصول جماعات عربية فى أعداد وفيرة، فنشأت عدة إمارات ومشيخات عربية فى جهات حوض النيل الأوسط بعد تغلبها على الملوك الإقليميين فى مملكة علوة. ولاشك فى أن تلك الجماعات العربية المختلفة كان مصدرها مصر، باستثناء بعض الأسر العربية أو الأفراد الذين جاءوا عبر البحر الأحمر من الجزيرة العربية، أو بعض الجماعات العربية التى هاجرت من بلاد المغرب عن الطريق الليبى، فالمعروف أن كثيرًا من الجماعات العربية انتقلت من مصر جنوبًا، حيث استقرت فى بلاد النوبة الشمالية (مريس) وأوطان البجه. وزادت جموع العرب المهاجرين إلى هذه الجهات زيادة واضحة عقب قيام السلطنة المملوكية بسبب الضغط المتواصل عليها فى مصر. وساعد على ذلك اضطراب الأحوال فى بلاد النوبة الشمالية. ثم أخذ كثير من هذه الجماعات ولاسيما جهينة فى الهجرة جنوبا إلى جهات النيل الأزرق حتى الحبشة وغربًا إلى جهات دارفور وكردفان.

وتدل كثرة الوحدات القبلية العربية فى جهات حوض النيل الأوسط وانتقال مقر الملك من سوبا إلى الغرب فى (كوسة) على ما صار لهذه الجماعات العربية من قوة. ويبدو أثر هذه الجماعات العربية واضحاً فى تطور الحياة الاجتماعية والسياسة، وزوال الأسس التى قامت عليها الملكية المسيحية فى علوة، لاختلاطهم بالسكان الوطنيين وإزالة التقاليد الاجتماعية القديمة واختفاء معظم بيوت الإمارة القديمة. ولعل أهم أثر لقيام المشيخات الإسلامية فى حوض النيل الأوسط ازدياد انتشار الإسلام بين كثير من أهل البلاد.

ومع هذا لم يؤد هذا التطور إلى استقرار الأحوال فى هذا الجزء من حوض النيل، بسبب اختلال الأمن، والنزاع بين القبائل العربية حول مواطن الرعى من ناحية وبينها وبين الوطنيين من ناحية أخرى، مما أدى إلى تدهور الأحوال الاقتصادية. فظهرت الحاجة إلى إنشاء حكومة مركزية يخضع لها الجميع وحماية طرق التجارة القديمة، فكان الحلف السنارى الذى جمع بين الحليفين عمارة دونقس زعيم الفونج وعبد الله جماع شيخ القواسمة من العبد اللاب. فقضى الحليفان على البيت الملكى النوبى فى علوة وتأسست دولة الفونج الإسلامية سنة ١٥٠٤م. وشملت هذه السلطنة جمع بلاد علوة وجزءًا كبيراً من أرض النوبة الشمالية. ووضع الحليفان أساس النظام الذى جرى عليه حكم هذه السلطنة. ثم انتقل هذا النظام إلى خلفائهما من بعدهما.

والمعروف أن هذه السلطنة اشتملت على عناصر مختلفة عربية وحامية وشبه زنجية فضلا عن خليط منها جميعا، وهى ذات ثقافات مختلفة ومختلطة كذلك. وتشير الروايات الوطنية إلى اختلاط الإسلام بالعقائد والعادات الوطنية، والجهل بقواعد الإسلام، إذ أن الدعوة الإسلامية حتى هذا الوقت (أول القرن السادس عشر) لم تكن تهتم بشرح تفاصيل الأسس التى يقوم عليها الإسلام، بل كانت هذه الدعوة مجملة مبسطة ليسهل على دعاتها نشر عقيدتهم بين أهل البلاد من ناحية، وبسط نفوذهم عليهم من ناحية أخرى، لاسيما وأن أولئك المهاجرين كانوا من البدو، فظهرت الحاجة إلى علماء يتوفرون على شرح قواعد الإسلام.

وتتميز هذه المرحلة من تاريخ سلطنة الفونج (القرن السادس عشر الميلادى) بظهور طبقة من العلماء الذين وفدوا إليها من جهات العالم الإسلامى مثل مصر والحجاز وبلاد المغرب والعراق. وشجع هؤلاء وأولئك على الرحلة إلى مملكة سنار، تشجيع الملوك لهم وإقطاعهم الإقطاعات الواسعة. وفضلا عن هؤلاء فقد ظهرت طبقة من العلماء السناريين الذين تخرجوا فى الأزهر ثم عادوا إلى بلادهم لتعليم مواطنيهم. وظهرت فى أنحاء سنار كثير من المراكز الثقافية التى رحل إليها أبناء مملكة سنار لطلب العلم. ولم تقتصر هذه الدراسات على فرع واحد من فروع الثقافة الإسلامية بل تعددت هذه الدراسات. فمن علوم فقهية

وشرعية إلى علوم القرآن والحديث فضلا عن الثقافة الصوفية. وظهر أثر هذه الثقافات جميعا بشكل واضح فى النصف الثانى من القرن السادس عشر الميلادى، وكانت أساساً لتلك النهضة العلمية والصوفية التى ازدهرت فى مملكة سنار فى القرن السابع عشر الميلادى.

الملاحق[1]

أولاً: الوثائق والنصوص.

ثانيًا: قائمة بأسماء ملوك النوبة.

ثالثًا: المصادر:

ا- مراجع عربية مطبوعة ومخطوطة.

ب - مراجع أوروبية.

---

(١) بعض هذه الملاحق مأخوذة عن مراجع مطبوعة معروفة، غير أنى أوردتها هنا مع الملاحق المأخوذة عن مراجع مخطوطة لأجعل كلها مجموعة واحدة للنصوص المهمة الخاصة بتاريخ السودان، أملاً فى دراستها ونشرها في المستقبل.

أولا

ملحق رقم ١

نقش الملك سلكو باللغة اليونانية

على جدران معبد كلابشة

وقد قام بعض العلماء على نشر هذا النقش، أولهم:

Gau, Antiaités de la Nubie, p l. I. No. L.

ثم ناقش نويهر محتوياته فى Neibuhr, Inscriptiones Nubiennes سنة ١٨٢٠، ثم نشره كل من كايو ولترون ولبسيوس فى مؤلفاتهم وهى:

Cailliaud : Voyage a MerÖe, tom., 3 eme p. 379.

Letronne : Oeuvres choisies, tom. I ere, P. 3 t f.

Lepsius: Denkmaler. Abt. VI, B. I. 95.

وأخذ بدج عن الأخير Budge, E, A, Wallis : The Egyptian Sudan, Vol. الـII, pp. 318 319.

والنص الوارد هنا مأخوذة ترجمته عن بدج بعد مقابلتها لترجمة كروان لهذا النص وليس بينهما خلاف يستحق الذكر

kirwan, L. p. : LAAA. p. 94.

الترجمة العربية:

أنا سلكو رئيس[1] النوباديين وجميع الأثيوبيين. لقد جئت إلى تالمس[2] وتافه، وحاربت البليميين، ثم أعدت عليهم الكرة مرة أخرى، ونصرنى الله عليهم فى

---

(١) علي الرغم من ادعاء سلكو الزعامة علي جميع النوباديين والأثيوبيين، إلا أنه اتخذ لنفسه لقب basilikos اي ملك صغير. وهذا لا يتفق وما ادعاه سلكو لنفسه من سلطة. ويدل التخبط في اختيار اللقب الحقيقي للكو علي الجهل باللغة اليونانية. انظر:

Emery, w. e. : the royal tombs of ballana and qustul, vol., i, p. 12.

(٢) تالمس هي كلابشة الحالية حيث يوجد المعبد الذي نقش سلكو علي جدرانه هذا النقش تخليداً لانتصاره على البليميين.

المرة الثالثة(٣). ثم قهرتهم نهائيا، فأصبحت بذلك سيدا على مدنهم، بعد أن سيطرت عليهم بقواتى(٤) ثم هاجمتهم (مرة خامسة) حتى توسلوا إلىّ، فعقدت معهم صلحا بعد أن حلفوا لى بآلهتهم(٥). وقد وثقت فى إيمانهم هذه لأنهم رجال شرفاء. ثم عدت إلى الجزء الأعلى من مملكتى، ولما تمت لى السيادة عليه، لم أشأ أن أكون فى مؤخرة ملوكه، بل أصبحت فى مقدمتهم(٦).

أما عن أولئك الذين نازعونى الزعامة فإننى لم أسمح لهم بأن يعيشوا فى بلادهم إلا إذا التمسوا منى المغفرة، لأننى أصبحت أسدا فى الجهات الدنيا من مملكتى وظبيا فى الجهات العليا منها(٧).

لقد حاربت البليميين فى المنطقة من إبريم إلى تالمس (الشلال) (٨). أما عن رؤساء الشعوب الآخرين الذين نازعونى الرئاسة فإنى لم أدعهم يجلسون فى

---

(٣) ينسب سلكو إلى الله انتصاره على البليميين فى الموقعة الثالثة. فهل يدل هذا على أن سلكوا اعتنق المسيحية؟ يرى البعض أنه اعتنق المسيحية ـ انظر:

budge, e. a. wallis: the egyptian sudan. vol., ii, p. 294. budge, e. a. wallis : hist. of ethiopia, nubia, abtssinia, vol., i, p. 116.

غير أن كروان Kirwan. L. P. : LAAA. VOL. XXIV. PP. 88.

استناداً إلى ما ذكره بروكوبيوس حوالى ٥٤٣م يذكر أن البليميين والنياطين يعبدون إيزيس وأوزوريس وبريابوس ومندوليس. ويرى أنه ليس هنالك ما يدل على اعتناق سلكو المسيحية، بل أن ظهور صورته فى النقش فى زى فروعونى تزينه صور الآلهة يحمل على الظن انه كان لا يزال وثنياً.

(٤) الواضح من هذه العبارة أن سلكوا احتل المنطقة التى يحتلها البليميون فى بلاد النوبة وهى الممتدة من الشلال الأول حتى إبريم.

(٥) اضطر سلكو إلى شن حرب خامسة ضد البليميين ثم عقد معهم الصلح بعد أن حلفوا به بآلهتهم إيزيس وأوزوريس ومندوليس. والواضح أن سلكو وثق فى هذه اليمين لتمسكهم بآلهتهم.

(٦) اطمأن سلكو إلى البليميين بعد أن أقسموا له يمين الطاعة فعاد إلى الجهات العليا من مملكته اى جنوبى إبريم حيث تم له إخضاع منافسيه ملوك النوباديين فاضحى زعيما بلقب رئيس وهو منصب لم يسبقه إليه غيره من ملوك النوباديين. انظر:

budge, e. a. wallis: the egyptian sudan op. cit. p. 308.

(٧) بعد أن أخضع سلكو منافسيه أضحى شديد البأس، فهو أسد مخيف لسكان السهل، وظبى قوى نشيط ضد سكان الجبال ibid: op. cil. p. 309.

(٨) يقول بدج: إنها تالمس (كلابشة) غير أن الواضح أن البليميين لم يكونوا عند العهد الذى قطعوه على = =أنفسهم ولهذا حربهم سلكو مرة ثانية بعد عودته من الجهات الجنوبية، واكتسح بلادهم من إبريم إلى تالمس. والراجح انها Tilelis اى الشلال الأول كما يقول كروان: Kirwan, L. P. op. cit. P. 84 اعتماداً

الظل بل فى الشمس، ولم يتمكنوا من أخذ شربة ماء إلى دورهم(٩) ومن قاومنى منهم قضيت على أولاده ونسائه.

على ترجمة جرفت لهذا النص: Griffith. F. LL. Mer. Inscriotions، وممنى هذا أن سلكو اضطر لحرب البليميين مرة ثانية بعد عودته من الجهات الجنوبية لعدم تمسكهم بالعهد الذى قطعموه على أنفسهم فيما يظهر، واكتسح بلادهم من إبريم إلى الشلال الأول. غير أن النص لا يشير صراحة إلى طردهم من هذه المنطقة. راجع الفصل الثانى.

(٩) لاشك أن سلكو اضطر إلى خوض حرب ضد بقية النوباديين الذدين خرجوا عليه حتى تم له إحخضاعهم

ملحق رقم ٢

بساتين الآباء الرهبان ـ فردوس النعيم ـ الأربعين

خبر للآباء الرهبان بوادى هبيب وغيره.

مأخوذ عن كرم Crum, B. W. E. : "ANbian prince in an Egptiqn Monastery", in Studies presented to Griffith f. li., pp. 137 -- 145.

نقلا عن نسخ مودعة بالمتاحف البريطانى والمكتبة الأهلية بباريس.

.... ولكن كن على حذر من قوم بنى حام(١). يأتوك عراة الأجساد فى أوساطهم جلود المعزى. وسلاحهم من جريد النخل. وطعامهم من دبيب الأرض. يأكلون النار والثعبان والفرس والورن والسحلفة والذيب والنمر، والكلب والقط. ولا ينجسون شيئًا من اللحوم الخبيثة النجسة. وهم أقوياء شجعان. لا يطيق بهم أحد من سكان هذه الأرض. فيملكون أكثرها. ويسبون أهلها. ويقتلون أبطالها. ويرعون بأفواههم كرومها وبساتينها. ويكون على هذه الأعمال منهم وبالا عظيمًا. ويأتون إليك يا أبى أنسطاسيوس وقد طعنت فى السن. ولا قدرة لك على الطعام مستويا. وتنظرهم بعينيك. وبعد ذلك تموت قبل مخاطبتهم. ويمدون أيضا أيديهم فى هذا الدير. ويريدون فساده ومن فيه من الرهبان فلا يقدرون. فأندر الريس الذى بعدك أن يعد لهم طعامًا وشرابًا من جميع الأطعمة الحلال والحرام. فإذا هم أكلوا من الطعام وشربوا من الشراب فإنهم يعطونك أمانًا لهذا الدير. ولا يفسدون أحدًا فيه. لأن الذى يأتى إليه ابن أخى المقدم فيهم. وأصحابه. وفيه رحمة. واعرف وأوصى ولدك الذى له الرياسة بعدك. يميز وجهه ويعرفه بشخصه، فهو يأتيه ليلا. ويدخل إلى هذا الدير ويصير فيه راهبا ويكون قديسا. ويكون لهذا الدير رحمة من الله عظيمة الذى أرسله إليه.

---

(١) المقصود ببني حام هنا هم النوبيون.

لأن هؤلاء الجند يقيمون فى هذه الأرض ثلثة سنين ويجعلوها مثل القفار. ولايتركون فيها أثمارًا ولا أشجارًا لأنهم خلق كثير لا يحصى عددهم. فإذا كان اليوم الرابع عشر من اب(٢). تأتى إلى فتجدنى فى عنجق(٣). وهذا مكان فى صدر البرية. يسكن فيه طير ألسماو يأوى إليه وحش البرية وما فيها من السباع والوحشة. وذلك لأجل ما فيها من الماء المتجمع من الأمطار والسيول.

وإذا قوما قد وصلوا من أرض النوبة فملكوا أرض النخل والسدر والسنط وهى أسوان وإسنا وأرمنت وأبيود(٤) وجميع تلك الأعمال وكان كما قال هذا الراهب وما صار إليه.

الخبر الثالث والثلاثون لنسطاسيوس أيضاً. قال نسطاسيوس الأب، أنه لما أتى بنوا حام إلى أرض أبيود وأسوان وغيرها من الأعمال كما كان وصف لى الولد القديس جعلت أفكر فى أمرهم ورأيتهم يأكلون ما كان من الحرام أكثر من الحلال ولا يحرمون شيئًا من سائر اللحوم. ويعبدون وحش البحر أيضاً فيأكلوه. ويأكلون من السمك ما لا يأكله أحد من الناس ولا يؤديهم، فعلمت أنهم كما قال لى القديس مرقوريس. وبقيت مترقبًا ما ينالنى من أولايك، لأنهم كانوا قد أفسدوا فى الأرض وثمارها، وأكلوا زرعها، وأحرقوا بالنار غاباتها وسبوا أهلها وقتلوا أبطالها، وغنموا أموالهم، ولم يبق إلا هذا الدير لأجل ما كان فيه من القديسين، ولما كان فى بعض الليالى واد قد أتى إلينا سيارة عظيمة من هذا الجنس الحبشى بنى حام(٥). وهم عراة الأجساد، وفى أوساطهم من جلود المعز ما يسترون به عورتهم وفى أيديهم سلاح من جريد النخل، فنزلوا خارجًا من هذا الدير. ولم ينالنا منهم سوء، أخرجنا إليهم طعاماً فأكلوا وشراباً فشربوا. ولما أرادوا المسير، دفع المقدم فيهم أماناً لهذا الدير وهو لوح من النحاس الأصفر مكتوبا فيه ثلاثة

(٢) اب هنا يقصد به أبيب فى الشهور القبطية أنظر:
Crum, B. W. E. op. cit. p. 142.

(٣) عنجق: وتحة خيالية لا وجود لها Ibid. op. cit.

(٤) ابيود. قرية من قرى صعيد مصر تقع جنوبى مدينة فقط. ويبدو أنها كانت ذات أهمية فى لوقت الذى ترجع إليه حوادث هذه القصص.

(٥) ورد فى بعض النسخ الأخرى ذكر نوبى، وفى بعضها الآخر ذكر حبشى. والواقع أنه كثيراً ما يحدث الخلط بين هذه الأسماء جميعاً. Kirwan, L. P. LAAA. op. cit.

أسطر بالقلم اليونانى، وفيه هكذا. أنا قفرير بن أخى غايان بن مروا بن صلبان، كتبت هذا اللوح لهذا الدير أحذر فيه من يؤذيه، ويغصبيه مالا. أو طعاما أو غير ذلك. فيكون من الهالكين وانصرف هو ومن معه. وبقى اللوح فى هذا الدير، وكان مقام هؤلاء القوم ثلاث سنين، وكان فى هذه المدة إذا أتى إلينا قوم يريدون الفساد، فنخرج إليهم ذلك اللوح فيصقعون له ويرجعون إلى ورائهم ذاهبين. ولما كان فى آخر السنة الثالثة من مملكة هؤلاء القوم. أتى إلينا رجل ومعه ثلاثة غلمان يخدمونه، ويرفعون أثوابه أن تقع على الأرض. وبيده عصا من جريد يتوكأ عليها، وبيده الأخرى سيف يحمله. وعلى رأسه مقدار ذراع واحد حرفه حرير مشدودة بها. كما يكون النسا. فلما رأيناه تعجبنا منه وقلنا ما هذا الشيطان الذى أتى إلى هذا الدير. وماذا يريد. وأنا علمت من ولدى الراهب القديس أن المدة قد انقضت ولم يبق لهم ملكا. لأن هذا الإنسان كان من بنى حام وإنه أراد الدخول إلى الدير. ففتحوا له الباب فدخل وأراد البيعة فدللناه عليها. وأنا نسطاسيوس كنت أمامه ماشيًا. لأنى علمت من ولدى الراهب ما كان أنبانى به. ولما دخل إلى البيعة وقف أمام الهيكل وصلى. ولما فرغ من صلاته التفت إلى وقال. أنا أريد أن ترينى مقدم هذا الدير؛ لأنه كان عجميًا وأن واحدًا من غلمانه كان يترجم له، فقلت له وماالذى تريده منه. فقال إذا رأيته أنا أخاطبه بالذى أريده منه، وقلت له أنا هو. فجلس وأجلسنى وأخرج من بين ثيابه مما كان معلقًا فى عنقه. على صدره صورة من الذهب الأحمر منقوشه بالقلم. وكانت صورة أبينا القديس أنبا بخوم، فتعجبت وقلت ياهذا المولا وأنتم تعرفون في أرضكم القديس أنبا بخوم فقالوا نعم. لأن شابا راهبًا لابس الثياب الصوف طرق أرضنا ورأينا له قدس عظيم. وأكرز فى أرضنا. وقال إن روحى صارت إلى السموات ورأيت أهل العذاب وما هم فيه. ورأيت أهل النعيم وماهم فيه. وأظهر عجائب كثيرة. كان يقول إن روحى بعد قبضها عادت إلى جسدى وأندرنا أنا نأتى إلى هذه الأرض ونملكها ثلاث سنين ونعود إلى أرضنا. وكنت أنا قد ألقيت نفسى إليه ورغبت إلى قدسه وبشرنى أنى أصير راهبا وأسكن فى دير أنبا بخوم. المكان الذى كان فيه راهبنا. وأسكن منزله. وأصلى على قبره. وأورانى كيف صورة القديس الجليل أنبا بخوم وصنعها لى فى لوح من الخشب. وإذا عملتها فى هذا اللوح الذهب. وأن ذلك

الراهب مضى إلى جبل عنجق من أرضنا. وهو ذا قد ثم ما قاله. ولم يخل منه شيأ. فعلمت أنا نسطاسيوس أنه ولدى القديس مرقوريس الراهب. فتعجبت وأطرقت بوجهى إلى الأرض. وكنت ساهيًا زمانًا طويلا. فلما رفعت رأسى. قال لى الترجمان يا أبى الراهب ما هو ذا أنت فيه مفكرًا فقلت. سبحان الله الذى أعطى قديسيه ومختاريه وأصفياءه الراغبين إليه هذه العطية وأجلهم بها. ياولدى هذا الراهب الذى ذكرت وصوله إلى أرضكم هو فى هذا الدير كان راهبًا. وأرضى الله بأعماله وهو ذا ما كان من حاله. فسبح ذلك الرجل الله كثيرا. وقال إن هذا هو العجب. أنه أنبأنى بما كان كذلك هذا الأب. ثم التفت إلىّ وقال لى أنى أتيت لألبس الثوب والإسكيم. وأكون من أولاد القديس أنبا بخوم. إلى حين انقضى مدتى. فبادر ياأبى الراهب وألبس الثياب فقلت إنك راهباً من قبل اليوم. لأن مرقوريس أندرك بذلك وأندرنى وأنى لا أشك أنك ابن أخى الملك. قال نعم. وإذا أعطيتك أمانًا فى هذا الدير. وفى هذا اليوم وهو السابع والعشرون من أيلول عادوا بنو حام إلى أرضهم. وأنا بعد ذلك فى اليوم الثالث عشر من كانون الأول ألبسته الثياب والإسكيم. وأسكنته بيت ذلك الراهب مرقوريس. واريته قبره. وكان فيه يصلى ويذكر قدس مرقوره وقوله. أنه لم يكذب فى لفظة واحدة. انظروا إلى قدس هذا الراهب ونضايله، وهذا ماكان من أمر بنى حام.... أنه ما يبقى أحد منهم فى هذه الأرض إلا هذا الراهب. وكان قديساً كثير الصوم والصلاة. وهذا ما كان من أمر هذا الراهب وكنت وقت لباسه الثياب أسميته قفرى. كما كان فى اللوح مكتوب. الذى أعطانى إياه أماناً على هذا الدير. اسمعوا ياأخوتى وأحبابى أنا نسطاسيوس المسكين. بينما أنا جالس فى ديرى وإذا سيارة قد أتت يطلبونى طلبًا عنيفًا فخرجت إليهم وقلت ماذا تريدوا. فقالوا نريد نسطاسيوس أب هذا الدير. فقلت أنا هو. فقالوا إن عندك رجلاً من أولاد حام وهو ابن أخو ممروا بن صلبان الملك الذى أفسد هذه الأرض. وقد جعلته راهبًا وهو يكاتب عنه بأخبار هذه الأرض. وأنا نريده. وإلا نحن نقتل جميع من فى هذا الدير ونطلق فيه النار. ولا نترك فيه شيئاً من العمارة. وكان جميع ذلك من الشيطان عدوا الخير. هو ذا الدير أمامكم وجميع من فيه. وهو ذا أنا قديماً فى وسطكم. فادخلوا واكشفوا وفتشوا جيداً. فإذا ما قدرتم عليه فخذوه ولاتخافوا

أحداً. فإنى ما أعرف من هذا الإنسان الذى أنتم تذكروه. وأنهم دخلوا وفتشوا الدير ولم يتركوا فيه مكانًا. ولم يدخلوا إلى منزل هذا الراهب قفرى. ولا علموا به. ولا المنزل الذى كان فيه. فخرجوا وقالوا إن هذا أمر عظيم. وأن الساعى إلينا قد كذب ولم يرشدنا. والتفتوا إلى رجل كان معهم. من ناحية تسمى صفيرة كما أسمها. وكان ساعيًا، لأنه كان شريرًا كذاباً قتالا سفيهاً. نماماً مقاطعاً. لا يخاف الله. ولا يعرف إلهًا. وكان لاهياً بالزنا وشرب الخمر. واكتساب المال من غير حل. فسلط عليه هؤلاء القوم عند وصولهم. فأخذوا جميع ما يملك. وسبوا له ثلاث بنات. وقتلوا له ثلاثة أولاد من الرجال الأشداء الأقوياء ولم يرجع عن طغيانه ولا اعتبر بما ناله. وكان يقول إنه يأخذ قفرى الراهب ابن أخى الملك فيقتله عوضًا عن بنيه وبناته ولم يدر أنه بعض الانتقام. وفى آخرته جهنم. فأخذوه وربطوا فى عنقه حبلاً من شعر المعز وعلقوه على حائط الدير فمات لوقته.

تدل الشواهد الداخلية لهذه القصص الثلاث (الحادية والثلاثين والثانية والثلاثين والثالثة والثلاثين) أن حوادثها وقعت فى أديار مصر على أطراف مصر الجنوبية. غير أن تاريخ هذه القصص غير معروف تماما. وتدل اللغة التى كتبت بها أنها دونت فى عصر متأخر قد يرجع إلى القرن العاشر أو الحادى عشر الميلادى.

والراجح أن هذه القصص ترديد لروايات قديمة تداولها الرهبان فى الأديار. وهى تمثل جهود أولئك الرهبان القدامى فى نشر المسيحية بين النوبيين الوثنيين. وهى تشبه إلى حد كبير ما تردده الروايات عن الأنبا شنودة رئيس دير أخميم فى منتصف القرن الرابع الميلادى بصدد علاقته بالنوبيين والبليميين.

والراجح أن حوادث هذه القصص ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس الميلادى حين كان النوبيون لا يزالون على الوثنية. وهو الوقت الذى نشط فيه الرهبان للتبشير للمسيحية بين أولئك الوثنيين، وقد ظهرت آثار هذه الجهود التبشيرية فيما بعد حين أضحت المسيحية الدين الرسمى للنوبيين فى القرن السادس الميلادى وقبولهم مذهب الكنيسة المصرية دون المذهب الملكانى الذى شحذت الدولة البيزنطية جهودها لنشره بينهم. انظر الفصل الثالث من هذا البحث.

ملحق رقم ٣

الوثائق الدالة على استقرار البليميين فى منطقة طيبة

عثر فلاح مصرى سنة ١٨٨٧م فى قرية الجبلين على بعد ٢٥ ميلا جنوبى الأقصر على ثلاث وثائق مكتوبة باللغة اليونانية على رق غزال ـ نشرها كرال وهى محفوظة بالمتحف المصرى تحت رقم.

107 60. 107 61, 107 62. Gen. du. Musee du Caire

وقد نقلها كروان إلى الإنجليزية وعلق عليها فى:

Kirwan L. p. : LAAA. op. cit. p. 87.

Emery, W. E. "The Royal Tombs of Ballana and Qustul i, Text pp. II - 12.

ولا خلاف بين الترجمتين يستحق الذكر.

وفيما يلى نص الترجمة العربية للوثيقة رقم 10760 عن أمرى.

ـ ١ ـ

الترجمة العربية:

أنا شاراشن ملك البليميين. أكتب إلى أولادى شاراشن وشاراتكور وشاراهيت، أنه طبقًا لأمرى هذا قد منحتكم حكم الجزيرة المعروفة باسم تنارى، وألا يقف فى سبيلكم أحد. وإذا أثار الرومان مشكلات وامتنعوا عن دفع الأتاوة العادية لكم فإنه، لا الفيلارك ولا الهيبوتيرانوس، يمنعانكم من إرغام الرومان على دفع العطايا العادية عن جزيرتى.

شارشن: الملك

تنتكنا: أمين القصر ـ شاهد

كــتــبه ســـانــســـانــوس الــكــاتب فى الــيــوم الــرابع والــعــشــرين من شهر.............................

تقع جزيرة تنارى جنوبى الجبلين، أى أنها فى أرض مصرية. ويقول كروان Kir-wan, LP. op. cit. P. 87 LP. op. cit. P. 87 لا يبعد أن يكون الإمبراطور جستنيان أراد أن يتصل بدولة أكسوم ليستعين بها ضد الدولة الحميرية اليهودية باليمن. ورأى أن استخدام البليميين كجنود مرتزقة فى الجيش البيزنطى يتيح له الفرصة لمد حدود إمبراطوريته إلى الحبشة، فأقطعهم هذه الجزيرة ثمنًا لخدماتهم من ناحية، واجتذابهم إلى المسيحية من ناحية أخرى. ويدل رسم الصليب أمام اسمى الشاهدين البليميين على أن المسيحية وصلت إلى هذه الشعبة من البليميين على الأقل، على الرغم من أن الملك البليمى لا يحمل علامة الصليب.

أما أمرى Emery, W. E. op. cit فيرى أن استقرار البليميين فى الجزيرة يدل على ضعف النفوذ البيزنطى فى هذه المنطقة التى أقام فيها البليميون نوعا من الحكم المدنى على حساب البيزنطيين.

ويرى وولى وماسيفر Woolley - Maciver op. cit. p 96 أن البليميين لم يكونوا مجرد غزاة، بل إنهم استقروا فى منطقة طيبة حيث أقاموا حكومة مدنية وأن القوات البيزنطية خضعت لهم واتخذوا من بطليمى قاعدة لهم يرسلون منها قواتهم لإثارة الرعب فى المنطقة التى تقع إلى الشمال من طيبة.

ـ ٢ ـ

وثيقة رقم 10761 متحف الآثار المصرى ـ وهى خاصة بتعيين قسيس لجزيرة تنارى الخاضعة لنفوذ ملك البليميين نقلا عن:

Emery, W. E. : op. cit.

الترجمة العربية:

أنا باكتمن أشهر الملوك. قد عينت باو القسيس المعروف لإدارة جزيرة تمسير المعروفة باسم تنارى. وقد سلمتها إليك من هذا اليوم فصاعدًا. وأوافق على ما سطرته عاليه.

كتبه الكاتب أجاثونوس فى اليوم الثالث والعشرين من السنة الحادية عشرة.

ليس من المعروف تماما تاريخ تحرير هذه الوثيقة. وربما كانت لاحقة للوثيقة السابقة أى قرابة أواخر القرن السادس الميلادى. وموضع الأهمية فى هذه الوثيقة أن ملك البليميين يحمل هنا علامة الصليب. ثم أنه يعين قسيسًا على حكم هذه الجزيرة نفسها ويقول كروان Kirwan. L. P. op, cit, P. 90 إن لفظ iepeus ومعناها قسيس، من الألقاب المعتادة فى الوثائق الكنسية، وتدل الشواهد الداخلية بأن البليميين المستقرين فى هذه المنطقة قد اعتنقوا المسيحية قرابة ذلك الحين (أواخر القرن السادس عشر الميلادى).

ملحق رقم ٤

نقش دندور

فى سنة ٥٥٩م حول معبد دندور إلى كنيسة. وقام الملك أرجمنيز بتسجيل هذه المناسبة على جدران هذا المعبد باللغة القبطية وقام على نشره كل من:

Bèvillout, : Mèm. Sur les Blemmyes, P. 121.

kraus, j., die anfönge des christiontams in nubien. p. III.

وقد أخذ عنهما كل من كروان وبك kirwan, L. p. LAAA: OP, cit. p. 99

ولا تختلف ترجمة كل من أولئك العلماء لهذا النص كثيراً وفيما يلى ترجمته

عن بكت وبكت Beckett, H. W. ASN. voL. II. Report, 1907 - 8. p. 366

الترجمة العربية:

بمشيئة الله وبأمر الملك أرجمنيز (أربانم) ويوسف نائب الملك فى تالمس، بعد أن تسلمت الصليب من يد ثيودور أسقف فيلة، وقد وضعت أنا إبراهام القسيس المسكين هذا الصليب فى اليوم الذى وضع فيه أساس هذه الكنيسة وهو اليوم السابع والعشرون من طوبة من السنة السابعة (١٢ يناير سنة ٥٥٩م) بحضور (شاى) (١) الخصى وبافنوتى مندوب الملك(٢) وأبيفاس حامل أختام الملك وماركوس(٣) البريدى(٤). وأرجو ممن يقرءون هذه السطور أن يصلوا من أجلى إحساناً منهم.

يشير هذا النقش إلى أن أرجمنيز ملك نوباديا اعتنق المسيحية وأنه أخذ ينشىء الكنائس ويحول المعابد إلى كنائس كذلك بالتعاون مع ثيودور أسقف فيلة. ويدل هذا النقش كذلك على أن نوباديا أضحت بلاداً مسيحية. ومعنى هذا أن البليميين الذين قال بروكوبيوس Procopius, op. cit. أنهم حتى ذلك الحين (منتصف القرن السادس الميلادى) كانوا لا يزالون على الوثنية، قد تركوا هذه المنطقة التى عاشوا فيها قرابة قرنين. كما يدل على ذلك نقش أسلكو الذى سبق ذكره. ومما يدل على تعاون البيزنطيين مع سلكوا على طرد أولئك البليميين من هذه المنطقة أن الدولة عينت إلى جوار ملك نوباديا موظفاً كبيراً يحمل لقب heZarch أو eparch ومقره مدينة كلابشة ويقتسم هذا الموظف السلطة مع ملك نوباديا، نيابة عن الإمبراطور البيزنطى. انظر

Morie, L. J. Histoire de, L'Ethiopie et la Nubie, tome, Lere P. 412,

ويشتمل هذا النقش على أسماء عدد من الموظفين يعاونون نائب الملك فى حكم

(١) ذكر كروان في ترجمته لهذا النص أن اسم الخصى، Shai Kirwan, L. P. : op. cit. p. 99.

(٢) ذكر بكت هذا اللقب بمعني stephor وذكره كروان بمعني stepharis مندوب ibid. op. cit.

(٣) ذكر بكت أن اسم هذا الموظف marcus علي حين أن كروان ذكره باسم sirma

(٤) يقول بكت: إن لقب هذا الموظف veredarius، أما كروان فترجمها courier، بريدي.

هذه المنطقة. والراجح أن أرجمنيز أول ملك نوبى مسيحى.

ملحق رقم ٥

عهد الأمان الذى أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر

وهو ما يطلق عليه الطبرى «صلح عين شمس»

مأخوذ عن الطبرى، طبعة زونبرج، الجزء الثالث، ص ٤٦١

«هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص، ولا تساكنهم النوبة. وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم، خمسين ألف ألف. وعليهم ما جنى لصوتهم (لصوصهم) فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدهم وذمتنا ممن أبى بريئة. وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك. ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ومن أبى منهم واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثاً فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم. على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين. وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على ألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة» وشهد عليه الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر.

ملحق رقم ٦

عهد عبد الله بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبة

مأخوذ عن المقريزى. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

طبعة بولاق الجزء الأول ص ١٩٩ ـ ٢٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم. عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبة، ولجميع أهل مملكته. عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة

من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة. أن عبد الله بن سعد جعل لهم أمانًا وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة. أنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبى ﷺ. أن ألا نحاربكم ولا ننصب لكم حربًا ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التى بيننا وبينكم، على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه، وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم. وأن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام، ولا تستولوا عليه ولاتمنعوا منه. ولا تتعرضوا لمسلم قصده وجاوره إلى أن ينصرف عنه. وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم. ولا تمنعوا منه مصليا. وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته. وعليكم فى كل سنة ثلاثمائة وستون رأسا تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، يكون فيها ذكران وإناث، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك إلى والى أسوان.

وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم، من حد أرض علوة إلى أرض أسوان. فإن أنتم آويتم عبدًا لمسلم أو قتلتم مسلما أو معاهدًا، أو تعرضتم للمسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم، أو منعتم شيئاً من الثلاثمائة رأس والستين رأسا، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان، وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد ﷺ. ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم. الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك.

كتبه عمرو بن شرحبيل فى رمضان سنة إحدى وثلاثين.

ملحق رقم ٧

البقط حسبما ورد فى كتب المؤلفين العرب

مأخوذ عن البلاذرى: فتوح البلدان

نشره De Goeje طبعة ليدن ١٨٦٦م

(٣٦٦)... لما فتح المسلمون مصر بعث عمرو بن العاص إلى القرى التى حولها الخيل ليطأهم فبعث عقبة بن نافع الفهرى - وكان نافع أخًا العاص لأمه - فدخلت خيولهم أرض النوبة كما تدخل صوائف الروم، فلقى المسلمون بالنوبة قتالا شديدا. لقد لاقوهم فرشقوهم بالنبل حتى جرح عامتهم فانصرفوا بجراحات كثيرة وحدق مفقودة فسموا رماة الحدق. فلم يزالوا على ذلك حتى ولى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح فسألوه الصلح والموادعة فأجابهم إلى ذلك على غير جزية، لكن على هدنة ثلاثمائة فى كل سنة وعلى أن يهدى المسلمون إليهم طعاما بقدر ذلك... حدثنى محمد بن سعد، قال: حدثنى الواقدى، قال حدثنا إبراهيم بن جعفر بن عمر بن الحرث عن أبى قبيل حيى بن هانئ العافرى عن شيخ محمد حميد. قال شهدت النوبة مرتين فى ولاية عمر بن الخطاب، فلم أر قومًا أحدّ فى حرب منهم. لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم أين تحب أن أضع سهمى منك فربما عبث الفتى منا فقال فى مكان كذا فلا يخطئه. كانوا يكثرون الرمى بالنبل فما يكاد يُرى من نبلهم فى الأرض شىء. فخرجوا إلينا ذات يوم فصافونا ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف فما قدرنا على معاملتهم. رمونا حتى ذهبت الأعين فعدت مائة وخمسين عينا مفقودة والهاولاء خير من الصلح. إن سلبهم لقليل وإن نكاتهم لشديدة. فلم يصالحهم عمرو. ولم يزل يكالبهم حتى نزع وولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح فصالحهم. قال عبد الله بن صالح عن أبى لهيعة عن يزيد بن حبيب قال: ليس بيننا وبين الأوساد عهد ولا ميثاق، إنما هى هدنة بيننا وبينهم على أن نعطيهم شيئاً من قمح وعدس ويعطونا رقيقا فلا بأس بشراء رقيقهم منهم أو من غيرهم. حدثنا أبو عبيد الله عن عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد قال: إنما الصلح بيننا وبين النوبة على ألا

نقاتلهم ولا يقاتلونا وأن يعطونا رقيقا ونعطيهم بقدر ذلك طعاما. فإن باعوا نساءهم وأبناءهم ولم أر بذلك بأسا أن يشترى.

ومن رواية البحترى وغيره أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح صالح أهل النوبة على أن يهدوا فى السنة أربعمائة رأس يخرجون بها يأخذون بها طعاما. وكان المهدى أمير المؤمنين أمر بإلزام النوبة فى كل سنة ثلاثة مائة رأس وستين رأسا وزرافة على أن يعطوا قمحاً وخلاً[1] وخمرًا[2] وثياباً وفرشاً أو قيمته.. وقد ادعوا حديثاً أنه ليس يجب عليهم البقط لكل سنة وأنهم كانوا طولبوا بذلك فى خلافة المهدى فرفعوا إليه أن هذا البقط مما يأخذون من رقيق أعدائهم فإذا لم يجدوا منه شيئًا عادوا على أولادهم فأعطوا منهم فيه بهذه العدة، فأمر بأن يحملوا فى ذلك على أن يؤخذ منهم لكل ثلاث سنين بقط سنة. ولم يوجد لهذه الدعوى ثبت فى دواوين الحضرة ووجد فى الديوان بمصر.

ملحق رقم ٨

هجرة القبائل العربية إلى مصر، ومنها إلى السودان(٣)

أولاً: القبائل القحطانية:

بنو خدام: سكن بنو جذام الحوف منذ الفتح العربى لمصر حتى سنة ١٤٠٠م، ومنهم بنو عقبة الذين انفصلوا عن بقية الجذاميين ليلحقوا ببنى هلال فى شمال إفريقيا. وقد اضمحل شأن جذام زمن صلاح الدين (١١٧١م) وحلت محلها طىء.

بنو طىء: هبط بنوطىء مصر عقب الفتح العربى لها بنحو قرنين أو ثلاثة، وسكنوا جهات الدلتا المختلفة، حيث لحق بهم عدد كبير من أهليهم، ومن طىء بنو ثعلبة.

---

(١) وخلا.

(٢) وخمراً.

(٣) ملخصه عن Macmichacl, h. a.: a hist. of the arabs in the sudan, i, pp. 133 - 150.

Macmichael, H. A. "The coming of the arabs to the sudan, aesw, pp. 42 - 46.

بلى: إن بلى فرع من قضاعة من حمير، جاءوا مصر مع الفتح العربى. وقد قام نزاع بينهم وبين جهينة ثم تم الصلح بينهما. واستقرت بلى فى صحراء عيذاب وسكن بعضهم جهات إخميم.

جهينة: سكنت جهينة جنوبى ينبع، ثم دخلوا مصر مع الفتح، واشتركوا مع ربيعة فى حملة العرب على البجا قرابة منتصف القرن التاسع الميلادى وانتقل معظمهم إلى الصعيد واشتركوا فى الحملات على النوبة.

لخم: فرع من طىء، أسسوا مملكة الحيرة سنة ٢٨٦م ونشب نزاع بينهم وبين غسان وبنى بكر وبنى تميم وغيرهم من عرب سوريا. اعتنقوا المسيحية فى نهاية القرن الخامس الميلادى وانتهى حكمهم بالحيرة عقب ظهور الإسلام. ومن بطون لخم، يشكر الذين جاءوا مع الفتح العربى لمصر واستقروا فى الجبل الذى يعرف باسمهم (جبل يشكر)، ثم لحقت بهم بطون أخرى فى القرنين السابع والثامن الميلاديين. واستقروا حول الإسكندرية وفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر استقر كثير من بطون لخم فى إقليم الصعيد.

ثانياً: القبائل العدنانية:

كنانة وقريش: ومن هؤلاء أولاد عدى بن كعب وبنو مخزوم وبنو أمية وبنو العباس وغيرهم. وجاءت إلى مصر أعداد كبيرة منهم مع الفتح العربى لها - والمعروف أن معظم ولاة مصر كانوا من قريش. سكن كثير منهم الصعيد بجوار عرب جهينة. وفى نهاية القرن العاشر غادر جماعة من سلالة جعفر بن أبى طالب مكة واستقروا فى مصر - بين قوص وأسوان - حيث عرفوا باسم الأشراف الجعافرة.

قيس عيلان: استقدم عبد الله بن الحبحاب صاحب الخراج فى مصر سنة ٧٣٧م أعدادا وفيرة من قيس عيلان الذين يسكنون نجد، ومنح بعض عائلاتهم أرضًا حول بلبيس، وجمعوا ثروة طائلة من نقل المتاجر بين البحر وداخل البلاد، ولهذا الحق بهم عددًا كبيرًا من أقاربهم حتى بلغ عددهم فى عام واحد ١٥٠٠ أسرة معظمهم من بنى سليم، وهم بطن من قيس عيلان، وقد قام هؤلاء بعدة

ثورات لم تقتصر على إقليم الحوف، بل امتد شررها حتى شمل معظم جهات الدلتا (٨٠٢ ـ ٨٠٨م).

فزارة: ينسب إلى فزارة معظم رعاة الإبل غربى النيل الأبيض، وكانوا يمثلون أيام الفتح العربى لمصر شعبة مستقلة عن غطفان. وعلى هذا فإنهم يرجعون إلى قيس عيلان. كانوا ينزلون حول مكة، ثم هاجرت جماعات منهم إلى مصر فى القرن السابع الميلادى، ولحق بهم أقاربهم فى القرن الحادى عشر الميلادى، مع بنى هلال.

بنو هلال وبنو سليم: وهم فرع من قيس عيلان، وتشمل بطوناً من هوازن وعكرمة. انفصل بنو هلال عن القبيلة الأصلية فى زمن متقدم. وفى بداية القرن السابع كانوا يسكنون مع أقاربهم بنى سليم قرب الطائف. ولما ضعف نفوذ الفاطميين فى بلاد المغرب، أصدر المستنصر بالله سنة ١٠٤٩م أمراً لبنى هلال بالزحف على بلاد المغرب للقضاء على الروح الانفصالية فيها. وفى سنة ١٠٥١م نزح كثير من بنى هلال وبنى سليم وبنى قيس، ومعهم بنوقرة، إلى شمال إفريقيا، وغزوا تونس وطرابلس، وحتى زمن ابن خلدون ١٣٣٢ ـ ١٤٠٥م وكذلك ليو الإفريقى ١٥٥٢م لم نعد نسمع عن بنى هلال شيئاً فى بلاد المغرب، وبدأنا نسمع عن وجودهم فى الجنوب ولاسيما بعد حملة السلطان قلاوون على دنقلة سنة ١٢٨٧م ويذكر ابن خلدون أنهم يسكنون صعيد مصر. ويذكر المقريزى أنهم كثيرون حول أسوان وفى الصحراء الشرقية حتى عيذاب. وهناك من الأدلة ما يثبت أن من بنى هلال من نزح إلى السودان.

ربيعة وبنو كنز: إن الوطن الأصلى لربيعة فى الحجاز ومرتفعات نجد وتهامة. هاجر كثير من عرب ربيعة إلى بلاد الجزيرة فى القرن الخامس الميلادى؛ حيث اعتنقوا المسيحية فى القرن السابع الميلادى. وفى سنة ٨٥٤م بدأ هجرتهم الكبرى إلى مصر، ثم اندفعوا جنوباً واستقر عدد كبير منهم حول أسوان وشمال النوبة، وانضموا إلى جهينة فى حملاتهم ضد البجة. واستقر كثير منهم فى أرض البجة للعمل فى المعادن. كان زعيمهم فى هذا العهد (القرن التاسع الميلادى) إسحاق بن بشر. ثم انتقلت الزعامة إلى أبى يزيد بن إسحاق الذى فضل الإقامة

فى أسوان. وبهذا انتقل مركز القبيلة من العلاقى إلى أسوان؛ حيث اختلطوا بالنوبيين وتزوجوا ببنات رؤسائهم، فأضحت لهم مصالح مادية فى بلاد النوبة. ومن هؤلاء بنو كنز وهم من ربيعة. عرفوا بهذا الاسم زمن الحاكم بأمر الله الفاطمى. ولهؤلاء يرجع الفضل فى تعريب بلاد النوبة الشمالية تعريباً جزئياً. ولعبوا دوراً خطيراً فى إسقاط مملكة النوبة المسيحية «مقرة»، ثم اندمجوا اندماجاً تاماً فى النوبيين. وهم الذين يعرفون فى الوقت الحاضر باسم الكنوز، ويمتد وطنهم من أسوان إلى كرسكو.

ملحق رقم ٩

عهد عبد الله بن الجهم لكنون بن عبد العزيز

عظيم البجة بأسوان

منقول عن المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

طبعة بولاق، ص ١٩٥ ، ١٩٦

هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم، مولى أمير المؤمنين، صاحب جيش الغزاة، عامل الأمير أبى إسحق بن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله فى شهر ربيع الأول سنة ست عشرة ومائتين، لكنون بن عبد العزيز عظيم البجه بأسوان، أنك سألتنى وطلبت إلى أن أؤمنك وأهل بلدك من البجة، وأعقد لك ولهم أمانا علىّ وعلى جميع المسلمين، فأجبتك وأهل بلدك من البجه، وأعقد لك ولهم أمانًا ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتنى، وشرطت لى فى كتابى هذا وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكًا للمأمون عبد الله بن هرون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى. وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين، إلا أنك تكون فى بلدك ملكًا على ما أنت عليه فى البجه، وعلى أن تؤدى إليه الخراج فى كل عام على ما كان عليه سلف البجه. وذلك مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار وازنة داخلة فى بيت المال، والخيار فى ذلك لأمير المؤمنين ولولاته، وليس لك أن تخرم شيئا عليك من الخراج، وعلى أن كل أحد منكم إن ذكر محمدا رسول الله (ﷺ) وكتاب الله أو دينه بما لاينبغى أن

يذكره به، أو قتل أحدا بين المسلمين حرا أو عبدا، فقد برئت منه الذمة، ذمة الله وذمة رسوله (ﷺ) وذمة أمير المؤمنين أعزه الله، وذمة جماعة المسلمين، وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذراريهم، وعلى أن أحدًا منكم إن أعان المحاربين على أهل الإسلام بمال، أو دله على عورة من عورات المسلمين، أو أثر لعزتهم، فقد نقص ذمة عهده وحل دمه، وعلى أن أحدًا منكم إن قتل أحدًا من المسلمين عمدًا أو سهوًا أو خطأ حرًا أو عبدًا أو أحدًا من ذمة المسلمين، أو أصاب لأحد من المسلمين أو أهل ذمتهم ما لا ببلد البجة، أو ببلاد الإسلام، أو ببلاد النوبة أو من شيء من البلدان برًا أو بحرًا، فعليه في قتل المسلم عشر ديات، وفي قتل العبد المسلم عشر قيم وفي قتل الذمي عشر ديات من دياتهم، وفي كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعاف. وإن دخل أحد من المسلمين بلاد البجة تاجراً، أو مقيماً، أو مجتازاً، أو حاجًا، فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم، ولا تؤوا أحدًا من آبقى المسلمين، فإن أتاكم آت فعليكم أن تردوه إلى المسلمين. وعلى أن تردوا أموال المسلمين، إذا صارت في بلادكم بلا مؤنة تلزمهم في ذلك، وعلى أنكم إذا نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مجتازين لا تظهرون سلاحًا ولا تدخلوا المدن والقرى بحال، ولا تمنعوا أحدًا من المسلمين الدخول في بلادكم والتجارة فيها برًا ولا بحرًا. ولا تخيفوا السبيل ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل الذمة، ولا تسرقوا المسلم ولا ذمي مالا، وعلى ألا تهدموا شيئًا من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولا وعرضًا، فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة. وعلى أن كنون بن عبد العزيز يقيم بريف صعيد مصر وكيلا يفي للمسلمين بما شرط للمسلمين من دفع الخراج، وردما أصابه البجة للمسلمين من دم ومال. وعلى أن أحدًا من البجه لا يعترض حد القصر إلى قرية يقال لها قبان من بلد النوبة حدًا لا عمدة. عقد عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين لكنون بن عبد العزيز كبير البجه الأمان على ما سمينا وشرطنا في كتابنا هذا، وعلى أن يوافي به أمير المؤمنين فإن زاغ كنون أو عاث فلا عهد له ولا ذمة، وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم من البجه، وعلى كنون الوفاء بما شرط لعبد الله

ابن الجهم وأخذ بذلك عهد الله عليه بأعظم ما أخذ على خلقه من الوفاء والميثاق. ولكنون بن عبد العزيز ولجميع أهل البجة عهد الله وميثاقه، وذمة الأمير أبى اسحق بن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بالوفاء بما أعطاه عبد الله بن الجهنم ما وفى كنون بن عبد العزيز بجميع ما شرط عليه. وإن غير كنون أو بدل أحد من البجة فذمة الله جل اسمه وذمة أمير المؤمنين وذمة الأمير أبى إسحاق أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بريئة منهم. وترجم جميع مافى هذا الكتاب حرفًا حرفًا زكريا بن صالح المخزومى من سكان جده وعبد الله بن إسماعيل القرشى، ثم نسخه جماعة من شهود أسوان.

ملحق رقم ١٠

مناجم الذهب والزمرد بأوطان البجه

عن اليعقوبى كتاب البلدان. تشردى خوية، ليدن ١٨٩١م

ص ٣٣٠، ٣٣٥

... ومن قفط تسلك إلى معدن الزمرد، وهو معدن يقال له خربة الملك على ثمان رحلات من مدينة قفط وفيه جبلان يقال لأحدهما العروس وللآخر الخصوم فيهما معادن الزمرد، وفيه موضع يقال له كوم الصابونى وكوم مهران ومكابر وسفسيد. وكل هذه معادن يوجد فيها الجوهر وتسمى الحفائر التى يخرج منها الجوهر شيم، واحدتها شيمة. وكان بها معدن قديم يقال له سر وحيط وهو معدن كان فى الجاهلية وكذلك معدن مكابر. ومن المعدن الذى يقال له خربة الملك إلى جبل صاعد وهو معدن تبر مرحلة، وإلى الموضع الذى يقال له الكلبى، وموضع يقال له الشكرى وموضع يقال له العجلى، وموضع يقال له العلاقى الأدنى، وموضع يقال له الريفة وهو ساحل بحر خربة الملك. وكل هذه معادن تبر. ومن الخربة إلى معدن يقال له رحم معدن تبر ثلاث مراحل، وبرحم قوم من بلى وجهينة وغيرهم من أخلاط الناس يقصدون للتجارات، فهذه معادن الجوهر وما يتصل بها من معادن التبر القريبة. ثم مدينة أسوان العظمى وبها تجار المعادن

وهم فى الجانب الشرقى من النيل... ومن أراد المعادن معادن التبر خرج من أسوان إلى موضع يقال الضيقة بين جبلين، ثم البويب ثم البيضة، ثم بيت ابن زياد، ثم عذيقر ثم جبل الأحمر ثم جبل البياض ثم قبر أبى مسعود ثم عقار ثم وادى العلاقى. وكل هذه المواضع معادن التبر يقصدها أصحاب المطالب.. ووادى العلاقى كالمدينة العظيمة به خلق من الناس وأخلاط من العرب والعجم أصحاب المطالب، وبها أسواق وتجارات. وشربهم من آبار تحفر فى وادى العلاقى وأكثر من بالعلاقى قوم من ربيعة من بنى حنيفة من أهل اليمامة انتقلوا إليها بالعيالات والذرية. ووادى العلاقى وما حواليه معادن للتبر وكل ما قرب منه يعتمل فيه الناس. لكل قوم من التجار وغير التجار عبيد سودان يعملون فى الحفر، ثم يخرجون التبر كالزرنيخ الأصفر، ثم يسبك. ومن العلاقى إلى موضع يقال له الحمل مرحلة، ثم إلى موضع يقال له عيب ثم إلى موضع يقال له كعار يجتمع الناس به لطلب التبر، وبه قوم من أهل اليمامة من ربيعة. ومن العلاقى إلى معدن يقال له بطن داح مرحلة. ومن العلاقى إلى موضع يقال له أعماد مرحلتان، وإلى معدن يقال له ماء الصخرة مرحلة. وإلى معدن يقال له الأخشاب مرحلتان، وإلى معدن يقال له ميزاب تنزله بلى وجهينة أربع مراحل، وإلى معدن يقال له عربة بطحا مرحلتان، ومن العلاقى إلى عيذاب أربع مراحل. وعيذاب ساحل البحر المالح يركب الناس منه إلى مكة والحجاز واليمن ويأتيه التجار فيحملون التبر والعاج وغير ذلك فى المراكب. ومن العلاقى إلى بركان هى آخر معادن التبر التى يصير إليها المسلمون ثلاثون مرحلة ومن العلاقى إلى موضع يقال له دح ينزله قوم من بنى سليم وغيرهم من مضر عشر مراحل.، ومن العلاقى إلى موضع يقال له السنطة وبه قوم من مضر وغيرهم عشر مراحل. ومن العلاقى إلى موضع يقال له الرفق عشر مراحل. ومن العلاقى إلى معدن يقال له سخيت عشر مراحل. فهذه المعادن التى يصل إليها المسلمون ويقصدونها لطلب التبر.

ملحق رقم ١١

شراء العرب أراضى بالنوبة

منقول عن المسعودى: مروج الذهب، نشر دى مينار ودى كورتل باريس ١٨٦٦ - ١٨٧٧م جـ٣، ص ٤٢ ، ٤٣

ولمن بأسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلة فى أرض النوبة، يؤدون خراجها إلى ملك النوبة. ابتيعت هذه الضياع من النوبة فى صدر الزمان فى دولة بنى أمية وبنى العباس. وقد كان ملك النوبة استعدى إلى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم بوفدهم إلى الفسطاط، ذكروا عنه أن أناسًا من مملكته وعبيده باعوا ضياعا من ضياعهم لمن جاورهم من أهل أسوان وأنها ضياعه والقوم عبيده ولا أملاك لهم، وإنما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العاملين فيها. فرد المأمون أمرهم إلى الحاكم بمدينة أسوان ومن بها من الشيوخ وأهل العلم. وعلم من ابتاع هذه الضياع أنها ستنزع من أيديهم، فاحتالوا على ملك النوبة بأن تقدموا إلى من ابتيع منهم من النوبة، أنهم إذا حضروا إلى حضرة الحاكم ألا يقروا لملكهم بالعبودية، وأن يقولوا سبيلنا معاشر المسلمين سبيلكم مع ملككم، يجب علينا طاعته وترك المخالفة له. فان كنتم أنتم عبيد لملككم وأموالكم له فنحن كذلك. فلما جمع بينهم الحاكم وبين صاحب الملك أتوا بهذا الكلام أو نحوه مما وقفوا عليه من هذا المعنى، فمضى البيع لعدم إقرارهم بالرق لملكهم إلى هذا الوقت. وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس. وصار النوبة أهل مملكة هذا الملك فى نوعين، نوع ممن وصفنا أحرارًا غير عبيد والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد وهم من سكن بالنوبة فى غير هذه البلاد المجاورة لأسوان وهى بلاد مريس.

ملحق رقم ١٢

التجاء فلول الأمويين إلى بلاد النوبة وبلاد البجة

عن المسعودى: كتاب التنبيه والإشراف

نشر دى خويه، ليدن، ١٨٦٧، ص ٣٢٩ ، ٣٣٠

لما قتل مروان بن محمد بن مروان، تفرقت بنو أمية فى البلاد هربًا بأنفسهم. وقد كان عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، قتل منهم على نهر أبى فطرس من بلاد فلسطين نحوًا من ثمانين رجلا مثلة، واحتذى أخوه داود ابن على بالحجاز فعله. فقتل منهم نحوًا من هذه العدة بأنواع المثل. وكان مع مروان حين قتل ابناه عبد الله وعبيد الله وكانا وليى عهده ، فهربا فيمن تبعهما من أهلهما ومواليهما وخواصهما من العرب ومن انحاز إليهم من أهل خراسان من شيعة بنى أمية، فساروا إلى أسوان من صعيد مصر، وساروا على شاطئ النيل إلى أن دخلوا أرض النوبة وغيرهم من الأحابش، ثم توسطوا أرض البجه ميممين باضع من ساحل بحر القلزم، فكانت لهم مع من مروا به من هذه الأمم حروب ومغادرات، ونالهم جهد شديد وصبر عظيم، فهلك عبيد الله بن مروان فى عدة من كان معهم قتلا وعطشًا وضرًا. وشاهد من بقى منهم أنواع الشدائد وضروب العجائب. ووقع عبد الله بن مروان فى عدة ممن نجا معه إلى باضع من ساحل المعدن وأرض البجه، وقطع البحر إلى جده من ساحل مكة، وتنقل فيمن نجا معه من أهله ومواليه فى البلاد متسترين راضين أن يعيشوا سوقة بعد إن كانوا ملوكًا، فظفر بعبد الله أيام أبى العباس السفاح. فأودع السجن، فلم يزل فيه بقية أيام أبى العباس وأيام المنصور والمهدى والهادى، فأخرجه الرشيد وهو شيخ ضرير فسأله عن خبره فقال ياأمير المؤمنين حبست غلامًا بصيرًا وأخرجت شيخا ضريرًا.

ملحق رقم ١٣

رسالة ملك الحبشة إلى جورج ملك النوبة للتدخل لإعادة العلاقات بين كنيسة الحبشة والكنيسة المرقسية

من حياة البطريرك فيلاتاوس ، وهو من العدد الثالث والستين

٩٧٠ - ٩٩٥م

عن تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة لساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين

المجلد الثانى، الجزء الثانى

ص ١١٣، ١١٤

وفى أيامه (البطريرك فيلاتاوس) أنفذ ملك الحبشة إلى ملك النوبة كتابًا، واسمه جرجس، وعرفه ما أدبه الرب به هو وأهل كورته وهو، أن امرأة ملكة على بنى الهموية ثارت عليه وعلى كورته وسبت منها خلقًا كثير وأحرقت مدنًا كثيرة وأخربت البيع وطردته من مكان إلى مكان وأن الذى لحقه جزى (جزاء) عما كان الملك الذى قبله فعله مع المطران فى أيام الأب أنبا قزما مما قد شرحناه أولا من تزويره وكذبه، وقال له فى الكتاب الذى أنفذه له: أحب أن تساعدنى وتشاركنى فى التعب منجل (من أجل) الله ومن أجل اتفاق الأمانة، وتكتب كتاب من جهتك إلى الأب البطريق بمصر تسأله أن يحللنا ويحلل بلادنا ويصلى علينا ليزيل الله عنا وعن أرضنا هذا البلاء وينعم لنا بأن يقسم لنا مطران كما جرت عادة ابانا ويدعى لنا بأن يزيل الله غضبه عنا. وذكرت لك أيها الأخ ذلك خوفًا من أن ينقرض ويبطل دين النصرانية من عندنا لأن هو ذا ستة بطارقة قد جلسوا ولم يلتفتوا إلى بلادنا بل هى ساية بلا راع، وقد ماتوا أساقفتنا وكهنتنا، وقد خربت البيع وعلمنا أنه بحكم حق نزل علينا هذا البلاء عوضًا مما فعلناه بالمطران. فلما وصلت الكتب إلى جرجس ملك النوبة ووقف عليها أنفذ من جهته كتبًا ورسلا إلى البطريق فيلاتاوس وشرح له فيها جميع ما ذكره ملك الحبشة، وسأله أن يترأف على شعبه فأجاب سؤاله ورسم لها راهبًا من دير أو بمقار اسمه دانيال وأنفذه لهم مطرانًا فقبلوه بفرح وأزال الله عنهم الغضب وأبطل أمر المرأة التى قامت عليهم.

ملحق رقم ١٤

نص اليمين التى حلف عليها مشكذ ملك النوبة الجديد بدنقلة للظاهر بيبرس بعد فتح المماليك لتلك البلاد سنة ١٦٧٤م (١٢٧٥هـ).

وهو منقول من النويرى (نهاية الأرب، جـ ٢٨، ورقة ١٠٩) صورة شمسية بدار الكتب المصرية معارف عامة رقم ٥٤٩ وقد صحح وقوبل على النص الوارد فى ملحق رقم ٥ من كتاب السلوك، جـ١ القسم الثالث، ص ٩٧٤،٩٧٣ نشره الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة.

والله! والله! والله! وحق الثالوث المقدس، والإنجيل الطاهر والسيدة الطاهرة العذراء أم النور والمعمودية، والأنبياء والمرسلين والحواريين والقديسين والشهداء الأبرار، وإلا أجحد المسيح كما جحده يودس، وأقول فيه ما يقول اليهود واعتقد ما يعتقدونه، وإلا أكون يودس الذى طعن المسيح بالحربة، إننى أخلصت نيتى وطويتى من وقتى هذا وساعتى هذه للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس وإنى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته، وإنى مادمت نائبه لا أقطع ما قرر على فى كل سنة تمضى، وهو ما يفضل من مشاطرة البلاد على ما كان يتحصل لمن تقدم من ملوك النوبة، وأن يكون النصف من المتحصل للسلطان مخلصا من كل حق، والنصف الآخر أرصده لعمارة البلاد وحفظها من عدو يطرقها وأن يكون على كل سنة من الأفيلة ثلاثة، ومن الزرافات ثلاث، ومن إناث الفهود خمس، ومن الصهب الجياد مائة، ومن الأبقار الجياد المنتخبة أربعمائة، وإننى أقرر على كل نفر من الرعية الذين تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغين ديناراً عينا، وأن يفرد بلاد العلى والجبل خالصاً للسلطان. وأنه مهما كان لداود ملك النوبة ولأخيه سنكوا ولأمه وأقاربه، ومن قتل من عسكره بسيوف العساكر المنصورة، أحمله إلى الباب العالى مع من يرصد لذلك. وأننى لا أترك شيئا منه قل ولا جل ولا أخفيه، ولا أمكن أحداً من إخفائه. ومتى خرجت عن جميع ما قررته أو شىء من هذا المذكور أعلاه، كنت بريئًا من الله تعالى ومن المسيح ومن السيدة الطاهرة، وأخسر دين النصرانية، وأصلى إلى غير الشرق،

وأكفر بالصليب، وأعتقد ما تعتقد اليهود. وأنى لا أترك أحداً من العربان ببلاد النوبة، ومن وجدته منهم أرسلته إلى الباب السلطانى. ومهما سمعت من الأخبار السارة والنافعة طالعت به السلطان فى وقته وساعته، ولا أنفرد بشىء من الأشياء إذا لم تكن مصلحة. وإننى ولى من والى السلطان وعدو من عاداه والله على مانقول شهيد.

ملحق رقم ١٥

نص اليمين التى حلف عليها النوبيون بطاعة السلطان بيبرس ونائبه فى حكم النوبة وهو الملك مشكد (شكنده)

منقول من النويرى: نهاية الأرب، الجزء ٢٨، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية، معارف عامة، رقم ٥٤٩، ص ١٠٩

وكل نائب يكون للسلطان أطيعه، ولا أرى عليه بردىء، ولا أخبئ عنه مصلحة. وكل ماأسمعه من الأخبار الجيدة والردّية أطالع نائبه به. ومتى علمت على نائب الملك مشكد أمرًا يخالف المصلحة، لا أطيعه فيه وأطالع السلطان به فى الوقت والساعة. وأننى لا أدخل فى حكم داود، ولا أكون معه، ولا أطالعه بخبر من الأخبار، ولا أرتضى به ملكا. ورضيت بأن أقوم بدينار عينا فى كل سنة خالية علىّ.

ملحق رقم ١٦

حملة السلطان الناصر محمد بن قلاوون على العربان ببرية عيذاب؛ توغل الحملة فى أرض البجه وبلاد علوة وعودتها إلى مصر عن طريق دنقلة سنة ٧١٦ هـ - ١٣٢٢م

منقولة من النويرى: نهاية الأرب، مخطوطة بدار الكتب المصرية صورة شمسية، معارف عامة رقم ٥٤٩ ، جزء ٣٠، ص٩٦ - ٩٨

(ص ٩٦) وفى سنة ست عشرة وسبعمائة أمر السلطان بتجريد جماعة من العسكر إلى جهة الصعيد، وأن يتوجهوا خلف العرب حيث كانوا من البرية. فجرد الأمير علاء الدين مغلطاى أمير مجلس، وهو المقدم على الجيش، وهو من جملة

مقدمى الألوف، والأمير عز الدين أيدمر الدوادار، والأمير علم الدين سنجر الدمشيرى، والأمير علاء الدين على بن الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى، والأمير سيف الدين بهادر النقوى، والأمير سيف الدين الدمياطى، والأمير صارم الدين الجرمكى، والأمير سيف الدين طقصبا متولى الأعمال القوصية والأخميمية، وسبعة من مقدمى الحلقة المنصورية، وتوجهوا فى نحو خمسمائة فارس. وكان رحيلهم من القاهرة فى يوم الأربعاء العشرين من شوال من السنة. وكان سبب ذلك أن العربان ببرية عيذاب قطعوا الطريق على رسول اليمن الواصل إلى الأبواب السلطانية وأخذوا ما كان معه من التقادم ومن رافقه من غلمانه التجار. والذى حملهم على ذلك الأمير سيف الدين طقصبا متولى الأعمال القوصية اعتقل فياضًا أمير هذه الطائفة من العرب، فحملت أصحابه الحمية على فعل ذلك. فلما اتصل فعلهم بالأبواب السلطانية، جرّد هذا العسكر فى طلبهم. (٩٧) ورسم أن يتوجهوا إلى مدينة قوص ويتوجهوا منها إلى البرية ويتبعوا العرب حيث كانوا. فأخبرنى الأمير عز الدين الدوادار أحد الأمراء الذين توجهوا، وهو الثقة فى أخباره، أنهم توجهوا فى التاريخ المذكور حتى انتهوا إلى مدينة قوص، فأقاموا بظاهرها خمسة وخمسين يوماً. وفى مدة مقامهم توجه متولى الأعمال والأمير صارم الدين الجرمكى إلى البرية ليجتمعا بالعربان فى رد ما أخذوه من الأموال ومراجعة الطاعة. فاجتمعا بهم ولم يهنا بالموافقة على ماأرادوا. ولما توجها طولع السلطان بتوجههما، وأن العسكر تأخر لقلة الظهر وسعة البرية وقلة الماء. وجهز بذلك الأمير بدر الدين بكتمر الحسامى أحد مقدمى الحلقة المنصورية.

فلما وصل إلى الأبواب السلطانية حصل من السلطان الإنكار الشديد بسبب تأخر العسكر عن دخول البرية، فعندها توجه العسكر من مدينة قوص فى القمر الأول من المحرم سنة سبع عشرة وسبعمائة، ودخلوا إلى البرية، فانتهوا إلى ثغر عيذاب خمسة عشر يوماً. واجتمع العسكر بالأميرين سيف الدين طقصبا وصارم الدين الجمركى بعيذاب، وأقاموا بها اثنى عشر يوماً. وكان متولى الأعمال قد استصحب معه فياضًا أمير العرب الذى كانت الفتنة بسبب اعتقاله، ثم دخل

الجيش من ثغر عيذاب، وساروا حتى انتهوا إلى سواكن فى اثنى عشر يوماً يسلكون بين الجبال والأدغال. وحصل لهم ضرر كبير بسبب المياه وقلتها حتى كادوا يهلكون فى ماء منها يقال له ديكام. فإن العربان كانوا قد غوروا المياه أمام العسكر، فأقام الجيش أربعة أيام، ووصل إلى ذلك الماء فى اليوم الخامس، فوجدوا قفاراً واحداً وهو متغير اللون والطعم والريح. فبينما هم كذلك إذ قدمت كشافة العسكر، وكانوا قد قدموا من يستقرى لهم خبر تلك الجبال. فدخلوا من هناك وقت المغرب، وانتهوا إلى مياه قد اجتمعت من الأمطار فأقاموا بها بقية تلك الليلة إلى نصف النهار من اليوم الثانى وحملوا منها وارتحلوا، حتى انتهوا إلى سواكن، فخرج إليهم متملكها بالطاعة والانقياد إلى أوامر السلطان، وقرر على نفسه قطيعة يحملها إلى الأبواب السلطانية فى كل سنة وهى من الرقيق ثمانون رأساً ومن الجمال ثلاثة مائة رأس ومن العاج ثلاثون قنطاراً. واستقر بسواكن نيابة عن السلطان، وأقام العسكر بسواكن ستة أيام، واستصحب معه أولاد مهنا. وكان فضل أحد مقدمى العربان قد التحق بالعسكر فيما بين سواكن وعيذاب وصحبهم. وتوجه الجيش خلف العربان ودخلوا البرية يتبعون آثارهم، فساروا سبعة عشر يوما. وفى أثناء مسيرهم ظفروا بطوائف من السودان بقرب المياه فى أودية هناك، فقتل العسكر منهم وأسر وسبى وغنم من مواشيهم من الأبقار والأغنام ما ارتفق به الجند. وانتهوا إلى وادى (أتيرب) فى اليوم السابع عشر، فأقاموا بها يومين، ولم يجدوا من سواكن إلى هذا الوادى غير ماء واحد، وكان شربهم من مياه الأمطار، وأمطرت البرية فى غير الوقت المعتاد لطفًا من الله تعالى بعباده، واتقاء عليهم، ثم ساروا إلى أن وصلوا أزبينات. وهو جبل صغير على شاطئ نهر أتيرا، وهو فرع من فروع نيل مصر، يخرج من بلاد الحبشة، فأقاموا عليه يومًا واحدًا، ثم توجهوا يتبعون آثار العربان، وهم يسيرون على شاطئ ذلك النهر ثلاثة أيام، والنهر على يمين العسكر. ثم فوزوا ودخلوا البرية إلى أرض السالة، فانتهوا فى اليوم الثالث من يوم دخولهم المفازة إلى جبل كسلان وهو جبل أقرع ليس فى تلك البرية غيره. وجبل ألوس، وبين الجبلين واد، هذا الجبل هو حد بلاد التاكة من الحبشة. (ص ٩٨) فلما وصلوا إليه وقد قربوا من

الماء وهم فى أرض صفر التربة تشبه أرض بيسان فى كور الشام، وهى كثيرة أشجار السنط وأم غيلان وشجر الأهليلج والأبنوس والصبر والحمى وهو الذى يطرح الثمر الهندى، إذ طلع عليهم غبار أمامهم، فندبوا من يكشف الخبر، فعاد الكشافة وأخبروهم أن طائفة من السودان تسمى هلنكة قد اجتمعوا لقتال العسكر، وهم خلق كبير فتقدم العسكر إليهم... واجتمع العسكر فى أرض خالية من الأشجار هى من طرق... وقد صارت مثل البركة. فدخل العسكر فيها..... وهلنكة من أعلى البركة والعسكر أسفل منهم، وبأيدى هلنكة الحراب والمزاريق والسيوف ومع بعضهم النبل. فوقف العسكر، وأرسل إليهم: إننا لم نأت لقتالكم وإنما جئنا فى طلب طائفة من العرب، أفسدوا وعصوا وقطعوا السبيل، وأمنوهم فردوا الأمان وأبوا إلا القتال، فقاتلهم العسكر ورموهم رشقًا واحدًا بالسهام فقُتل من هلنكة أربعمائة وستون نفرًا وجرح منهم خلق كبير. ولم يتمكن العسكر من أسرهم فأنهم كانوا يرون القتل أحب إليهم من الأسر وقتل منهم اثنان من ملوكهم، على ما حكاه من اجتمع بهم من غلمان العسكر. وكان سبب اجتماعهم بهم وسلامتهم منهم، أنهم كانوا انقطعوا وراء العسكر وناموا فلحقهم كشافة هلنكة فمسكوا بهم، وأتوا بهم إلى أكابرهم فسألوهم من أين أنتم، وكان فيهم من يعرف لغة القوم، فقالوا نحن تجار، أغار علينا هذا العسكر ونهبونا وأخذوا أموالنا وأسروا، فلما قاتلوهم هزمنا منهم، فرقوا لهم وأطلقوهم. وذكروا لهم عدة من قتل منهم. ولما انهزمت هذه الطائفة من هلنكة تحصنوا بالأشجار وتركوا أحمالهم، فأخذ العسكر منها ما قد زاد على جملة من الذرة وليس لهم طعام غيرها، وحملوا حاجتهم من الماء ورجعوا من هناك من يومهم على آثارهم، وذلك فى سادس شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة، وعادوا حتى انتهوا إلى أربينات. ولم يمكنهم الرجوع على الطريق الذى دخلوا منه لقلة المياه والأقوات والعلوفات، فعدلوا إلى جهة الأبواب من بلاد النوبة، وأخذوا على نهر أتبرا، فساروا على شاطئه عشرين يومًا. وكانت دوابهم ترعى من الخلف، ثم انتهوا إلى قبالة الأبواب وأقاموا هناك. وتوفر سيف الدين أبو بكر بن والى الليل فى الرسيلة من جهة متولى الأعمال القوصية الأمير سيف الدين طقصبا، إلى متملك الأبواب فخلف

ولم يأت إلى العسكر، وأرسل إليهم بمائتى رأس بقر وأغنام وذرة، ونهب العسكر ما وجدوه بتلك الجهة من الذرة وتوجهوا إلى مدينة دنقلة، فى سبعة عشر يومًا فى أرض كثيرة الأشجار والأفيلة والقرود والنسانيس والوحش الذى يسمى المرغفيف، فأقاموا ثلاثة أيام. وملكها عبد الله برشنبو كما تقدم، وأضاف العسكر وزودهم، وتوجهوا إلى ثغر أسوان ثم مدينة قوص، وأقاموا بها خمسة عشر يومًا. وحصل للعسكر فى هذه السفرة مشقة كبيرة وكلفة عظيمة حتى يبعت قطيعة النعال بينهم بخمسين درهمًا. وبيع رطل البقسماط بدرهم ونصف إذا وجد، ونفق أكثر خيل العسكر وجمالهم. ورجع أكثرهم إلى ساحل مصر فى المراكب لأمرين: أولهما: عدم الطهر. ومنها أن النيل كان قد عم البلاد وقطع الطرق إلا الجبال، وكان وصول العسكر إلى القاهرة المحروسة فى يوم الثلاثاء التاسع من جمادى الآخرة سنة سبع عشرة.

ملحق رقم ١٧

المكاتبة إلى أهل الجانب الجنوبى ممن جرت العادة بالمكاتبة إليه من العرب

عن القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٨، ص ٥

وقد ذكر فى «التثقيف» ممن كوتب منهم جماعة بالطرقات الموصلة من الديار المصرية إلا بلاد الحبشة وغيرها، ثم قال: ولعلّ هؤلاء أيضا من عربان الممالك المحروسة، غير أنه لا إقطاعات لهم، وعدّ منهم ثمانية أشخاص. وذكر أنه كتب إلى كل منهم الاسم ومجلس الأمير:

الأول: سمرة بن كامل العامرى.

الثانى: عباد بن قاسم.

الثالث: كمال بن سوار، قال: وهو مستحدث المكاتبة فى العشر الأول من جمادى الأول سنة ثلاث وستين وسبعمائة.

الرابع: جنيد شيخ الجوابرة من الهكارية بأبواب النوبة. قال: وهو مستحدث المكاتبة فى سنة تسع وستين وسبعمائة.

الخامس: شريف شيخ النمانمة، بأبواب النوبة أيضا، ومكاتبته مستجدة حينئذ.

السادس: على شيخ دغيم.

السابع: زامل الثانى.

الثامن: أبو مهنا العمرانى.

ملحق رقم ١٨

الممالك والمشيخات التى دخلت فى حلف مع الفونج بواسطة العابدالاب أو القرن السادس عشر الميلادى

نقلا عن نعوم شقير: تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، جـ ٢، ص ١٠٣

مشيخة الشنابلة. قامت على النيل الأزرق شمالى سنار، ومركزها المسلمية وأشهر مشايخها الشيخ شنبول الذى قتل فى أيام الملك عدلان الثانى.

مملكة الجموعية. امتدت غرب النيل الكبير والنيل الأبيض من عقبة قرى إلى الترعة الخضراء، ومركزها الفيزان المنسوبة إلى أولاد الملك المحينسة. وكان أهم فروعها الجميعاب والسرواب والفنيحاب وأقواهم الجميعاب.

مملكة الجعليين: قامت فى شمالى مشيخة العابدالاب على أنقاض مملكة مروى القديمة بين حجر العسل والدامر ومركزها شندى وكانت مملكة قوية تولاها فرع من الجعليين يعرف بالسعداب.

مملكة الميرافاب . فى شمالى الجعليين بين المقرن ووادى السنقير، ومركزهم برير ولهم ككر وطاقية.

مملكة الرياطاب: امتدت من وادى السنقير إلى الشامخية فيما وراء

أبى أحمد وكان لهم ككر وطاقية.

مشيخة المناصير: امتدت من الشامخية إلى الشلال الرابع.

مملكة الشايقية: قامت على أطلال مملكة نبته القديمة وامتدت من الشلال الرابع إلى أبى دوم قشابى ومركزها مروى. وهى مملكة عربية محضة. وقامت فى شمالها مملكة الدفار ودنقلة والخندق. وأرقو. وهى ممالك نوبية أو عربية منوبة.

ثانيـــاً

قائمة بأسماء ملوك النوبة الشمالية «مقرة»

سلكو	٥٣٦م
ايريانم (آرجمنيز)	٥٥٩ أو ٥٧٤م
قاليدور	٦٥١ ـ ٦٥٢م
زكريا بن باركى	٦٤٥ ـ ٦٥٥م
مرقوريوس	٦٩٧ ـ ٧١٠م
زكريا بن مرقوريوس	
سيمون	
إبرام	بين ٧٤٤ ـ ٨٦٨م
ماركو	
قير ياقوص	
ميكائيل	فى أواخـر الـقـرن الثامن
يوحنا	؟؟؟
زكريا إسرائيل الثانى بن يوحنا (يحنس)	٨٢٢م
جورج الأول بن زكريا	٨٧٢ ـ ٨٩٢م

زكريا الثالث بن جورج الأول	؟؟؟
كبرى بن سرور	٩٤٣م
جورج الثانى	٩٦٩ ـ ١٠٠٢م
رفائيل	١٠٠٢ ـ ١٠٠٦م
سالمون	١٠٨٠م
باسيل	١٠٨٦م
جورج الثالث	١١٣٠ ـ ١١٥٨م
داود الأول	١٢٧٢ ـ ١٢٧٣م
داود الثانى بن داود الأول	١٢٧٤ ـ ١٢٧٧م
شكنده بن أخت داود الأول	١٢٧٥ ـ ١٢٧٦م
برك	١٢٧٩ ـ ١٢٩٠م
سمامون	١٢٨٦م
ابن إحدى أخوات سمامون	١٢٨٨م
عودة سمامون للُملك للمرة الثانية	؟؟؟
أحد أبناء أخت الملك داود الثانى	١٢٩٠م
عودة سمامون للملك للمرة الثالثة	١٢٩٠ ـ ١٢٩٣
آنى	؟؟؟
بدمة	؟؟؟
أماى	١٣٠٤ ـ ١٣٠٥م
كرنبس	١٣١٢م
عبد الله برشمبو النوبى	١٣١٦م
كنز الدولة	١٣١٧م
إبرام شقيق كرنبس	(حكم ثلاثة أيام)
كرنبس ثانيًا	١٣٢٣م
كنز الدولة ثانيًا، ونهاية المملكة المسيحية الشمالية	١٣٢٣م

ثالثًا

١ـ المراجع العربية المخطوطة والمطبوعة

١ـ أتين دريتون (بالاشتراك مع جاك فاندييه).

مصر، ترجمة: الأستاذ عباس بيومى، مصر ١٩٥٠م.

٢ـ ابن الأثير (على بن أحمد بن أبى الكرم ت ٦٣٠هـ ـ ١٢٣٨م) الكامل فى التاريخ، ١٢ جزءًا، بولاق ١٢٧٤.

٣ـ أحمد كاتب الشونة.

تاريخ ملوك السودان، نشر الدكتور مكى شبيكة الخرطوم.

٤ـ الإدريسى (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس).

صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس. مأخوذة عن كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق. نشر دوزى ودى خويه، ليدن ١٨٦٦م.

٥ـ أرنولد (السير توماس).

الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: الدكتور حسن إبراهيم حسن وآخرين، مصر ١٩٤٧م.

٦ـ بتشر (ا. ل.).

كتاب تاريخ الأمة القبطية وكنيستها، ترجمة: تادرس شنودة المنقبادى، مصر ١٩٠٠م.

٧ـ بتلر (الفردج).

فتح العرب لمصر، ترجمة: الأستاذ: محمد فريد أبو حديد مصر.

٨ ـ ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبيد الله ت ٧٧٩هـ ١٢٧٧م) تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، جزءان مصر ١٩٣٨م.

٩ـ البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى أبو العباس، ت ٢٧٩هـ ٨٩٢م).

فتوح البلدان، نشر دى خويه، ليدن ١٨٦٦م.

١٠ـ بوصيلى (الشاطر).
معالم تاريخ سودان وداى النيل. مصر ١٩٥٥م.
١١ـ ابن الجوزى (جمال الدين أبو الفرج، ت ٥٩٧هـ).
كتاب صفة الصفوة، حيدر آباد ١٣٥٦هـ.
١٢ـ ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل، من علماء القرن الرابع الهجرى).
ـ ا ـ المسالك والممالك، نشر دى خويه، ليدن ١٨٧٣م.
ـ ب ـ كتاب صورة الأرض، نشر كرامرز، ليدن ١٩٣٨م.
١٣ـ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ ـ ١٤٠٥م).
العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٧ أجزاء، مصر ١٢٨٤هـ.
١٤ـ الدمشقى (شمس الدين أبو عبد الله ت ٧٣٩هـ ـ ١٣٣٨م).
كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر. بطرسبرج ١٨٦٦.
١٥ـ روفليه (يعقوب نخله).
كتاب تاريخ الأمة القبطية، مصر ١٨٩٨م.
١٦ـ ساويرس (ابن المقفع الأشمونى).
تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، المعروف بسير البيعة المقدسة، الجزء الثانى، نشر الأستاذ يسى عبد المسيح والدكتور عزيز سوريال عطية وأسولد بدمستر، مصر ١٩٤٣ ـ ١٩٤٨م.
١٧ـ ابن سعيد (على بن موسى المغربى ت ٦٧٣هـ ـ ١٢٧٥م).
المغرب فى حلى المغرب. ليدن ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩م.
١٨ـ سليم حسن.
مصر القديمة الأجزاء ٨، ٩، ١٠ مصر.
١٩ـ سميكة (مرقص سميكة باشا).

دليل المتحف القبطى، الجزء الثانى، مصر ١٩٣٣م.

٢٠ـ الشامى (الدكتور صلاح الدين)

التوجيه البحرى للسودان وأثره فى طرق التجارة والمواصلات، رسالة لم تطبع، مصر ١٩٥٦.

٢١ـ شقير (نعوم).

تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته. ٣ أجزاء مصر ١٩٠٤م.

٢٢ـ أبو صالح الأرمنى. (ت ١٢٠٠م).

تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى، تذكر فيه أخبار من نواحى مصر وإقطاعها، نشر إيفت، أكسفورد ١٨٩٣م.

٢٣ـ ضيف الله (محمد).

كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان، مصر ١٩٣٠م.

٢٤ـ الطبرى (محمد بن جرير ت٣١٠هـ ٩٢٣م).

تاريخ الأمم والملوك الجزء الثالث، نشر زوتنبرج، باريس ١٨٧١م.

٢٥ـ عابدين (الدكتور عبد المجيد).

ـ ا ـ تاريخ الثقافة العربية فى السودان. مصر ١٩٥٣م.

ـ ب ـ دراسات سودانية، الخرطوم ١٩٥٧م.

٢٦ـ ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن القرشى المصرى).

كتاب فتوح مصر وأخبارها، نشر تورى، ليدن ١٩٢٠م.

٢٧ـ ابن عبد الظاهر (عبد الله الكاتب).

الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية. نشر موبرج، ليبسك ١٩٠٢م

٢٨ـ عبد المجيد (الدكتور عبد العزيز أمين).

التربية فى السودان. مصر ١٩٤٩م.

٢٩ـ عمار (الدكتور عباس).
وحدة وادى النيل، أسسها الجغرافية، ومظاهرها فى التاريخ. رياسة مجلس الوزراء ـ مصر.
٣٠ ـ العمرى (ابن فضل الله ت ٧٤٢هـ ـ ١٣٤١م).
ـ ا ـ التعريف بالمصطلح الشريف، مصر ١٣١٢هـ.
ـ ب ـ مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار الجزء الثانى والثالث، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية، معارف عامة رقم ٥٥٩ وتاريخ رقم ٢٥٦٨.
٣١ـ عوض (الدكتور محمد عوض محمد).
ـ ١ ـ نهر النيل، طبعة ثانية. مصر ١٩٤٢م.
ـ ب ـ السودان ووادى النيل، مصر ١٩٥١
ـ جـ ـ السودان الشمالى ـ سكانه وقبائله، مصر ١٩٥١م.
٣٢ـ أبو الفدا (إسماعيل بن على بن محمود بن شاهنشاه بن أيوب ـ ت ـ ٧٢٣هـ ـ ١٣٣٢م).
ـ ا ـ المختصر فى أخبار البشر، ويعرف بتاريخ أبى الفدا. (بولاق ١٢٨٦هـ) ٤ أجزاء فى مجلد واحد.
ـ ب ـ جغرافيته، نشر رينو ودى سلان، باريس ١٨٤٠م.
٣٣ـ ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم).
تاريخه، ٦ أجزاء، نشره الدكتور قسطنطين رزيق، بيروت من ١٩٣٦.
٣٤ـ فشر (ا. ل.).
تاريخ أوروبا العصور الوسطى. نقله إلى العربية الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العرينى مصر ١٩٥٠.
٣٥ـ ابن أبى الفضائل (مفضل القبطى المصرى ت ٦٧٢هـ ـ ١٢٧٣م).
النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، جزءان، نشر بلوخت ـ باريس ١٩١٢.

٣٦ـ ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الهمذانى).
مختصر كتاب البلدان، نشر دى خويه، ليدن ٣٠٢هـ ـ ١٨٨٥م.
٣٧ـ القلقشندى (أبو العباس أحمد ت ٨٢١هـ ١٤١٨م).
صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ١٤ جزء، مصر ١٩١٣هـ ١٩١٧م.
٣٨ـ المسعودى (على بن الحسين بن على أبى الحسن ت ٣٤٦هـ ٩٥٦م).
ـ ا ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، نشر دى مينار ودى كورتل ٩ أجزاء، باريس ١٨٦٦ ـ ١٨٧٧م.
ـ ب ـ كتاب التنبيه والإشراف، نشر دى خويه، ليدن ١٨٩٧م.
٣٩ـ المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ ـ ١٤٤١م).
ـ ا ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان بولاق ١٢٧٠م.
ـ ب ـ السلوك لمعرفة دول الملوك. نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة من ١٩٣٤م.
ـ ب ـ السلوك ـ مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية ـ تاريخ رقم ٤٥٥.
ـ جـ ـ البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، مصر ١٩١٦.
ـ د ـ المقفى، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية تاريخ رقم ٥٣٧٢.
٤٠ـ ابن ميسر (أبو عبد الله محمد بن على ت ٦٧٧هـ).
أخبار مصر. طبع المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة مصر ١٩١٩.
٤١ ـ ميور (وليم).
تاريخ دولة المماليك فى مصر ١٠٦٠ ـ ١٥١٧م ترجمة: محمود عابدين، والدكتور سليم حسن، مصر ١٩٢٤.
٤٢ـ النويرى (شهاب الدين أحمد ت ٧٣٣هـ ـ ١٣٢٢م).
نهاية الأرب فى فنون الأدب، الأجزاء ٢٨، ٢٩، ٣٠، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية. معارف عامة رقم ٥٤٩.
٤٣ ـ ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى ت ٦٢٦هـ ـ ١٢٢٩م).
معجم البلدان، ١٠ أجزاء، القاهرة ١٩٠٧

٤٤ـ مؤلف مجهول. تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور (قلاوون) الجزء الثانى، مخطوطة بالخزانة التيمورية ٢٢٢٦.

٤٥ـ اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب ت ٢٨٢هـ ٨٩٥م).

ـ ا ـ تاريخه، جزءان، نشر هوتسما، ليدن ١٨٨٢م.

ـ ب ـ كتاب البلدان، نشر دى خويه، ليدن ١٨٩١م.

Abbreviations

ASN : The Archaelogical Survey of Nubia.

AESW: Hamilton, J. A. ed. The Anglo Egyptian Sudan from Within.

EB : Encyclopedia Britannica, 14 th ed. 1929.

El : Encyclopedia of Islam.

GJ : Geagraphical Jouranl (of the Royal Geog. Society, London).

HTR : Harvard Theological Review,

JRAI : Journal of the Royal Anthropological. Institute.

LAAA : Liverpool Annals of Archaelogy and Anthropo - logy.

SASOP : Sudan Antiquities Service Occasional Papers.

SG : Studies Presented to F. Ll. Griffith.

SNR : Sudan Notes and Records.

SRGE : Societe Rovale De Geographie D'egypte.

(ب) المراجع الإفرنجية

1-- Abu salih al armani : the churches and monastries of egypt and some neighbouring countries, ed. & tr. by b. t. a. evetts. notes by a. h. buter, oxford, 1995,

2 - Addison, F. : "A Christian Site near Khartoum", SNP,xIII, 1930, pp. 285 - 8.

3 - Ahmad Fakhry : The Necropolis of the Bagawat in Kharga Oasis. Cairo 1951.

4 - Alvarez, f. : Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia; 1520 -- 27. transi. by Stanley (Hakluyt society). vol. lxiv, london 1881.

5 - Arkell, A. J. : "fung origins", snr, xv, part ii, 1932, pp. 201 - 250.

6 - Arkell, A. J. : A History of the sudan to AD. 1821. London, 1955.

7- Balton, A. R. C. : "The Dubab and Nuba of Jebel Daier", SNR, XIX, 1956, pp. 93 - 108.

8- Barns, J. w. b. : " Christian Monuments from Nubia:. kush, II, (journal of the sudan antiquities service khartoim 1954.

9 - Becker, C. H. : "Bakt, EL, I, 1913.

10 - Beckett. H. W. : asn., report for 1907 - 8, vol. ii, egyptian survey dept., cairo 1910.

11- Bell. H. I. : Evidenes of christianity in Egypt during The roman period, htr, 37, 1944, pp. 185 - 208.

12 - Bloss, J. F. E. : " The Stoty of suakin", snr, (a) xix, part I, 1936, pp, 271 - 300. (b) xx, part ii, 1937, pp. 286 - 287.

13 - Bonel - Mauray : L'islamisme et le chrislianisme en Afrique. paris 1906.

14 - Breasted, j. h. : a history of egypt from the earliest times to the

persian conquest. 2 nd edition, london 1951.

15 - Bruce, J. Travels to discover The source, of the Nile in the years 1768 - 1773, 6 vols., Edinburgh, 1790.

16 - Budge. E. A. Wallas : the Egyptian sudan, its history and Monun,ents, London 1907.

17- Budge, E. A. Walkas: Nubian Texts. London 1909.

18 - Budge, E. A. W. : A History of Ethiopia, Nubia, snd Abyssinia. 2 vols., London 1928.

19 - Burckhardt,. J. L. : Travels in Nubia. London, 1819.

20 - Bury J. B. : History of the Later Roman Empire. 2 Vols, London 1889.

21- Butcher, L. : The Story of the Church in Egypt. 2 vols, London 1897.

22 - Caillaud, F. : Voyage a Meroe, au Fleuve Blance, au dela de Fazogl... fait dans Ics annes 1819, 1820, 1821 et 1822. Paris 1826 - 7, 3 Vols.

23- Caussin de pcrcival, : essaie sur l' histoire des arabes avant L' Islamisme, vol., I, Paris 1847 -- 48.

24 - Chatway, J. D. P. : "Notes on The history of Fungs.", SNR, XIII, part II, 1930, pp. 247 - 258.

25- Chatway, J. D. P.: "Fung Origins", SNR, xvii, part I, 1934, pp. III-117.

26 - Clarke, S. : Christian Antiqities in the Nile Valley, Oxford 1912.

27 - Combe, E. T. : "Four Arabic Inscriptions from the Red sea", XIII, Part II, 1930, pp. 288 - 291.

28 - Cosmas Indicopleustes : The Christian Topography ed. Me - Grandal, (Hakluyt Society), london 1897.

29 - Crawford, O. G. S. The fung Kingdom of Sennar Glouceseter, 1951.

30 - Crawford,O. G. S. : "Castles and Churches in the Middle Nile Region", sasop, 2, 1955. pp. 7 - 40.

31- Crawford, O, G, S, : "Christian Nubia : A review of "Storia della Nubia Cristiana", By ugo Monneret de Villard. Antiquity, 21, PP. 10 -15.

32 - Crawford, O. G. S. : "The Stone Tombs of the N. E. Sudan", Kush, No. 2, 1954, PP. 86 - 87.

33 - Crowfoot, J. W: "Christian Nubia" JEA, XIIII, 1927, pp. 141 - 150.

34 - Crowfoot, J. W. : "Five Greek Inscriptions from Nubia, JEA, XIII, 1927. pp. 226 - 231.

35 - Ctum, W. E. : "A Nobian Prince in an Egyptian monastery", SG, 1932.

36 - Dunbar, J. H. :"Betwixt Egypt and Nubia" AE, XIV, 1929, PP. 108 -- 117.

37 - Elliot Smith, G. : The Racial Problem. ASN, Rop. 1907 -- 8, vol., II, Ciro 1910.

38 - Elliot Smith, G. : ASN, Anatomical rep, "A", B. 3, Cairo, 1909.

39 - Emery, W. B. : The Royal Tombs of Ballana and Qustul Vol., I, Text. Cairo 1938.

40 - Firth, C. M. : (a) ASN, Report for 1908 - 9 vol. 1, Cairo 1912.(b) ASN , Report for 1910 - 11. Cairo 1927.

41- Garstang, J., Sayce, A. H. Griffith, F. LI. : Meroe, the City of the Ethiopians, (etc -) Oxford 1911.

42- Gau, F. C. : Antiqutes de la Nubie (ect.) Stutthart and Paris, 1821 - 7.

43 - Gleichen, Count A. E. W. : The Anglo -- Egyptian Sudan. 2 Vols., London 1905.

44 - Glidden, H. : " The Khor Nubt Tombstones". Kush II, (Jour. of the Sudan Antiquities Service) Khartoum 1954 PP. 63 -- 65.

45- Graefe, E. : "Dongola", El., I, 1915.

46 - Griffith, F. Ll: The Nubian Texts of the Christian Period. Berlin 1913.

47 - Griffith, F. Ll. : "Oxford Excavations in Nubia"

(a) LAAA, IX, 1922, PP. 67- 124.

(B) LAAA, X. 1923, pp. 73 - 171.

(C) LAAA, XV, 1928, pp. 63 - 88.

48 - Griffith, F. Ll. : "Pakhoras - Bakharas - Faras in geography and history". JEA, XI, 1925, PP. 259 - 268.

49 - Griffith, F. Fl : " Christian Documents from Nubia". Proc. British Academy, XIV, 1928.

50 - Griffith, F. Ll. : Nubia, EB, VIII, 1929.

51 -- Griffith, F. Ll. : "Meroetic Inscriptions. Part I. Soba to Dangel", In Mem. XIX, of ASN, (The Island of Meroe).

52 - Groves, C. P. : The Planting of Christianity in A frica. Vol. I, London 1948.

53 - Handerson, J. A. de C- ed : The Anglo Egyptian Sudan from Within. London 1935.

54 -- Henderson, K. D. D. "Nubian Origins". SNR, XIV, Part I, 1931, pp. 90- 20 "Nubian Origins". SNR, XVIII, part Ipp. 222 - 4.

56 - Henderson, K. D. D. : "Nubians and Nuba" . SNR, XVIII, Part II, 1935, pp. 325 - 6.

57 - Herodotus : The history of Herodotus. Transl. G. Rawlison. Ed. E. H. Blakeney 1910 (In Everyman'S library.)

58 - hillelson, s. : " Nubian Origins". SNR, XIII, PART I. 1930, PP. 137 - 148.

59 - Castlereagh, V: journey to damascus. vol. I, london. 1847.

60 - Hillelson, s. " David reubeni, an early visitor of sennar" snr, xvi, 1933, pp. 55 - 66.

61 - Jackson (H. C) : tooth of fire, being some account of the ancient kingdom of sennar. oxford, 1912.

62 - jackson, h. c. : "the khawalda tribe". snr, i, no. 3, 1918.

63 - John of Ephesus : Ecclessiastical History, part II, tr. by R. Payne smith, London 1860.

64 - Kammerer. A. : Essai sur L'histoire antique d'abyssinie. le roy-aume aaksum et les voisins d' arabie et de meroe, (etc.) psris, 1926.

65 - Kirwan, l. p. : "christianity and the kur' an". JEA, XX. 1934, PP. 201 - 3.

66 - kirwan, l. p. : notes on the topography of the christian nubian kingdoms' JEA. XXL, 1955, p. p. 59 - 62.

67 - kirwan, l, p. : "a contemporary account of the conversion of the sudan to christiauity", SNR, XX. 1937, pp. 289 - 295.

68 - kirwan, l. p. : "A survey of Nubian Origins, SNR, XX, Part I, 1937,pp. 47 - 62.

69 - Kirwan, L. p. : The Oxford University Excavations at Firka, Ox-ford 1939.

70 - Kirwan, L. P. : "studies in the later history of nubia", LAAA, XXIV; pp. 69 - 105.

71- Kirwan, L. P. : " The Oxford Excavatiols in Bibia JEA, XXI, pp.

72- Kirwan, L. P. : "The ballana Civlization", SRGÉ., XXV, 1953. pp. 103 - 110.

73 - Kraus, Joh. : Die Anfange des Christentums in Nubien, Modling 1930.

74 - Lane - Poole, S. : A History of Egypt in the Middle Ages. 3 rd edition, London 1924.

75 - Laturette, K. S: A History of the Expansion of Christianity. Vol. II, London, 1947.

76 - Leo Africanus : A History and Description of Africa, done into English by John Pary, 1600, ed. Browne, (Hakluyt Society) 1896, Vol. III. London.

77- Lepsiusm R. : (a) Discoveries in Egypt, Etrhiopia and the Peninsual of Sinai in the years 1842 - 1845, 2 nd edn. London 1833.

78 - Letronne, A. J. : materiaux pour l'histoire du christianisme en Egypte, en nubie et en abyssinie (oeuvres choisies, ed. E. Fagnan, i serie : Egypte ancienne, tome i, paris 1881.

79 - lorimer, f. g. s. " the rubatab", snr, xix. part i, 1936. pp. 162-167.

80 - Macadam, m. f. l. : "the inscriptions" (note), sasop, 2, khartoum, 1953.

81 - MACMICHAEL, H. A. " Nubian elements in Darfur" SNR, I, No - I, 1918, pp. 30 - 48.

82 - Macmichael. H. A. : A History of the Arabs in the sudan. 2. vols Cambridge, 1922.

83- Macmicael, H. A. : "The Coming of the Arabs in the Sudan" aesw, London 1935.

84 - Maspero, J. : Histoire des Patriarches D'alexandrie, paris 1923.

85 - Maspero, j. : histoire des REL. lix, pp. 299 - 317.

86 - mc crindle, ed. the christian topography of cosmas, hakluyt society, london 1897.

87 - Michei le syrien : chronique de M. les parriarches jacobites d'Antioche. 4 tomes, ed. J. B. Chabot, Paris 1905.

88 - Mileham : Churches in Lower Nubia, Philadelphia, 1910

89 - Milne J. G. : A History of Egypt under Roman Rule London 1898.

90 - Morie L. J. : Les Civlisations Africaines. Histoire de l'Ethiopie (Nubie et Abyssine), depuis les temps le plus recultes jusqu' a nos jours, (etc. tome i ere., paris 1904.

91 - Muir, Sir. W. : The Mamluke or Slave Dynasty of Egypt, 1290 - 1517 PUBLE. 1896.

92 - Murray, g. w. : "aidhab" j. c., lXVIII, 1926.

93 - Murray, G. W, : Sons of Ismail, London 1935.

94 - Nadler, l. F. : "Fung orgins" Snr, xiv, part I. 1931 PP. 61 - 66.

95 - Newbold, D. : "The crusaders in the red sea and the sudan", snr, XXVI, part ii, 1945, pp. 213 - 227,

96 - nicholoson, H. R. : "a fragment from christian nubia". snr xvl, 1933, 83 - 85.

97- Niebuhr, B. G. : Indoriptiones Nubienses. Pomae, 1820

98 - paul, A. : A histpy of the beja tribes of the sudan. cambridge 1954.

99- paul, A. "Aidhab, a medieval red sea part". snr, xxxvi, 1955 , pp. 64 - 68.

100 - Penn, A. E. D. : "traditional stories of abdullab". snr, xvii, part, ii, 1934, pp. 59 - 82.

101 - Pliny : Natural History - translated by H. Rackham, vol. II. Libri III. XII - XII, London Mcmxlii.

102 - Priscus : Fragments, in Historici graeci Minores. edit. L. Dinderfius, Lepsiae, 1870.

103- Procopius. : History of the Wars, Translated by H. B. Dewing. The Loeb Classical Library T. E. Page, and W. H. D. Rouse, Lodon 1914.

104 - Quatremere, E. : Memoires geographiques et histori ques sur l'egypte, et sur quelques contrees voisins, 1811.

105 - Reid, j. a. : "some Notes on the Tribes of the White Nile Province", SNR, XIII, part II, 1930 pp. 149 - 210.

106 - Reisner, G. A. : ASN, B. I. 3, Cairo, 1908 - 9.

107- Reisner, G. A. : "Outline of the Ancient Hist. of the Sudan", SNR.

Paat I, vol. I, No.L, 1918, PP. 3 - 15

Part II, vol. I, No. 2, 1918, pp. 57 - 79

Part III, vol. I, No. 4, 1918, pp. 217 - 277

Part IV, vol. II, No. 1, 1919, pp. 35 - 67

108 - Renaudot, e. :histria patriacharum alexandrinotum. usque ed. finem saec. 13, paris 1713.

109 - Robertaon, j. w. : "Fung origins", snr, xvii, part ii, 1934, pp. 260 - 265.

110 - roeder, G. : "Die christiche zeit Nubiens und des sudan'. zeittshr. f. kirchengeschichte. xxxiii. gotha. 1912, 364 - 98,

111- Rossini Carlo Centi : Note Ethiopiche - Una Guerra fra la Nubie e l'ethiopie, nel seclo vii, roma 1897.

112- Sagar, J. w. : " Notes on the history, Religion and customs of the Nuba", Snr, v, part ii, 1922, pp. 137 - 156.

113 - Sandars, G. E. R. : "ThE Bisharin", SNR, XVI, part, 11, 1933, pp. 120 -- 149

114 - Seligman C, C, : (a) " Some Aspects of the Hamitic Problem in the Anglo - Egyptian sudan", JRAL, XLIII, 1913.

115 - Shinnie, p. l. : "a note on some fragments of stanped pottery from christian nubia" , snr, xxxiii, 1948, pp. 297- 9.

116 - shinnie p. l. : medieval nubia. khartoum 1954.

117 - Shinnie, P. L. : "excavations at sobo" Antiquities Service, occasional papers, no. 3, khartoum 1955.

118 - Shinnie, P. L. : "The fall of meroe", kush, iii, (jour. sud. ant. ser.) 1955. pp. 32 - 85.

119- Shinnie, P. L. : "Old dongola church". kush iii, (jour. sudan ant. s.) 1955, pp. 97 - 98.

120 - Shinnie, P. L. : "A christian nubian painting" kush, iii)jour. sudan ant. service) 1955, pp. 96 - 97.

121- Smith H. F. G. : " the transfer of the capital of kush from Napata to meroe". kush, iii. (jour. sud. ant. ser.) 1955. pp. 20 - 25.

122 - strabo : The Geography Of strabo. translated by jones. H. L. in eight volumes vol. viii. the loea classical library edited by T. E. page, e. capps, w. h. d. rouse london, william heinemann ltd. mcmxxxii, 1932.

123 - Tame, g. b. "legends of the halawin of blue nile". snr. xvii, part ii, 1934,

124 - Tothill, J. D. - ed. : Agriculture in the sudan, by numerous authors. londou 1948.

125 - Triminghm. J. S. : Islam in the sudan. geoffrey cumberlege oxford university press london, new york, toronto. 1949.

126 - Vansleb, J. M. : Histoire de l;eglise d' alexendrie fonde par s. marc, paris 1677.

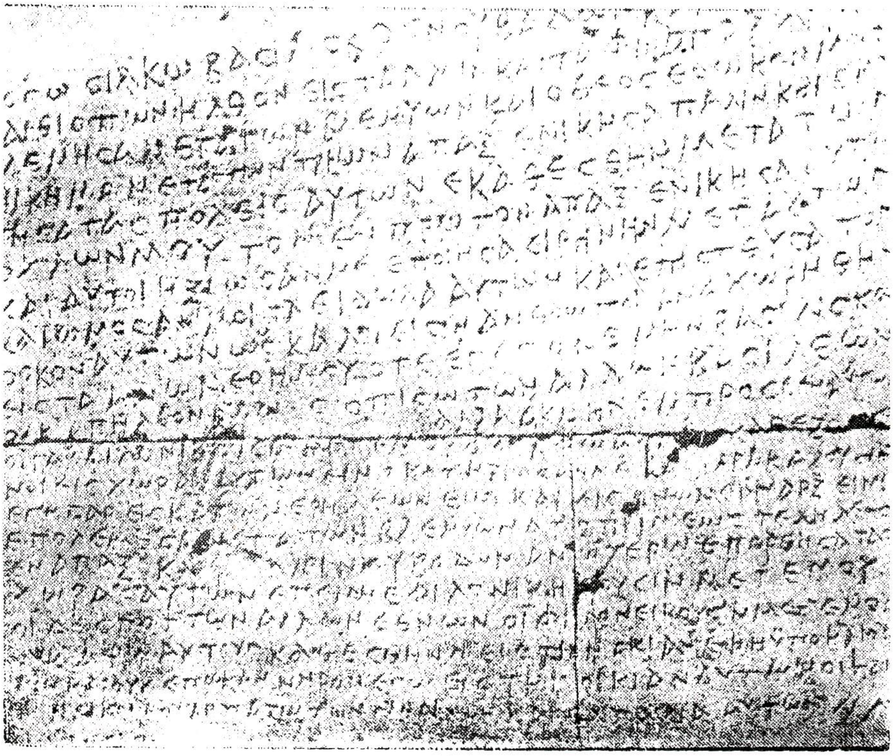
127 - Villard ugo Monneret De. : Storia della Nubia Cristiana Roma, 1933.

128 - Waddington (G.) and H2mbury (B.) : Journal of a visit to some parts of Ethiopia, London, 1822.

129 - Walkely, C. E. J. "the story of khartoum" , SNR, XVIII, part ii. 1933, pp. 221- 241.

130 - Weigall, a. e. p. "A report on the antiauities of lower nabia". oxford 1907.

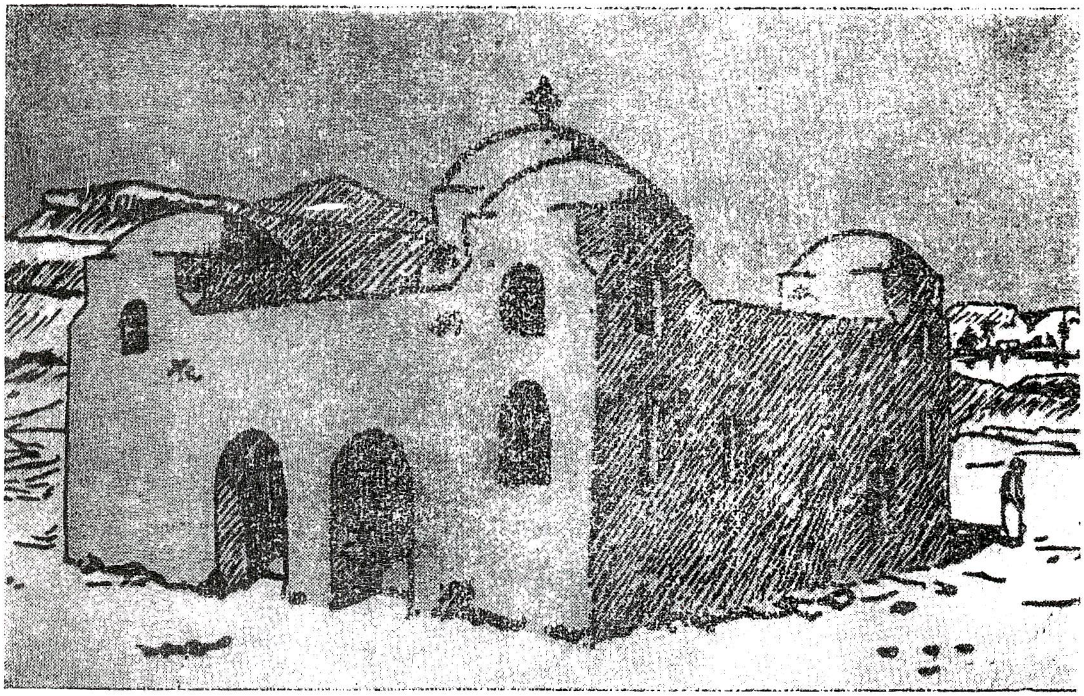
131 - woolley L. and Maciver. D. R. : karanog: the romano - Nubian Cemetery. philadelphia, 1910.



(١) نقش الملك سلكو باللغة اليونانية على جدران معبد كلابشة.



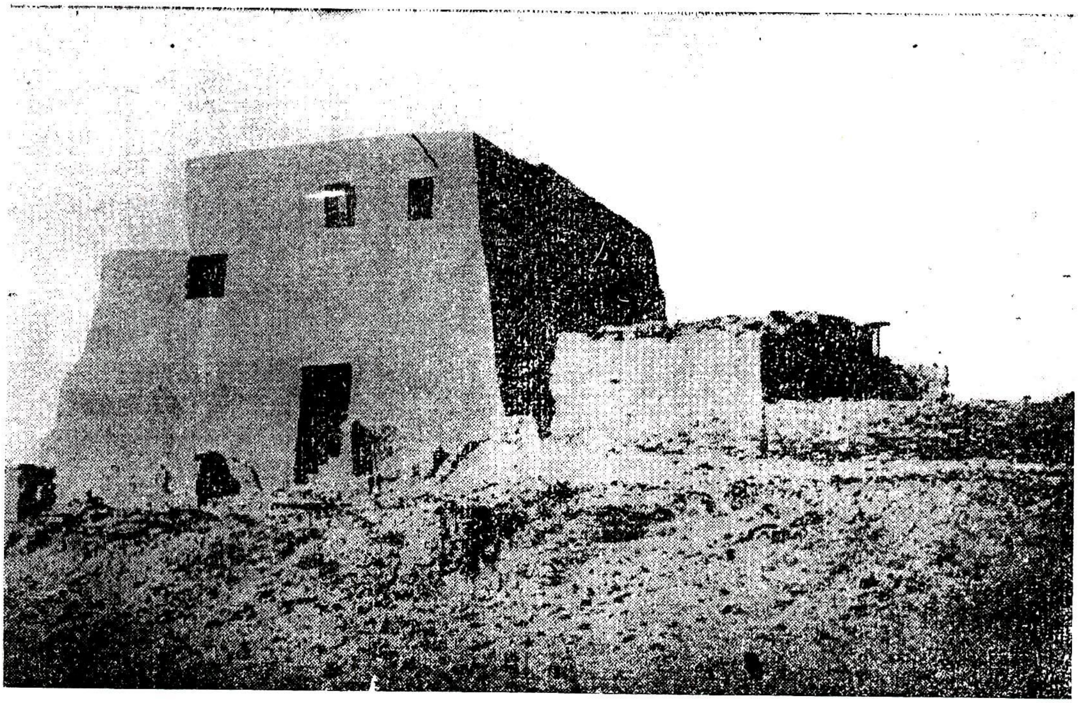
(٢) صورة إيباك (ميزارك) – صاحب الحبل، حاكم إقليم مريس.



(٣) رسم كنيسة نوبية. نقلا عن ميلهام.



(٤) مطران فرس.



(٥) كنيسة دنقلة ذات الطابقين.



(٦) نقش يبين تحويل كنيسة دنقلة إلى مسجد حوالى سنة ١٣١٨م

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg